د. الحسينى الحسينى معدّى

الأساطير السومرية

أساطير العالم



كنوز
للنشر والتوزيع

أسَاطِيرُ العَالَم

الأساطير السومرية

أساطير العالم
الأساطير السومرية

المؤلف
د/ الحسينى الحسينى معدى

مراجعة لغوية
حسام الكاشف

الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل - القاهرة
تليفون: 0127717795 - 0104010701
Kenouz55@yahoo.com

رقم الإيداع: 2457/2012

الترقيم الدولى: 5-057-709-977 - 978

الطبعة الأولى
2012

كنوز
للنشر والتوزيع

أسَاطِيرُ الْعَالَمِ

الأساطير السومرية

تأليف

د. الحسينى الحسينى معدّى

كنوز

للنشر والتوزيع

مقدمـــــة

تقع بلاد سومر القديمة في النصف الجنوبي من العراق الحديث، بدءًا من بغداد شمالاً حتي خليج البصرة جنوباً، وكانت تضم عدة مدن: إريدو «أبوشهرين الحديثة»، وأور «المقيّر الحديثة»، وأورك أو إيريك «وهي المسماة في التوراة إرك والمعـروفـة الآن باسم الوركـاء»، ولارسـار «المسـمـاة في التـوراة باسم الإسـار والمعروفة الآن باسم سنكرة»، ولكش «سبرلا الحديثة» ونيبور «نفر».

واكتشاف سومر والسومريين أربك الباحثين في تاريخ هذه المنطقة، فقد عـرف علمـاء العبـرانيين والإغـريق هذه البـلاد باسم «بابل» التي كـان سكانهـا ينطقون اللغة السامية «البابليين»، ولكن مع أعمال البحث والتنقيب عرف علماء الآثار أن البـابليين لم يكونوا أول من سكنوا هذه البـلاد، ولا أكـثـرهم خلقـاً وابتكاراً، وإنما كـانت حـضـارتهم امـتـداداً لحـضـارة هؤلاء الذين سـبـقـوهم «السومريون» الذين كانوا يتكلمون لغة «مقطعة»، لا هـي بالسامية ولا بالهندو ـ أوروبية. وإلي هؤلاء السومريين يرجع الفضل في وضع بذرة الحضارة في هذه المنطقة من العالم.

وقد استوطن الإنسان بلاد سومر ـ والتي أصبحت تعرف بهذا الاسم في الألف الثالث قبل الميلاد ـ في نحو ٤٥٠٠ ق.م.

غير أن القوم الذين استوطنوها أول مرة لم يكونوا سومريين، بل قوم عرفوا في علم الآثار بـ«العبيديين» الذين يعتبرون أول المزارعين الذين أسسوا عدداً من القري والمدن في هذه البلاد.

أمـا السومـريون أنفسهم فلعلهم لم يقـدموا إلي بـلاد سومـر إلا في الربع الأخير من الألفيـة الرابعة قبل الميلاد، وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء

من بحوث أن نعرف إلي أي سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون، أو أي طريق سلكوه حتي دخلوا بلاد سومر.

وأخيراً فإنني قد جمعت النصوص الخاصة بأساطير سومر من المصادر العلمية المتخصصة في ذلك المجال. والخير أردت.. وعلي الله قصد السبيل.

د/ الحسيني الحسيني معدي

■ ■ ■

المعتقدات الدينية السومرية

أنشأ السومريون في غضون الألف الثالث ق.م أفكاراً دينية ومفهومات روحية خلفت أثراً لا يُمحي في العالم الحديث، لاسيما من خلال اليهودية والمسيحية والمحمدية، وعلي المستوي الفكري وضع المفكرون والحكماء السومريون، نتيجة تأملاتهم الترجيمية في أصل الكون وطبيعته وطريقة عمله، علماً للكون ولاهوتاً فيهما الكثير مما يحمل علي الاقتناع، إلي حد أنهما أصبحا في أساس شهادة الإيمان والعقيدة المسلم بها للكثير من أديان الشرق الأدني القديم، وعلي المستوي العملي والوظيفي، أنشأ الكهان والقديسون السومريون مجموعة ذات ألوان متعددة ومختلفة من الطقوس والشعائر والمراسيم التي كانت كافية لتروق للآلهة وتسترضيهم، وكذلك لتوفير مصرف لمحبة الإنسان للمهرجانات والعروض الفخمة، وعلي المستوي الجمالي فقد أبدع شعراء الـ«إدبه» Edubba وكُتّابه ما هو أكثر أسطوريات الشرق الأدني القديم ثراء، وهي الأسطوريات التي أرجعت الآلهة إلي حجمها الإنساني، ولكنها قامت بذلك بتفهم وتوقير، وفوق كل ذلك، بأصالة وتخيل.

ولنبدأ بـ«علم الكون» واللاهوت، وبالحديث العلمي فإنه لم يكن تحت تصرف الفلاسفة والمفكرين السومريين إلا الأفكار الابتدائية والسطحية عن طبيعة الكون وطريقة عمله، وفي أنظار المعلمين والحكماء السومريين، كان المكونان الرئيسيان للكون «بالمعني الأضيق للكلمة» هما السماء والأرض، وبالفعل كان مصطلحهم الدال علي الكون هو «أن كي» an-ki، وهي كلمة مركبة تعني «السماء ـ الأرض» وكانت الأرض قرصاً منبسطاً يعلوه فضاء هائل خاو، يحجبه سطح صلب علي شكل سقف مقبب ولايزال غير معروف تماماً علي وجه التحقيق ما كانوا يعتقدونه بشأن مادة هذا السقف السماوي، وإذا حكمنا من

المصطلح السومري للقصدير وهو «معدن السماء»، فلعله كان القصدير وكانوا يميزون مادة بين السماء والأرض أطلقوا عليها «ليل» Lil، وهي كلمة معناها التقريبي هو الريح، الهواء، النفس، الروح، ويبدو أن أهم صفاتها المميزة هما الحركة والتمدد، ولذلك فهي تقابل الجو تقريباً، وكان يظن أن الشمس والقمر والكواكب والنجوم مصنوعة من المادة التي صنع منها الجو، ولكنها بالإضافة إلي ذلك أمدت بخاصية الإضاءة وكان ما يحيط بـ«السماء ـ الأرض» من كل الجوانب، وكذلك من الأعلي والأسفل، هو البحر غير المحدود الذي ظل الكون فيه ثابتاً وراسخاً علي نحو ما.

ومن هذه الحقائق المتعلقة ببنية الكون ـ الحقائق التي كانت تبدو للمفكرين السومريين واضحة ولا جدال فيها ـ أنشأوا علماً لنشوء الكون يليق بها. لقد استنتجوا أنه قد وجد في البداية بحر أول الزمان: والدلائل هي أنهم كانوا ينظرون إلي أن البحر كنوع من العلة الأولي والمحرك الأول، ولم يسألوا أنفسهم ماذا كان يسبق البحر في الزمان والمكان وفي بحر أول الزمان هذا تم بطريقة ما إحداث الكون أي «السماء ـ الأرض»، الذي يتألف من السماء ذات القبة التي تعلو الأرض المنبسطة وتتحد معها، ولكن كان يأتي بينهما «الجو» المتحرك والمتمدد الذي يفصل السماء عن الأرض، ومن هذا الجو سويت الأجسام المضيئة، وهي القمر والشمس والكواكب والنجوم وبعد انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجسام النجمية مانحة الضياء، ظهرت الحياة النباتية والحيوانية والبشرية إلي الوجود.

وافترض اللاهوتيون السومريون أنه كان لتشغيل هذا الكون وتوجيهه والإشراف عليه مجمع آلهة يتألف من جماعة من الكائنات الحية، شبيهة بالبشر شكلاً ولكنها فوق مستواهم، وخالدة، وهي وإن تكن محجوبة عن رؤية العين الفانية، إلا أنها تسيطر علي الكون وفق خطط محكمة وقوانين راسخة. وكانت مجالات السماء والأرض والبحر والهواء، والأجسام النجمية الرئيسة والشمس

والقمر والكواكب، وتلك القوي الجوية كالريح والعاصفة والإعصار، وأخيراً علي الأرض تلك الكيانات الطبيعية كالنهر والجبل والسهل، والكيانات الثقافية كالمدينة والدولة ومساق الماء والخندق، والحقل والمزرعة، وحتي تلك الأدوات كالمعول والقالب الآجري والمحراث، لقد عد كل شيء من ذلك من مسؤولية كائن أو آخر شبيه بالشكل البشري، ولكنه يفوق الإنسان، كائن يوجه نشاطاته وفقاً للقواعد والأنظمة المرسومة.

ولا ريب أنه خلف هذا الافتراض البديهي من اللاهوتي السومري يقوم استدلال منطقي ولو أنه ربما لم يكن واضحاً، ما دام من غير المحتمل أن يري بعينيه أي كائن من الكائنات الشبيهة بالبشر ومن المحتمل أن لاهوتينا قد أخذ الإيعاذ من المجتمع البشري كما عرفه واستدل من المعلوم علي المجهول، وقد لاحظ أن البلاد والمدن والقصور والمعابد والحقول والمزارع - وباختصار، كل ما يمكن تخيله من المؤسسات والمشاريع - إنما ترعاها وتشرف عليها، وتوجهها وتتحكم فيها كائنات بشرية حية؛ ولولاهم لاستوحشت البلاد، وتداعت المعابد، وتصحرت وأقفرت الحقول والمزارع، ولذلك وبالتأكيد كان لابد أن الكون وكل ظواهره المتعددة ترعاه كذلك وتشرف عليه، وتوجهه وتتحكم، فيه كائنات حية في هيئة بشرية، ولكن لأن الكون أكبر بكثير من المجموع الكلي لمساكن البشر، ونظامه أشد تعقيداً بكثير من نظامها، فلابد أن تكون هذه الكائنات الحية أقوي وأشد تعقيداً بكثير من البشر العاديين وفوق كل شيء لابد أن تكون خالدة، وإلا فمن شأن الكون أن يؤول عند مماتها إلي الفوضي الشاملة، وأن ينتهي العالم، وهما خياران لم يكونا مستحسنين عند الميتافيزيقي السومري، وقد كان كل كائن من هذه الكائنات غير المرئية، ذات الهيئة البشرية، والتي هي في الوقت نفسه تفوق البشر وخالدة، يدعي «دينجر» dingir، التي نترجمها بكلمة «إله».

كيف كان هذا المجتمع الإلهي يؤدي وظيفته؟ أولاً كان يبدو من المعقول للسومري أن يفترض أن الآلهة الذين يشكلون المجمع الإلهي لم يكونوا كلهم ذوي

أهمية واحدة أو مرتبة متساوية، فالإله المسؤول عن المعول أو القالب الآجري من العسير أن يقارن بإله مسؤول عن الشمس، ولا يمكن توقع أن تتساوي مرتبة الإله المسئول عن مسافات المياه والخنادق بمرتبة الإله المسؤول عن الأرض في كليتها، ثم كذلك، وقياساً علي التنظيم السياسي للدولة البشرية، كان من الطبيعي الافتراض أن رئيس مجمع الآلهة هو إله يعرف كل الآلهة الآخرين بأنه ملكهم وحاكمهم، وعلي ذلك فقد جري تصور مجمع الآلهة السومري كمجمع يرأسه ملك، وكانت أهم المجموعات في هذا المجمع مؤلفة من سبعة أرباب «يرسمون المصائر» وخمسين إلهاً معروفين باسم «الأرباب العظيمين»، ولكن التقسيم الأهم الذي أقامه اللاهوتيون السومريون ضمن مجمعهم هو بين الأرباب الخلاقين وغير الخلاقين، وهي فكرة توصلوا إليها نتيجة آرائهم الكونية، وتبعاً لهذه الآراء، فإن المكونات الأساسية للكون هي السماء والأرض، والبحر والجو، وكل ظاهرة كونية أخري لا توجد إلا ضمن مجال أو آخر من هذه المجالات ومن ثم بدا من المعقول استدلال أن الآلهة الذين هم تحت سيطرة السماء والأرض والبحر والهواء كانوا الأرباب الخلاقين، وأن إلهاً أو آخر من هؤلاء الآلهة الأربع قد خلق كل كيان كوني آخر وفقاً للخطط التي ابتدعوها.

أما من حيث تقنية الخلق المنسوبة إلي هؤلاء الأرباب، فقد أنشأ الفلاسفة السومريون مذهباً أصبح العقيدة المسلم بها في كل أنحاء الشرق الأدني، وهو مذهب قدرة الكلمة الإلهية الخلاقة، وكان كل ما علي الإله الخالق أن يفعله. وفقاً لهذا المذهب، هو أن يضع خططه، وينطق الكلمة، ويتفوه بالاسم ومن المحتمل أن فكرة الكلمة الإلهية الخلاقة كانت نتيجة استدلال تشابهي قائم علي ملاحظة المجتمع البشري، فإذا كان في وسع ملك بشري أن يحقق كل ما يصبو إليه تقريباً بالأمر، بما يبدو أنه ليس أكثر من كلمات فمه، فقد كان ممكناً بالنسبة إلي الأرباب الخالدين الذي يفوقون البشر، والمسؤولين عن مجالات الكون الأربعة، ما هو أكثر بكثير ولكن لعل هذا الحل «السهل» للمشكلات

الكونية، التي تكون فيها الفكرة والكلمة وحدهما بالغتي الأهمية، هو إلي حد كبير انعكاس لدافع الهروب إلي تحقيق حلم الرغبة المرجوة، وهو عملياً طبع كل البشر في أوقات الشدة والبلاء.

ومن قبيل ذلك، أورد اللاهوتيون السومريون، ما كان بالنسبة إليهم استدلالاً ميتافيزيقياً وافياً بالغرض لتفسير ما يجعل الكيانات الكونية والظواهر الثقافية، التي خلقت ذات مرة، تحافظ علي عملها باستمرار وانسجام من دون تنازع أو تشوش؛ وكان ذلك هو المفهوم الذي تشير إليه الكلمة السومرية «مي»، التي لا لا يزال معناها الدقيق مشكوكا فيه، ويبدو أنها تدل عموماً علي مجموعة من القواعد والتنظيمات المنسوبة إلي كل كينونة كونية أو ظاهرة ثقافية، يقصد المحافظة علي عملها إلي الأبد وفقاً للخطط التي يضعها الإله الذي يخلقها وباختصار، إنها إجابة سطحية أخري، ولكن من الواضح أنها ليست عديمة الجدوي إجمالاً، عن مشكلة كونية لا تحل.

ومصدرنا الأولي للمعلومات عن معني «مي» هو أسطورة «إينانا وإنكي» انتقال فنون الحضارة من إريدو إلي إيريك وقد قسم مؤلف القصيدة الحضارة كما كان يعرفها إلي مئة عنصر ونيف، يتطلب كل عنصر منها «مي» لإحداثه والمحافظة علي سيره، وهو يكرر في الأسطورة هذه المفردات المئة أربع مرات، ولكن علي الرغم من هذه التكرارات، فإن زهاء ستين مفردة هي وحدها المفهومة في الوقت الحاضر، وبعضها ليست سوي كلمات مجردة لا تعطي، لانعدام السياق، إلا إشارة خفيفة إلي دلالتها الحقيقية، ومع ذلك تظل كافية لإظهار الصفة المميزة، والأهمية، اللتين لهذه المحاولة الأولي للتحليل الثقافي المؤدية إلي قائمة كبيرة بما يصطلح عليه الآن عموماً بالخصائص والتركيبات الثقافية، وتتألف هذه المفردات، كما سنري، من المؤسسات المتعددة، والوظائف الكهنوتية، ومعدات الطقوس، والمواقف العقلية والانفعالية، وشتي المعتقدات والعقائد المُسلّم بها.

كان الأرباب السومريون، كما رسمت صورهم الأساطير السومرية، ذوي هيئات بشرية بشكل كامل، وحتي الأرباب الأقوي والأعراف بينهم جري تصورهم بشريين في الشكل والفكر والعمل وهم كالإنسان، يخططون ويعملون، ويأكلون ويشربون، ويتزوجون ويعيلون الأسر، ويعضدون البيوت الكبيرة، ويستحوذ عليهم ما يستحوذ علي البشر من الأهواء وأحوال الضعف، وهم علي العموم يفضلون الحقيقة والعدالة علي الباطل والجور، ولكن دوافعهم ليست واضحة علي الإطلاق، وكثيراً ما يتحير الإنسان في أمرهم ولا يفهمهم وكان يعتقد أنهم يعيشون فوق «جبل السماء والأرض حيث تبزغ الشمس»، عندما لم يكن وجودهم ضرورياً في الكيانات الكونية الخاصة التي عهد بها إليهم، أما مسألة كيف يتحركون ويتجولون فغير معروفة تماماً من المعلومات المتاحة معرفة يقينية، ولو أننا نعلم أن إله القمر يتحرك في قارب، وإله الشمس في مركبة حربية، أو وفقاً لرؤية أخري، علي قدميه، وإله العاصفة علي الغيوم وكانت القوارب تستخدم مراراً، ولكن يبدو أن المفكرين السومريين لم يزعجوا أنفسهم بأمثال هذه المشكلات العملية والواقعية، وهكذا لم يجر إعلامنا عن الطريقة التي يفترض أنهم وصلوا بها إلي معابدهم ومزاراتهم المختلفة في سومر، وبأي طريقة كانوا يؤدون نشاطات بشرية من قبل الأكل والشرب ويرجح أن الكهان لم يروا إلا تماثيلهم، التي تعهدوها وعاملوها بمنتهي العناية، ولكن كيف تصوروا أن الأشياء الحجرية والخشبية العظم والعضل ونسمة الحياة، فإن هذا السؤال لم يخطر ببالهم.

ولابد أن المفكرين السومريين قد أزعجهم التناقض الصميمي بين الخلود والتشبه بالشكل البشري؛ فعلي الرغم من أن الأرباب كان يعتقد بأنهم خالدون، فقد كان يجب أن يكون لهم قوتهم، ويمكن أن يصابوا بالمرض علي درجة الموت، وكانوا يحاربون ويجرحون ويقتلون. ولا ريب أن حكماءنا السومريين قد أنشأوا أفكاراً لاهوتية كثيرة في محاولة لا جدوي منها لحل التنافرات والتناقضات

الملازمـة للنظام الديني القـائم علي تعـددية الآلهـة، ولكن إذا حكمنا من المادة المتاحة، فمن المحتمل أنهم لم يعبروا عن هذه الأفكار في شكل نظامي، ولذلك لن نعلم الكثير عنها، وعلي أي حال، فمن بعيد الاحتمال أن يكونوا قد حلوا الكثير من التنافرات، ومما لا ريب فيه أن ما نجاهم من الإحباط الروحي والفكري هو أن الكثير من الشك الذي كان من شأنه أن يقلقهم، وفقاً لطريقة تفكيرنا، لم يمر بأذهانهم.

عند منتصف الألف الثالث ق.م، علي آخر تقدير، نجد مئات الآلهة، بالاسم علي الأقل، موجودة بين السومريين ونعرف أسماء الكثير من هؤلاء الآلهة، لا من مجرد الجداول المجمعة في مدارس الكتبة. بل كذلك من قوائم الأضحيات علي الألواح التي تم الكشف عنها أثناء القرن الماضي، ومن أسماء الأعلام التي هي من قبيل «فلان راع» و«فلان له قلب كبير»، «الذي هو مثل كذا»، «خادم فلان»، «رجل فلان»، «فلان المحبوب»، «فلان أعطاني»، وما إلي ذلك من عبارات يمثل «فلان» فيها اسم إله، والكثيرون من هؤلاء الآلهة هم آلهة ثانويون، أي أنهم زوجات وأطفال وخدم، تم استنباطهم من أجل الآلهة الرئيسين علي أساس الأنموذج البشري، ولعل الأسماء الأخري، هي أسماء وصفات أخري للأرباب المعروفين جيداً ولا نستطيع في الوقت الحاضر تحديدهم وتمييزهم.

ومهما يكن، فبالفعل كان عدد غفير من الآلهة يعبد حقاً طوال العام من الأضحيات والتقديس والصلاة، وكان الآلهة الأربع الأهم من هؤلاء المئات من الآلهـة هم إله السـمـاء آن، وإله الهـواء إنليل، وإله الماء إنكي، والآلهـة ـ الأم العظيمة نينهورساغ، وكانوا في العادة يتقدمون القائمة الإلهية، وكثيراً ما يدرجون وهم يؤدون أعمالاً مهمة معاً بوصفهم جماعة، وفي اللقاءات والولائم الإلهية كانت تعطي لهم مقاعد الشرف.

وثمة سبب وجيه للاعتقاد بأن «آن»، إله السماء، كان السومريون يتصورونه في أحد الأزمان أنه الحاكم الأعلي لمجمع الآلهة، علي الرغم من أنه في المصادر

الميسورة لنا، والتي ترجع إلي زهاء عام ٢٥٠٠ ق.م، يبدو أن إله الهواء، إنليل، هو الذي يمتلك مكانه بوصفه زعيم مجمع الآلهة وكانت دولة المدينة التي كان فيها مقر عبادته الرئيس تدعي إيريك، وهي مدينة أدت دوراً سياسياً بارزاً في تاريخ سومر، وفيها اكتشفت بعثة ألمانية قبل الحرب العالمية الثانية بزمن غير طويل، ألواحاً طينية صغيرة منقوشة بعلامات من النوع الذي يشبه الكتابة التصويرية، يعود تاريخها إلي زهاء عام ٣٠٠٠ ق.م، وظل آن معبوداً في سومر آلاف السنين، ولكنه فقد الكثير من مكانه بالتدريج، وبات شخصاً شبحياً إلي حد ما في مجمع الآلهة، ونادراً ما يذكر في تراتيل الأيام المتأخرة وأساطيرها، وفي ذلك الحين منح الإله «إنليل» جل قدراته.

وكان الإله الأهم في مجمع الآلهة السومري، والذي أدي دوراً مهيمناً في كل أنحاء سومر في الطقس والأسطورة والصلاة، هو إله الهواء إنليل، والأحداث المؤدية إلي القبول العام بأنه كبير الآلهة في المجمع الإلهي السومري مجهولة: ولكن إنليل، ومن أقدم المدونات المفهومة، معروف بأنه «أبو الآلهة» و«ملك السماء والأرض» و«ملك كل الأراضي»، ويفخر الملوك والحكام بأن إنليل هو الذي منحهم ملكيتهم علي البلد، وهو الذي جعل البلد مزدهراً، وجعل بين أيديهم التغلب بقوته علي كل البلاد، وإنليل هو الذي يعين الملك ويعطيه صولجانه وينظر إليه بعين الاستحسان.

ونعلم من الأساطير والتراتيل المتأخرة أنه قد جري تصور إنليل أكثر الآلهة إحساناً، هو المسؤول عن التخطيط لأشد ملامح الكون إثماراً وخلقها، وكان الإله الذي جعل النهار يبزغ، والذي أخذته الشفقة علي البشر، والذي وضع الخطط التي تغل من الأرض كل البذور والنباتات والأشجار، وكان هو الذي صنع المعول والمحراث نموذجين أوليين للأدوات الزراعية التي سيستخدمها الإنسان، وأنا أشدد علي ملامح الإحسان في طبع إنليل لأصحح سوء التصور، الذي وجد سبيله عملياً إلي كل الكتيبات والموسوعات التي تعالج الديانة والثقافة السومرية،

الـ . . . . ، الواشي،

المتعجرف، ناكتب الميثاق،

إنه لا يطيق شرهم في المدينة،

الشبكة الكبيرة . . . ،

إنه لا يدع الفاجرين وفاعلي الشر يفلتون من خلال عيونها .

نيبور ـ المزار الذي يسكن فيه الأب، «الجبل العظيم»،

سدة الوفرة، حيث يعلو المعبد إكور . . .

الجبل الشامخ، المكان الطاهر . . ،

أميرها، «الجبل العظيم»، الأب إنليل،

قد أسس مقعده على سدة إكور، المزار الرفيع؛

المعبد ـ مراسيمه كالسماء لا يُمكن إسقاطها،

وطقوسه الطاهرة كالأرض لا يُمكن القضاء عليها،

مراسيمه كمراسيم الغمر العظيم لا يُمكن النظر إليها،

قلبه مثل مزار بعيد، مجهول مثل كبد السماء . . . ،

كلماته صلوات،

ألفاظه ابتهال . . ،

شعيرته نفيسة،

ولائمه تسيل دسماً ولبنا، غنية بالخير العميم،

مستودعاته تجلب السعادة والمسرة . . . ،

ومعبد إكور، الدار اللازوردية، المقام الرفيع،

مهابته ورهبته تأتيان بعد السماء،

ظله ينتشر علي كل البلاد،

رفعته تصل إلي قلب السماء،

كل السادة والأمراء يوصلون إلي هناك هداياهم وتقدماتهم المقدسة،

ينطقون هنالك الصلاة والابتهال والالتماس.

السماء ـ إنه واحدها الأميري؛ الأرض ـ إنه واحدها العظيم،

الأنوناكي ـ إنه إلههم المعظم؛

وعندما، في حالة الهول، يقرر المصائر،

لا يجرؤ إله علي النظر إليه.

إلي وزيره المعظم، نوسكو، عهد بتنفيذ أوامره الشاملة.

واستودعه كل الشرائع المقدسة، كل الأحكام المقدسة.

لولا إنليل، الجبل العظيم،

لما بنيت المدن، ولا تأسست المستوطنات،

ولما عمرت معالف الدواب، ولا أنشئت الزرائب،

ولما تنصب الملك، ولا ولد كبير الكهنة،

ولما اختار فأل الغنم كاهن «ماه» ولا كبار الكهنة،

ولما كان للعمال مراقب ولا مشرف..

والأنهار ـ لما كانت مياه طوفانها تفيض،

ولا باض السمك البيوض في أجمة الخيزران،

ولا بنت طيور السماء الأعشاش في الأرض الشاسعة،

وفي السماء لما أتت الغيوم المنساقة برطوبتها،

ولأخفقت النباتات والأعشاب، وهي مجد الأرض، في النمو،

وفي الحقل والمرج لأخفقت الحبة الغنية في أن تزهر،

ولما أغلت الأشجار المزروعة في الغابة الجبلية بثمرها..

أما ثالث ملوك الآلهة السومريين فهو إنكي، الإله المسؤول عن غير المتكون «ما قبل الخلق»، أو بالسومرية الـ «أبزو»، وكان إنكي إله الحكمة، وهو في الدرجة الأولي من نظم الأرض وفقاً لقرارات إنليل، الذي اقتصر دوره علي وضع المخططات العامة، وكانت التفصيلات الفعلية والأعمال التنفيذية متروكة لإنكي، الحكيم، الحاذق، واسع الحيلة، صنيع اليدين ونحن نعلم الكثير عنه من أسطورة «إنكي والنظام العالمي: تنظيم الأرض وعملياتها الثقافية»، التي توفر بياناً مفصلاً عن نشاطات إنكي الخلافة في إنشاء الظواهر الطبيعية والثقافية الضرورية للحضارة.

كانت تأتي الإلهة ـ الأم نينهور ساغا في الترتيب الرابع بين الأرباب الخلاقين، وهي معروفة كذلك باسم نينماه «السيد العلية»، ومن المحتمل أن هذه الآلهة كانت في زمن باكر ذات مرتبة أرفع، وكثيراً ما كان اسمها يتقدم علي اسم إنكي حين يدرج الآلهة الأربع معاً لسبب أو لآخر، ولعل اسمها كان في الأصل «كي» «الأم الأرض»، ومن المحتمل أنها كانت تعد زوجة آن، «السماء» ـ وهكذا يمكن أنه قد جري تصور آن وكي علي أنهما أبوا جيمع الآلهة، وكانت تعرف كذلك باسم «نينتو»، السيدة التي أنجبت، وكان أوائل الحكام السومريين يحبون أن يصفوا أنفسهم بأنهم «الذين تغذيهم نينهور ساغ باللبن باستمرار»، وكانت تعد أم كل الكائنات الحية، الإلهة ـ الأم الفائقة، وهي في إحدي أساطيرها تؤدي دوراً مهماً في خلق الإنسان، وفي أسطورة أخري تبدأ بسلسلة من الولادات الإلهية في ديلمون، فردوس الآلهة.

بالإضافة إلى هؤلاء الآلهة الكبار الأربع يوجد ثلاث أرباب نجميين هم: الإله ـ القمر نانا، المعروف كذلك باسم «سين»، والذي من المحتمل أن يكون ذا أصل سامي؛ وابنه الإله ـ الشمس، أوتو، وابنته الإلهة إينانا المعروفة لدي الساميين باسم شتار، ومن الممكن أن يشار إلى هذه المجموعة من الآلهة السبع، «آن» و«إنليل» و«إنكي» و«نينهور ساغ» و«نانا ـ سين» و«أوتو» و«إينانا» على أنها الآلهة السبع الذين «يقررون المصائر»، أما «الآلهة العظام» الخمسون فلم تعط لنا أسماؤهم ولكن يبدو أنهم متماثلون مع الـ «أنوناكي»، أبناء آن، وعلى الأقل من كان منهم غير منحصر بالعالم السفلي، وكان هنالك كذلك مجموعة من الآلهة تسمي «إيجيجي»، ولو أنه يبدو أن أعضاءها يؤدون دوراً صغيراً نسبياً، إذا حكمنا من أنهم لا يذكرون إلا نادراً في الأعمال الأدبية التي وصلتنا.

إذا تحولنا عن الإله إلى الإنسان وجدنا أن المفكرين السومريين، وفقاً لرؤيتهم للعالم لم يبالغوا في الثقة بالإنسان ومصيره، كانوا على اقتناع راسخ بأن الإنسان قد صنع من الطين ولم يخلق إلا لغرض واحد: هو خدمة الآلهة بإمدادهم بالطعام والشراب والمأوي حتي يمكن لهم أن يتفرغوا لنشاطاتهم الإلهية وكانت حياة الإنسان مغشاة بعدم اليقين، وينتابها الاضطراب مادام لا يعرف مقدماً المصير الذي يرسمه له الآلهة الذين لا يعرف لهم منوال، وعند مماته كانت روحه الموهنة تنزل إلى العالم السفلي المظلم القابض للصدر، حيث لم تكن الحياة سوي ظل موحش وكئيب لنظيرها الأرضي.

إن إحدي المشكلات الأخلاقية الأساسية، الأثيرة جداً عن الفلاسفة الغربيين، لم تقلق المفكرين السومريين على الإطلاق، وأعني بها مشكلة حرية الإرادة، فإن السومريين إذا اقتنعوا من دون أي حاجة على حجة أن الإنسان قد خلقه الأرباب لفائدتهم وفراغهم فقط، قبلوا وضعهم الاتكالي كما قبلوا الحكم الإلهي بأن الموت نصيب الإنسان وأن الآلهة هم وحدهم الخالدون وكل فضل في الخلال المناقبية والفضائل الأخلاقية التي أنشأها السومريون عبر القرون، تدريجياً وبألم من تجاربهم الاجتماعية والثقافية، كان ينسب إلى الآلهة: فالآلهة

هم الذين خططوا له على ذلك النحو، ولم يكن الإنسان إلا متبعاً للأوامر الإلهية.

كان السومريون، تبعاً لمدوناتهم، يتعلقون بالخير والحقيقة، وبالقانون والنظام، والعدالة والحرية، والنزاهة والاستقامة، والرحمة والحنو، ومن الطبيعي أنهم كانوا يأنفون من أضدادها، أي: الشر والباطل، والفوضى واستباحة القانون، والظلم والجور، والإثم والتمادي في الخطأ، والقساوة وانعدام الشفقة، وكان الملوك والحكام، على وجه الخصوص، يتفاخرون بأنهم سنوا القانون والنظام في البلدان وحموا الضعيف من القوي، والفقير من الغني، وأزالوا الشر والعنف وعلى سبيل المثال، يدون «أوروكاجينا» بفخر أنه أعاد العدل والحرية لمواطني لاغاش الذين طالت معاناتهم، وتخلص من الموظفين الجائرين الذين لا يخلو منهم مكان، وأنهي الظلم والاستغلال، وحمي الأرملة واليتيم، وبعد أقل من أربعة قرون، نشر «أورنامو» مؤسس سلالة أور الثالثة، مجموعة قوانينه، التي يعدد في افتتاحيتها بعض منجزاته الأخلاقية: لقد تخلص من بعض المفاسد المكتبية الشائعة، وضبط الموازين والمكابيل ليضمن الاستقامة في ميدان السوق، ويتيقن من أن الأرملة واليتيم والمسكين في حماية من سوء المعاملة ومن المقابحة، وبعد زهاء قرنين نشر ليبيت ـ عشتار، من «إيسين»، مجموعة قوانين جديدة يفخر فيها بأنه من اختاره الإلهان «آن» و«إنليل» لـ«إمارة البلد» لكي يقيم العدل وليبعد المظالم، ويرد البغضاء والعصيان بقوة السلاح، وليجلب حسن الحال للسومريين والأكاديين، ويوجد في تراتيل عدد كبير من الحكام السومريين الكثير مما يشبه هذه المزاعم بالسلوك الأخلاقي والمناقبي الرفيع.

ولا شك أن الأرباب كانوا كذلك يفضلون الأخلاقي والمناقبي على غير الأخلاقي وغير المناقبي، ووفقاً للحكماء السومريين، فإن أهم آلهة المجمع الإلهي السومري يشاد بذكرهم في التراتيل بوصفهم عشاق الخير والعدل والحق والاستقامة، وبالفعل، هناك عدة أرباب كان الإشراف على النظام الأخلاقي أهم

وظيفة لديهم: منهم، مثلاً الإله ـ الشمس، أوتو وقد قامت إلهة أخري، هي الإلهة اللغاشية التي تدعي نانشه، كذلك بدور مهم في مجال السلوك الأخلاقي والمناقبي وهي موصوفة في إحدي تراتيلها بأنها الإلهة:

التي تعرف اليتيم، التي تعرف الأرملة،

وتعرف ظلم الإنسان للإنسان، إنها أم اليتيم،

نانشه، التي تهتم بالأرملة،

التي تنشد «؟» العدل «؟» لأفقر الناس «؟»

الملكة التي تحضر الملتجئ إلى حضنها،

وتعثر للضعيف على مأوي.

وتصور في فقرة أخري من هذه الترتيلة بأنها تحكم في البشر في رأس السنة الجديدة، وبجانبها نيدابا، إلهة الكتابة والحساب، وزوجها هايا، بالإضافة إلى شهود عديدين أن الأنماط الإنسانية الخبيثة التي تنفر منها نيدابا هي:

الذي يتمادي في..،

«الناس» الذي يتجاوز الحدود المقررة، وينتهك العقود،

الذي كان ينظر باستحسان إلى أماكن الشر،..،

الذي يستعيض بوزن خفيف عن وزن ثقيل،

الذي يستعيض بمكيال صغير عن مكيال كبير،

الذي يأكل «شيئاً لا يخصه» ولا يقولُ قد أكلتهُ،

الذي يشرب، ولا يقول «قد شربته»...،

الذي يقول، «أود أن آكل ما هو محرم»،

الذي يقول، «أود أن أشرب ما هو محرم».

وضمير نانشه ينكشف أكثر في أبيات تقول:

لراحة اليتيم، وإزالة الترمل،

لإقامة مكان تدمير للقوي،

لقلب القوي ضعيفاً . . . ،

تفتش نانشه في قلب الشعب

ولسوء الحظ، وعلى الرغم من أن كبار الآلهة يفترض أن يكونوا في سلوكهم من ذوي الأخلاق والمناقب، فقد ظل الواقع، وفقاً لرؤية السومريين للعالم، هو أنهم كانوا أيضاً الأرباب الذين خططوا للشر والباطل، والعنف والجور؛ وباختصار، لكل أنماط السلوك المفتقرة إلى المناقب والأخلاق الحميدة، ولذلك فإن قائمة الـ«مي»، أي القواعد والتنظيمات التي يخترعها الأرباب لجعل الكون يسير بسلاسة وفعالية، لا تقتصر على القواعد التي تنظم «الحق» و«السلام» و«الخير» و«العدل» بل يوجد بينها كذلك القواعد التي تضبط «الباطل» و«الخصام» و«العويل» و«الخوف». ورب سائل يقول: لماذا يجد الأرباب من الضروري أن يخططوا للإثم والشر، والألم والمصيبة، وأن يخلقوا هذه الأمور التي كانت من الانتشار إلى حد أنه يمكن لامرئ سومري متشائم أن يقول: «ألم يولد لأم طفل بلا خطيئة؟» وإذا حكمنا من المادة المتيسرة، فإن الحكماء السومريين، إذا سُئلوا هذا السؤال في أي وقت، كانوا مستعدين للاعتراف بجهلهم في هذا الموضوع فمشيئة الآلهة وبواعثهم لا يدرك كنهها في بعض الأحيان، فلم يكن النهج القديم الذي على «أيوب» سومري أن يتبعه هو المجادلة والتذمر من الحظ العاثر غير المسوغ ظاهرياً، وإنما هو التوسل والعويل والندب، والإقرار بذنوبه ونقائصه التي لا مناص منها.

ولكن هل كان الأرباب يبالون به، وهو فانٍ وحيد، ولو سجد وأذل نفسه في صلاة صادرة عن القلب؟ لقد كان من شأن المعلمين السومريين أن يجيبوا بأنه

من المحتمل ألا يبالوا، فقد كان الأرباب، كما رأوهم كالحكام الفانين ولديهم ولا ريب أمور أهم يولونها اهتمامهم، وهكذا، كما في حال الملوك، على الإنسان أن يكون لديه وسيط يتشفع له، وسيط يكون الأرباب مستعدين لسماعه والتعاطف معه، وفي النتيجة، أوجد المفكرون السومريون وأنشأوا مفهوم الإله الشخصي، وهو نوع من الملاك الصالح لكل فرد على الخصوص، ولكل رئيس أسرة، هو أبوه الإلهي الذي أنجبه، إن جاز القول، وكان الفرد المصاب يكشف قلبه له، أي لإلهه الشخصي، في الصلاة والابتهال، وكان من خلاله يجد خلاصه.

وقد علمنا كل ذلك من نص شعري طويل يعالج المكابدة والخضوع، وهما موضوع أشهره في العالم الأدبي والفكر الديني «سفر أيوب» في الكتاب المقدس. ولا مجال لمقارنة القصيدة السومرية بـ«سفر أيوب» في سعة المدي، أو عمق الفهم، أو جمال التعبير، ويكمن جل أهميتها في أنها تمثل محاولة الإنسان المدونة الأولي لمعالجة الشيخوخة ومشكلة المكابدة، قبل أكثر من ألف سنة من تأليف «سفر أيوب».

والقضية الأهم عند شاعرنا هي أنه ليس للضحية في أحوال المعاناة والشدة، مهما بدت غير مبررة، إلا ملاذ واحد ناجع ومشروع، هو الاستمرار في تمجيد إلهه والنواح والعويل أمامه، إلى أن يلتفت إلى صلواته بأذن راضية، والإله المعني هنا هو الإله «الشخصي» للمصاب، أي الرب الذي هو وفقاً للعقيدة السومرية المقبولة يعمل بوصفه ممثلاً وشفيعاً للإنسان في مجمع الآلهة. وليثبت المؤلف غرضه لا يلجأ إلى التأمل الفلسفي بل إلى التطبيق العلمي، فيستشهد ويعرض قضيته هنا، لم يذكر اسمه بالتأكيد. كان موسراً وحكيماً ومستقيماً، ومنعماً عليه بالأصدقاء والأقارب على السواء، وفي أحد الأيام غمرة الداء والبلاء، فهل تحدي النظام الإلهي وجدف لا، أبداً لقد أقبل على إلهه بالتخشع وبالدموع والعويل وسكب قلبه في الصلاة والتضرع، ونتيجة لذلك، سر إلهه سروراً عظيماً ومال إلى الشفقة، فاهتم بصلواته، ونجاه من حظه العاثر، وحول

أمه إلى فرح.

وإذا تكلمنا بنائياً، فإن القصيدة يمكن أن تقسم مؤقتاً إلى أربعة أقسام، يأتي أولاً تحريض تمهيدي وجيز، هو الأبيات الخمسة الأولي التي تقول:

ليعرب الإنسان عن سمو إلهه على الدوام،

وليحمد الشاب كلمات ربه من دون تكلف،

وليصوت بالأنين من يعيش في البلد الأمين،

في دار الغناء «؟» ليهنأ «؟» صديقه ورفيقه،

وليهدأ قلبه.

ثم تقدم القصيدة الفرد غير المسمي، الذي عند إصابته بالمرض والبلية، يخاطب ربه بالدموع والصلوات، ويلي ذلك التماس المكابد، الذي يشكل القسم الأكبر من القصيدة، ويبدأ بوصف المعاملة السيئة التي يوليها له إخوته البشر، والأصدقاء، والأعداء على السواء، ويستمر يندب قدره المرير، الذي يتضمن الطلب البليغ إلى الأقارب والمغنين المحترفين أن يحذوا حذوه، وينتهي باعتراف بالذنب وتوسل مباشر من أجل الفرج والنجاة:

أنا إنسان، إنسان بصير، ومع ذلك فمن يحترمني لا يفلح،

لقد تحول عالمي الصالح إلى أكذوبة،

غطاني رجل الخداع بالريح الجنوبية،

فأنا مكره على خدمته،

ومن لا يحترمني يعيبني أمامك،

لقد تصدقت عليَّ بألم يتجدد أبداً،

دخلت المنزل، فإذا الروح مثقلة،

وأنا، الإنسان، خرجت إلى الشوارع، فإذا القلب مغتم،

ومعي، أنا الباسل، أصبح الراعي الصالح عندي غاضباً، ينظر إلى مناوئاً،

إن الراعي الذي عندي قد ناشد القوي الشريرة أن تكون ضدي أنا الذي ليس عدوه،

ولا يقول لي رفيقي كلمة صادقة،

وصديقي يكذب كلمتي الصادقة،

وتآمر على رجل الخداع،

وأنت، يا إلهي، لا تمنعه

«ثلاثة أبيات ضائعة»

وأنا، الحكيم، لماذا أقرن بالشبان الجهلة؟

وأنا، البصير لماذا أعد من ضمن الجهلة؟

الطعام في كل مكان، ومع ذلك فطعامي هو الجوع،

وعندما وزعت الحصص على كل الناس، كانت حصتي هي الألم.

«عشرة أبيات ضائعة»

يا إلهي، أود أن أقف أمامك،

أود أن أكلمك..، كلمتي آهة،

أود أن أحدثك عنها، أن أندب مرارة حياتي

«أن أنوح على» التشوش

«ثلاثة أبيات ضائعة»

انظر، لا تدع أمي التي ولدتني توقف ندبي أمامك،

لا تدع أختي تنطق بالأنشودة والأغنية السعيدتين،

بل دعها تتلفظ بمصائبي أمامك دامعة العينين،

دع زوجتي تتفوه بألمي متفجعة،

دع المغني البارع يندب قدري المرير،

يا إلهي، النهار يشرق متألقاً على البلد، وبالنسبة لي النهار أسود،

النهار المتألق، النهار الجميل له.. مثل الـ..،

تقيم الدموع والعويل والجوي والاكتئاب في داخلي،

يغمرني الألم مثل من نذر للدموع فقط

يمسكني القدر الشرير بيده، يختطف نسمة حياتي،

يغسل جسدي الداء الخبيث.

«زهاء، بيتاً ضائعة»

يا إلهي، أنت أبي الذي أنجبني، ارفع وجهي،

مثل بقرة برية، وبشفقة.. الآهة،

كم سيطول تجاهلك لي، وتركي من غير حماية؟

مثل ثور..،

تتركني من دون هداية؟

لقد قال الحكماء، كلمة صادقة ومعبرة:

«لم يولد لأم ولد بلا خطيئة ومنذ القدم لم يك فتي بلا خطيئة»

«١٤ بيتاً ضائعاً»

هذا ما كان من أمر الصلاة والابتهال، ثم تتبع ذلك «النهاية السعيدة»:

«الرجل» ـ أصغي «ربه» إلى بكائه ونحيبه،

«الشاب» هدأ ندبه وعويله قلب إلهه الكلمات الصادقة،

الكلمات الطاهرة التي نطقهها، قبلها ربه،

الكلمات التي اعترف بها الشاب في صلاته، سرت ربه

كف ربه يده عن الكلمة الشريرة، التي تغم القلب..،

وشياطين السقم المكتفة، التي نشرت أجنحتها على إتساعها، أزالها،

«الداء» الذي أصابه مثل.. بدده،

القدر الخبيث الذي رسمه له وفقاً لحكمه قد حاد عنه،

لقد حول عناء «؟» الرجل إلى فرح

وضع بجانبه.. بلطف.. روحاً لتكون رقيبة وحارسة،

أعطاه.. ملائكة ذات طلعة ودية،

«وهكذا» «الإنسان» يعرب على الدوام عن سمو إلهه،

ولكن سواء أكان ثمة ملاك حارس أم لا، فإن الإنسان يموت عاجلاً أو آجلاً، ويذهب إلى العالم الذي في الأسفل لئلا يعود، وغني عن القول إن ذلك كان مصدراً للقلق والحيرة، فقد كانت مشكلة الموت والعالم السلفي مغشاة بالألغاز والمفارقات والمعضلات، فلا عجب أن الأفكار السومرية التي تمت إليها بصلة لم تكن دقيقة ولا متسقة، كما سيتبدي من التحليل التالي للمادة ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث.

من وجهة نظر السلوك الثقافي السومري، كانت الأضرحة الملكية متعددة المدافن التي كشف عنها في أور الفقيد السير ليونارد وولي بمنتهي العناية

والبراعة ذات أهمية، فهي تدل بيقين معقول على أن أوائل حكام سومر كانوا عادة لا يصطحبون معهم إلى القبر بعضاً من أنفس مقتياتهم الشخصية فقط، بل كذلك عدداً غير قليل من حاشيتهم البشرية، وغني عن القول، إنه إثر هذا الاكتشاف المذهل، بدأ الباحثون في الكتابة المسمارية، ولاسيما علماء السومريات - في نبش الوثائق بحثاً عن نوع أو آخر من البينات النصية، ولكن من دون طائل، وعلاوة على ذلك، ففي العقدين الماضيين، أصبح عدد كبير من الأساطير السومرية والحكايات الملحمية والتراتيل والمراثي والوثائق التاريخية متيسراً، ويبدو أنه من المعقول أن يأمل المرء أن يلقي نص أو آخر من هذه النصوص الضوء على عادات الدفن السومري ذات الصلة بالأضرحة الملكية، ولكن هذا الأمل لم يتحقق بشكل كامل، ربما لأن الأضرحة الملكية تعود إلى زهاء العام ٢٥٠٠ ق.م، بينما ترجع الوثائق الأدبية المتاحة أمامنا إلى زهاء العام ٢٠٠٠ ق.م.

إن الوثيقة الأدبية السومرية الوحيدة التي تبدو أنها تؤكد الدليل الأرخيولوجي على أن الحكام القدامي كانوا يصطحبون معهم إلى قبورهم حاشية بشرية، هي نص قصير وغير كامل يصف موت جلجامش، ويفيد هذا النص في صيغة شعرية أن جلجامش قد قدم الهدايا والهبات إلى مختلف أرباب العالم السفلي وإلى الأموات المهمين الذين يقيمون ثمة من أجل كل الذين «استلقوا معه» في «قصره المطهر» في إيريك «أوروك»: زوجته وابنه وسريته وموسقيه ومؤانسه وكبير خدمي وملازمي أهل الدار، وليس مما يجافي المعقول أن نفترض أن الشاعر قد صور هذه الهدايا على أنها تقدمة من جلجامش بعد أن مات هو وأفراد حاشيته ونزلوا إلى العالم السفلي، فإذا تبين أن هذا التفسير صحيح، كان لدينا تأييد معنوي للنمط متعدد المدافن من الضريح الملكي الذي كشف عنه وولي، وخصوصاً أن جلجامش، كما نعلم الآن، كان معاصراً لـ«ميسانيبادا» ومن ثم ينتسب تقريباً إلى العهد الذي تمثله الأضرحة.

والوثيقة الأخري التي تلقي ضوءاً ليس بقليل على الممارسات الجنازية

المتعلقة بالأموات المكلبين، هي نص عن الملك «أورنامو»، ينتمي إلى جنس أدبي لم يكن بالإمكان تصنيفه إلى الآن وربما كان العمود الأول، المفقود تماماً، يشتمل على وصف شعري لمنجزات أورنامو البارزة في الحرب والسلم والأحداث المنحوسة المفضية إلى الموت، ويبدو أن النص المتاح، الذي يبدأ بالعمود الثاني، يتصل بمسألة كيف كان أورنامو «الذي كان متروكاً» في ميدان المعركة مثل وعاء مهروس، مستلقياً على نعشه في قصره، تندبه أسرته وأقاربه وشعب أور، ونجده بعد ذلك في العالم السفلي، كما في حالة جلجامش ـ يقدم هداياه إلى «الأرباب السبعة»، ويذبح الثيران والخراف للموتي المهمين، ويقدم الأسلحة والحقائب الجلدية والأوعية والأثواب والحلى والجواهر والأمتعة الأخري إلى «نرغال» و«جلجامش» و«إرشكيغال» «؟» و«دوموزي» و«نمتار» و«هوبيشاغ» و«نينجيشزيدا» ـ رلي كل منهم في قصره، وقدم كذلك الهدايا إلى «ديمبيميكوغ»، وإلى كاتب العالم السفلي، ثم وصل أورنامو إلى البقعة التي «من المحتمل» أن كهنة العالم السفلي قد عينوها له، وهنا سلم إليه بعض الموتي، ربما ليكونوا أتباعه، وشرح له جلجامش، أخوه المحبوب، ضوابط العالم السفلي وأنظمته.

ولكن، تتابع قصيدتنا قائلة: «بعد أن انقضت سبعة أيام أو عشرة أيام»، وصل أسماع أورنامو عويل سومر، إن جدران أور التي تركت غير منتهية وقصره المبني حديثاً والذي ترك غير مطهر، وابنه الذي لم يعد يستطيع أن يدلله «؟» على ركبته، إن كل ذلك قد ملأ عينيه بالدموع، فشرع في نواح طويل ومرير. ويبدو أن مصدر صراخه هو أنه على الرغم من أنه قد خدم الآلهة على ما يرام، قد قصروا عن أن يقفوا إلى جانبه في وقت الشدة، وهو الآن ميت، وقد أشبعت زوجته وأصدقاؤه ومؤيدوه بالدموع والعويل وخاتمة التأليف مجهولة إجمالاً ما دام العمود الأخير تألف تماماً.

وكما يمكن أن يبدو مما تقدم، فإنه من العسير تصنيف الجنس الأدبي الذي تنتسب إليه القصيدة، يمكن أن تكون نوعاً من التأليف التاريخي، شبيه في

بعض النواحي بـ«لعنة أغاده، التي ينفس فيها الشاعر السومري عن أحاسيسه حيال حالة الأمور في سومر بعيد موت أورنامو.

وعلى أي حال، فإن وثيقة أورنامو تلقي ضوءاً على حياة الموتي في العالم الأسفل كما يصورها الحكماء السومريون، ومرة أخري نجد الأرباب الذين يجب استرضاؤهم وكذلك الكهنة الموتي المهمين وكان للشخص الميت الواصل حديثاً مكان خاص معين له، ويجري تعليمه قوانين العالم السفلي، على الأقل إذا كان ملكاً، ويستطيع الشخص المتوفي، وإن كان ميتاً، وبطريقة غير مفسرة، أن يكون على اتصال تعاطفي بالعالم الذي فوق، ويمكن أن يكابد الهوان والجوي، ويمكن أن يضج من الأرباب الذين لا يمكن التعويل عليهم ولكن خلافاً لقصيدة «موت جلجامش»، لا ذكر لحاشية بشرية تحيط بالملك في العالم السفلي، وبالفعل، توصف الزوجة والأولاد بأنهم يعيشون في العالم العلوي، ولذلك يبدو بعيداً عن المخاطر أن نستنتج أنه في زمن أورنامو على الأقل، لم يعد من المألوف أن يصحب الملك إلى قبره أي فرد من أسرته وأتباعه.

فإذا تحولنا عن الأسرة الملكية إلى الأموات العاديين عرفنا عدداً كبيراً من التفصيلات المجهولة حتي الآن عن العالم السفلي السومري، وذلك من مرثيتين موجودتين على رقيم «متحف بوشكين»، ونقرأ في هذا الرقيم، أول مرة، أن المفكرين السومريين قد اعتقدوا أن الشمس تستمر بعد غروبها في رحلتها عبر العالم السفلي في دليل، محولة ليلة إلى نهار، وأن القمر يمضي «يوم راحته»، أي اليوم الأخير من كل شهر، في العالم السفلي، ونعرف كذلك أنه كانت هناك محاكمة يقوم بها إله الشمس، أوتو، وأن إله القمر نانا «يرسم مصير» الموتي، ووفقاً للرقيم، كان يوجد «أبطال يأكلون الخبز؟» و«سقاة» يروونى ظمأ الموتي بالماء الزلال، ونعرف أيضاً، أن أرباب العالم السفلي يمكن الدعاء إليهم لنطق الصلوات على الموتي، وأن الإله الشخصي للمتوفي وإله مدينته يتم استحضارهما لمصلحته، وأن حسن حال أسرة الميت لا تهمل في الصلوات الجنائزية.

والوثيقة السومرية التي توفر المعلومة المفصلة عن العالم السفلي والحياة التي تجري ضمن حدودها، هي قصيدة جلجامش وإنكيدو والعالم السفلي ووفقاً لهذا المؤلف، الذي يصف العالم السلفي بأسلوب تلطيف الكلام بأنه «المسكن الكبير»، كانت توجد في إيريك فتحة من نوع ما تفضي إلى عالم الموتي، ومن خلالها يمكن أن تسقط الأشياء الخشبية مثل الـ«بوكو» Puku والـ«ميكو» Mikky وأن توضع فيها يد وقدم، وكان يوجد في المدينة كذلك باب كبير يمكن أن يقعد أمامه المرء وأن ينزل من خلاله الميت ـ على الأقل إذا كان بطلاً مثل إنكيدو ـ إلى العالم السفلي، على الرغم من أنه لم تتوضح مسألة كيف يمكن أن يحدث هذا النزول، ولكن كانت ثمة محرمات ينبغي لكل من يريد الهبوط على العالم السفلي أن يحذر من انتهاكها، كما يذكر مؤلف القصيدة: عليه ألا يرتدي الثياب النظيفة، وألا يدهن نفسه بالزيت «الجيد»، وألا يحمل سلاحاً أو هراوة، وألا يلبس خفاً، وألا يحدث ضجة أو يتصرف بصورة عادية نحو أفراد أسرته، وإذا خالف أي محرم من تلك المحرمات، أحاط به «القيمون» واكتنفته الظلال التي تقيم في المناطق المنخفضة، وتمسكت به «صيحة العالم السفلي العالية»، وإذا استحوذت على الميت هذه «الصيحة العالية» فمن المحال أن يصعد إلى الأرض من جديد، ما لم يتدخل لمصلحته إله أو آخر من الآلهة، وفي حال إنكيدو، فقد كان إنكي هو الذي جاء لإنقاذه، وجعل أوتو يفتح «أبلال» aplal العالم السفلي، فصعد إنكيدو إلى الأرض من جديد، وعلى ما يبدو «بالجسد» لا بوصفه روح ميت، وتبعاً للقصيدة، فقد تلت ذلك مكالمة تقطع القلب حزناً بين جلجامش وإنكيدو الذي يفهم منه أنه وصف حالة الموتي، أو بالأحري حالة بضعة أصناف مختارة من الموتي.

فإذا تحولنا عن الأموات، العاديين وغير العاديين، إلى الآلهة الخالدين، فسيبدو أن العالم المكان الأخير الذي يبحثون فيه عن وجودهم «الذي لا يفني»، ومع ذلك، نجد عدداً غفيراً من الأرباب هنالك، وبينما أن بعضهم ينتمون إليه، إذا جاز القول، فإن غيرهم كانوا آلهة سماويين حكم عليهم كتاب الأساطير

بالعيش في العالم السفلي نتيجة ترجيم وابتداع لاهوتيين، ولكن حتي الآن فإنه لم يتم استرداد إلاّ القليل من الأساطير ذات الصلة بالموضوع.

لدينا أولاً أسطورة «إنليل وننليل: ولادة إله القمر»، التي تروي كيف كان إنليل نفسه، أقوي الآلهة السومريين ورئيس المجمع الإلهي السومري، قد أبعد إلى العالم السفلي وتبعته إلى هنالك زوجته نينليل، ولهذه الأسطورة أهميتها كذلك بوصفها المصدر الوحيد للاعتقاد السومري بوجود نهر «سلتهم البشر» يجب أن يعبره الموتي وكذلك نوتي القارب الذي يعبر بالموتي إلى جهتهم المقصودة، وهو اعتقاد شائع في كل أنحاء الشرق الأدني القديم وعالم البحر المتوسط.

والأسطورة ذات الإبانة الشديدة فيما يتصل بالموت والعالم السفلي هي أسطورة «نزول إينانا إلى العالم السفلي»، التي هي الآن متيسرة في نصها الكامل تقريباً، ووفقاً لهذه القصيدة، فإن العالم السفلي هو المكان الذي ينزل إليه المرء ومنه يصعد ربما عبر فتحة أو باب واقع في إيريك، على الرغم من أن ذلك غير مذكور صراحة في أي موضع، وفي العالم السفلي يوجد مكان يوصف بأنه «جبل لازوردي» يحرس أبوابه المقفلة بوابون تحت إشراف رئيسهم «نيتي»، والعالم السفلي تحكمه ضوابط وأنظمة إلهية، يبدو أن الأهم من بينها هو أن ساكنيها يجب أن يكونوا عراة كلياً، وكانت القاعدة الأخري، التي كانت مهلكة لدوموزي، هي أنه لا يمكن للمرء الذي يكون ذات مرة في العالم السفلي، ولا حتي للإله، أن يصعد من جديد إلى العالم الأعلى إلا إذا تم تأمين بديل يحل محله، وهكذا، فللتيقن من أن إيناناً، التي تم إحياؤها من خلال جهود إنكي البارعة، سوف توفر بديلاً مناسباً يحل محلها، فقد رافقتها عفاريت الغالا السبعة حتي سلمتهم دوموزي.

لذلك نجد على العموم أن الصورة السومرية للموت والعالم السفلي كانت غبشاء ومتناقضة بعض الشيء، وكان يعتقد عموماً أن العالم السفلي مكاناً كونياً

ضخماً تحت الأرض يناظر السماء التي هي المكان الكوني فوق الأرض، وقد يكون من المسلم به أن الموتي، أو على الأقل أرواح الموتي، كانوا ينزلون إليه من البر، ولكن يبدو هنالك فتحات أو أبواباً كذلك في كل مراكز المدينة المهمة، وكان يوجد نهر على الموتي أن يجتازوه بقارب عبور، ولكن لا يصرح في الأساطير المتيسرة أين كان بالنسبة إلى الأرض أو إلى العالم السفلي، وكانت إرشيكغال تحكم العالم السفلي هو ونرغال، الذي كان لديه حشم خاص من الآلهة، وفي جملتهم الأنونكي السبعة، وعدد من آلهة السماء منكودي الحظوظ، بالإضافة إلى عدد من الموظفين الشبيهين بالشرطة يعرفون باسم الغالات «أو عفاريت الغالا»، ومن الواضح أن جميعهم، باستثناء الغالات، كانوا بحاجة إلى الغذاء والكساء والأسلحة والأوعية من مختلف الأنواع والجواهر وما إلى ذلك، كالآلهة الذين في السماء أو الفانين الذين على الأرض، وكان هنالك قصر ذو سبعة أبواب حيث كانت إرشكيغال تعقد المحكمة، ولكن من غير المحقق أين يفترض أن يكون موقعه.

ويبدو أن الموتي كانوا يرتبون في مراتب كالأحياء، وما من ريب أن المقاعد العليا كانت تقرر للموتي الملوك وكبار الموظفين الكهنوتيين الذين تقدم لهم الأضاحي من قبل الموتي المهمين الجدد أمثال جلجامش وأورنامو، ولقد كان في العالم السفلي كل أنواع القواعد والتنظيمات الواجب اتباعها بدقة، وعلى الرغم مما يتشكل لدي المرء من أحساس بأن العالم السفلي مظلم وقابض للصدر، فإن ذلك ليس صحيحاً إلاً في النهار، ففي الليل كانت الشمس تخلع عليه الضياء، وفي اليوم الثامن والعشرين كان القمر يهبط إلى العالم السفلي، ولم يكن الأموات متساويين في المعاملة، فكان ثمة حكم في الأموات يصدره إله الشمس، أوتو، وإلى حد ما إله القمر نانا، وإذا كان الحكم محبذاً، فمن المرجح أن تعيش روح الميت في سعادة ورضاً وأن تملك كل ما ترومه، ومهما يكن، فالدلائل هي أن السومريين لم تكن لديهم إلاّ ثقة ضعيفة بآمال الحياة الهنيئة في العالم

السفلي، حتي بالنسبة إلي الخير والاستحقاق، وعلي العموم كان السومريون مقتنعين أن الحياة في العالم السفلي لم تكن سوي انعكاس موحش وكئيب للحياة على الأرض.

ومع أن الوفاء الخاص والورع الشخصي لم يكونا عديمي الأهمية، فبسبب رؤية السومريين للعالم، كانت الطقوس والشعائر هي التي أدت الدور المهيمن في دينهم، وبما أن الإنسان لم يخلق إلا بقصد خدمة الآلهة، فمن الواضح أن أهم واجب عليه هو تأدية هذه الخدمة وإتقانها بطريقة تروق لمخدوميه وترضيهم، لماذا أنقذ زيوسودرا من هلاك الطوفان؟ لأنه كان يؤدي الطقوس اليومية للآلهة بخشوع وتقوي، ولم يكل حكام سومر من تكرار أنهم كانوا يؤدون واجبات عبادتهم بحسب القواعد والأنظمة المسنونة.

ولاريب أن المعبد كان مركز العبادة، وكان أحد أوائل المعابد قد تم الكشف عنه في إريدو، المدينة التي كانت إنكي الإله المختص بحمايتها، على الأقل في الأيام المتأخرة، وعلى الرغم من أنه كان مقدساً ذا شكل بسيط تبلغ مساحته زهاء إثني عشر قدماً في خمسة عشر قدماً، فقد اشتمل منذ البداية على ملمحين ميزا المعبد السومري طوال آلاف السنين: محراب لشعار الإله أو تمثاله، وأمامه منضدة للتقدمة مصنوعة من الآجر الطيني، وفي أثناء إعادة البناء اللاحقة، توسع مقدس إريدو هذا وأدخل عليه التحسين، ثم صارت له صالة في الوسط يحيط بها عدد من الغرف الرافدة، ووضع المذبح، الذي تواجهه منضدة القرابين، مقابل أحد الجدران القصيرة وزينت جدران المعبد الآجرية ـ الطينية الباهتة بالدعائم والتجاويف الموضوعة بانتظام ورفع البناء كله على مصطبة موصولة بمجموعة من الأدراج تفضي إلى مدخله في الجانب الطويل من البناء.

وإلى أبعد من ذلك شمالاً في إيريك «أو أوزوك» يوجد معبد من المحتمل أنه مكرس للإله «آن» ويعود تاريخه إلى زهاء العالم «٣٠٠٠ ق.م»، وهو مبني

عموماً على منوال معبد إريدو، باستثناء أن المصطبة قد استبدلت بها رابية مصطنعة ترتفع زهاء أربعين قدماً فوق الأرض المستوية، وكان الدرج المبني قبالة واجهتها الشمالية يفضي إلى الذروة، حيث ينتصب مزار صغير مطلي ببياض الكلس، وقد تم استخراج معبط مماثل في العقير؛ وبرغم أن المصطبة التي بني فوقها لم يكن ارتفاعها سوي خمسة عشر قدماً، فقد ارتفعت على مستويين ومن ثم يمكن أن تعد الطراز الأولي للبرج الهرمي «الزقورة»، وهو البرج ذو المستويات الذي أصبح العلامة الفارقة لفن عمارة المعابد في بلاد ما بين النهرين، والذي كان يقصد منه أن يؤدي دور الصلة الواصلة، حقيقياً ورمزياً على السواء، بين الآلهة في السماء والفنانين على الأرض، ومعبد العقير جدير بالالتفات كذلك من أجل ابتكار معماري آخر، ابتكار يبدو أنه قد تم اتباعه في المعابد السومرية الأخري: هو الزخرفة الداخلية المطلية بالألوان وكان الترتيب كما يلي: يأتي أولاً شريط من لون بسيط، هو العادة ظل للأحمر، يدور حول الجدران بارتفاع يزيد على ثلاثة أقدام وفوق ذلك شريط ملون من زينة هندسية يزيد ارتفاعه على القدم والأجزاء العلوية للجدران مزدانة بمشاهد من أشكال بشرية وحيوانية مرسومة على بقعة خالصة البياض.

وكان الابتكار المعماري الآخر قد تم ابتداعه في إيريك عندما أظهر بناة معبد إيانا طريقة فريدة في زخرفة الجدران والأعمدة الآجرية ـ الطينية ذات المظهر الكئيب، وذلك بتغطيتها بعدد لا يحصي من المخروطات الفخارية التي غمست بألوان مختلفة فكانت ذراها إما حمراء وسوداء، وأما برتقالية، وكانت هذه المخروطات الملونة مدخلة جنباً إلى جنب في جص طيني ثخين بطريقة شكلت مثلثات وعراجين ومعينات مبرقشة الألوان وغير ذلك من التصاميم الهندسية.

واستمرت المعابد في متابعة الأنموذج العام نفسه طوال الألف الثالث قبل الميلاد، برغم أنها جنحت لأن تغدو أكبر وأشد تعقيداً، وأصبحت الصالة

الأمامية ملمحاً ثابتاً، أما مرتسم البناء فذو شكل بيضوي أو مستطيل، وأدخلت مادة بناء جديدة وهي على ما يبدو ليست ملائمة جداً هي الآجر المسطح المحدب، المسطح في أحد الجانبين والمنحني في الجانب الآخر، وفي العادة كانت الأساسات تبني آنئذ من كتل خشنة من الأحجار الجيرية.

وفي زمن سلالة «أور» الثالثة، أصبحت المعابد في المدن الكبري عبارة عن مجمعات واسعة وهكذا كان معبد «نانا» في مدينة أور، المسمي إكيشوغال، يتألف من ساحة محوطة تبلغ مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة تشتمل على برج هرمي «زقورة» وعلى عدد كبير من المزارات، والمخازن الغذائية، مخازن العتاد الحربي، والباحات، ومساكن موظفي المعبد، وكان البرج الهرمي، أو الزقورة، وهو الملمح البارز، برجاً ذا قاعدة مستطيلة يبلغ طولها زهاء «٢٠٠» قدم وعرضها «١٥٠» قدماً، وكان ارتفاعه الأصليّ زهاء «٧٠» قدماً، وكان في كليته كتلة متينة مصنوعة من الآجر مغطاة بطبقة من الآجر الطيني الخام وطبقة خارجية من الآجر المحروق الملصوق بالقار، وكان يرتفع على ثلاث مستويات غير منتظمة يتم الانتقال بينها بثلاثة أدراج، ويتكون كل درج من مئة درجة ومن المحتمل أن يتعلى ذروته مقدس بني كلياً من الآجر المطلي بالأزرق وكان البرج الهرمي ينتصب على مصطبة مستوية ومرتفعة يحيط بها جدار مزدوج عند حافة هذه المصطبة هنالك معبد إله القمر، نانا، مع ساحة خارجية تحيط بها حجرات المخزن المتعددة ومكاتب وليس بعيداً عنه كان يوجد معبد آخر مكرس لـ«نانا» وزوجته، «نينغال»، ثم معبد معروف بالـ«دوبلال»، كان يستخدم كدار للقضاء، وأخيراً معبد نينغال، والمعروف بالـ«جيباركو».

كانت عملية بناء المعبد وإعادة بنائه تصحبها طقوس كثيرة وشعائر مختلفة، كما توضح ذلك القصيدة السردية الطويلة ذات التراتيل المكتوبة على اسطوانتين تم الكشف عنهما في لاغاش، وهي تحتوي على ٥٤ عموداً، ومن المحتمل أن هذه الوثيقة، وهي من الوجهة العملية العمل الأدبي الوحيد المحفوظ في هذا العهد،

قد ألفها أحد شعراء معبد إنينو في لاغاش تكريماً لذكري إشادة غوديا الورع لذلك المعبد، وأسلوبه الأدبي متعظم ومتفيهق ومطنب، ويبدو أن الصور التي يرسمها للطقوس والشعائر التي تصاحب بناء إنينو تتضمن الخيال أكثر من الواقع، ومع ذلك، فهذه القصيدة شديدة الأهمية ومفيدة بالمعلومات، كما سيظهر الموجز التالي لمحتوياتها.

إذا استمعنا إلى سرد للقصيدة نجد أنها قد بدأت كلها بعد أن تقررت المصائر وبوركت مدينة «لاغاش» بوافر فيضان دجلة وحدث بعد ذلك أن نينجيرسو، إله مدينة لاغاش المختص بحمايتها، قد قرر أن يجعل غوديا يبني له معبده إنينو بطريقة بديعة فظهر لغوديا في حلم يبدو وكأنه ابتداع خالص لغرض معين من الشاعر، مع أنه يسرد الأحداث كأنها حدثت فعلاً.

رأي غوديا في الحلم إنساناً ذا قامة هائلة الحجم وعلى رأسه تاج إلهي، وله جناحاً طير ذا رأس أسد، والجزء السفلي من جسمه «موجة طوفان»، والأسود مزمجرة عن يمينه وعن شماله وأمر الإنسان الضخم غوديا ببناء معبده، ولكنه لم يستطع أن يفهم معني كلماته وانبلج النهار ـ في الحلم ـ وإذا امرأة تظهر ممسكة بمرقم ذهبي تتفحص لوحاً من الصلصال صورت عليه السماء ذات النجوم ثم ظهر «بطل» يمسك بلوح من اللازورد رسم عليه مخطط دار، وكان يضع كذلك أحجار الآجر في قالب الآجر الذي انتصب أمام غوديا مع سلة نقل وفي الوقت ذاته كان حمار يضرب بحوافره الأرض بنفاد صبر.

وبما أن معني الحلم لم يكن واضحاً لغوديا، قرر استشارة الإلهة نانشه، التي كانت تؤول الأحلام للآلهة بيد أن نانشه كانت تعيش في منطقة من مناطق لاغاش تدعي نينا وكان أفضل سبيل إلى بلوغها هو اجتياز الترعة، ولذلك رجل إليها غوديا بقارب، جازماً أن يتوقف عند عدة مزارات مهمة ليقدم لآلهتها الأضحيات والصلوات لينال دعمهم وأخيراً وصل القارب إلى رصيف ميناء نينا، وذهب غوديا مرفوع الرأس إلى ساحة المعبد، حيث قدم أضحياته، وصب قرابين

الخمر والزيت، وأدي الصلوات، ثم روي لها حلمه وفسرته له نقطة نقطة، هكذا:

إن الرجل ذا القامة الضخمة الذي يعلو رأسه تاج إلهي، والذي له جناحاً طائر برأس أسد، والجزء الأسفل من جسمه موجة طوفان يعني أخاها نينجيرسو، الذي أمره ببناء معبد إنينو، وانبلاج النهار فوق الأفق يعني نينجرسو، إله غوديا الشخصي، الذي يرتفع مثل الشمس، والمرأة التي تمسك بمرقم ذهبي وتتفحص لوحاً من الصلصال صورت عليه السماء المزدانة بالنجوم يعني نيداباً «إلهة الكتابة والربة الراعية للـ إدوبا» Edubba التي ترشدك في بناء الدار وفقاً لـ«النجوم المقدسة» والبطل الذي يمسك بلوح من اللازورد ـ يعني «المهندس المعماري» الإله نيندوب الذي يرسم مخطط المعبد، وعربة النقل وقالب الآجر الذي وضع فيه «آجر القدر» إنهما علامة على أحجار الآجر لمعبد إنينو والحمار الذي يضرب بحوافره الأرض بنفاد صبر، إنه من دون شك، يعني غوديا نفسه، الذي هو فاقد الصبر على تنفيذ مهمته.

ثم شرعت نانشه تنصح غوديا بإنشاء مركبة حربية جديدة وجميلة الزخرفة لنينجيرسو، وتقديمها إليه مع فدان من ذكور الحمير ورسم رمزي للإله وأسلحة، مصحوبة بقرع الطبول، وتم ذلك وفي حلم آخر، أعطاه نينجيرسو توجيهات إضافية، وبارك لاغاش بالوفرة والفيض، وطمأن غوديا أن شعبه سوف يعمل بمنتهي الكد لبناء الإنينو بكل صنوف الخشب والحجر المجلوبة من مختلف البلاد.

وصحا غوديا من نومه، وبعد أن قام بالتضحية ورأي فألها ميموناً، شرع خاشعاً في تنفيذ توجيهات نينجيرسو، وأصدر التعليمات لشغب مدينته،، الذي استجاب بحماسة واتحاد، وقام أولاً بتطهير المدينة أخلاقياً ومناقبياً، فلا ينبغي أن توجد شكاوي أو اتهامات أو عقوبات، فعلى الأم ألاَّ تُعنف ابنها، ولا يجوز أن يعلو صوت الطفل على أمه، ويجب ألاَّ يعاقب العبد على ارتكاب الخطأ، ويجب ألاَّ تضرب السيدة عبدتها لعدم الاحترام، وقد أبعد كل القذرين عن المدينة،

وبعد سلسلة أخري من البشائر وهواتف الوحي والأضحيات والمراسم الاحتفالية والصلوات، شرع بكل جهده في مهمة بناء الإنينو، الذي يصفه الشاعر عندئذ بتفصيل شديد وتكراري، ولسوء الحظ، غامض في جل الأحيان.

والقصيدة المكتوبة على الاسطوانة الأولي تنتهي بإتمام بناء مجمع الإنينو، ثم يتواصل المسرود الترتيلي على الاسطوانة الثانية، بدءاً بصلاة غوديا لآلهة الأنوناكي، يليها إبلاغه نينجيرسو وزوجته، باو، أن المعبد قد اكتمل وأصبح جاهزاً للسكنى، وبمساعدة عدد من الأرباب، نظف غوديا المعبد وأعد كل الطعام وزيت القربان وخمره والبخور للاستخدام في مراسم الاحتفال بدخول الآلهة في بيتهم ومرة أخري نظف غودياً المدينة، أخلاقياً ومناقبياً وبعدئذ شرع غوديا في تعيين مجموعة كاملة من الآلهة للعناية بحاجات المعبد: حارس الباب، ورئيس خدم، وصانعو دروع، ورسول، وحاجب، وسائق عربة، وراع للماعز، وموسيقيون، وناظر حبوب، وناظر أماكن صيد السمك، وحافظ حيوانات الصيد وطيوره، ووكيل أراض، وهذه التعينات موصوفة بأسلوب يذكر بوصف تعيين إنكي لمختلف الأرباب المشرفين في أسطورة «إنكي والنظام العالمي» وبعد أن اتحد نينجيرسو وباو في النعيم الزوجي، تلت ذلك سبعة أيام من الاحتفال توجتها وليمة لكبار الآلهة آن وإنليل ونينماه، ويعد مباركة نينجيرسو، تختم القصيدة بأنشودة حمد للأنينو وإلهة نينجيرسو.

فإذا تحولنا عن هذه الصورة المثالية للمعبد والعبادة فيه، إلى الطقوس والشعائر الفعلية اليومية، فقد نسلم بأنه كانت تقدم في معبد كل مدينة رئيسة أضحيات يومية، تتألف من الأغذية الحيوانية والنباتية، وصب الماء والخمرة والجعة، وإحراق البخور، وما من ريب أن المراسم الاحتفالية كانت أروع وأبهج بكثير في الأعياد والأيام الدينية، كانت توجد مهرجانات كثيرة على مدار السنة، إذا حكمنا من أسماء شهور أمثال «شهر أكل شعير نينجيرسو»، و«شهر أكل الغزلان»، و«شهر عيد شولغي»، وكانت بعض هذه الأعياد تدوم عدة أيام ويحتفل

فيها بالأضحيات والمواكب وكانت توجد إلى ذلك أعياد شهرية منظمة في يوم الهلال الجديد وكذلك في اليوم السابع والرابع عشر واليوم الأخير من كل شهر.

وكان عيد «العام الجديد» أهم الأعياد قاطبة، ومن المحتمل أن يحتفل به في عدة أيام بالولائم والمراسم الخاصة وكان أهم طقس من طقوس «العام الجديد» هو الزواج المقدس بين الملك الذي يمثل الإله دوموزي، وإحدى الكاهنات، التي تمثل الإلهة إينانا، لضمان الفلاح وقابلية التناسل في سومر وشعبها بصورة ناجعة، ومن غير المحقق تماماً كيف بدأ ذلك في الأصل ومتى، على الرغم من أنه يمكننا إعادة تشكيل الأحداث كما يلي:

في زمن مبكر من الألف الثالث ق.م، كان دوموزي حاكماً بارزاً لمدينة - الدولة السومرية «إيريك»، وقد خلفت حياته وأفعاله تأثيراً عميقاً في جيله والأجيال اللاحقة، وكانت ربة إيريك المختصة بحمايتها هي إينانا، وهي إلهة عدت في كل التاريخ السومري الإلهة المسؤولة في المقام الأول عن الحب الجنسي، والخصب، والإنسال، وأصبح اسما دوموزي وإينانا من دوب ريب متضافرين بإحكام في أساطير إيريك الباكرة وطقوسها، ولكن قبيل منتصف الألف الثالث، عندما أصبح السومريون أصحاب عقلية وطنية متزايدة وكان اللاهوتيون ينظمون ويصنفون المجتمع الإلهي طبقاً لذلك، نشأت فكرة معقولة في الظاهر ولا تخلو من جاذبية وهي أن ملك سومر، مهما كان ومهما كانت المدينة التي نشأ منه، يجب أن يغدو زوج إلهة الحب مانحة الحياة، أي إينانا التي من إيريك، إذا كان من شأنه أن يضمن التكاثر والرخاء في البلد وشعبه، وبعد أن أصبحت الفكرة الأولية عقيدة جارفة مقبولة، تم تنفيذ الفكرة في ممارسة طقسية بإتمام الاحتفال بالزواج، الذي من المحتمل أن يكون قد تكرر في كل سنة جديدة، بين الملك وكاهنة يتم اختيارها بصورة خاصة من معبد إينانا في إيريك، ولكن لإضفاء الأهمية والمنزلة على العقيدة والطقس على السواء، كان من المستحسن اقتفاء أثريهما في الأزمان الباكرة، حيث أعطي

لدوموزي شرف أن يكون الحاكم الفاني الأول الذي أصبح زوجاً لإينانا، معبودة إيريك المبجلة، وأصبح دوموزي ملك إيريك عبر القرون شخصية لا تنسى في السير البطولية والمأثورات السومرية.

أمَّا بخصوص الكهنة الذين يتولون شؤون العبادة، فإننا نعرف القليل عنهم خلا أسماء وظائفهم وكان الرئيس الإداري للمعبد هو الـ«سنغة» Sanga، ولا ريب أن واجباتهم كانت المحافظة على مباني المعبد وموارده المالية في حالة جيدة والتيقن من أن موظفي المعبد يؤدون واجباتهم بصورة فعالة، وكان الرئيس الروحي للمعبد هو الـ «إن» En، الذي يعيش في جزء من المعبد يعرف بالـ«جيبار»، ويبدو أن الـ«إن» يمكن أن يكون من النساء أو من الرجال، وهذا يتوقف على جنس المعبود الذي يكرس له خدماته، وهكذا ففي المعبد الرئيسي في إيريك، الـ«إيانا»، الذي أصبحت فيه الإلهة إينانا المعبودة الرئيسة، كان الـ«إن» رجلاً، وكان البطلان إنميركار وجلجامش قد شغل كل منهما أصلاً منصب «إن»، برغم أنهما كانا إلى ذلك ملوكاً وقواداً عسكريين عظاماً بالتأكيد، وفي معبد إكيشنوغال في «أور»، الذي كان معبوده الرئيس هو إله القمر، شغلت منصب الـ«إن» امرأة وهي في العادة ابنة عاهل سومر الذي يتولي السلطة فيها، «لدينا بالفعل أسماء كل الذين شغلوا منصب الـ«إن» تقريباً، في إكيشنوغال منذ أيام سرغون الكبير».

في المرتبة الثانية من الـ«إن»، هنالك عدد من الفئات الكهنوتية، ومن ضمنها «غودا» و«ماه» و«إيشيب» و«غالا» و«نيندينجير»، التي لا نعرف عن شاغلها إلاَّ اليسير باستثناء أن الـ«إيشيب» ربما كان مسؤولاً عن إراقة ماء التقدمات والتطهير، وأن الـ«غالا» ربما كان نوعا من مغني المعبد أو شاعره، وكانت توجد كذلك جوقة من المغنين والموسيقيين وكذلك ـ لاسيما في المعابد المكرسة لإينانا ـ أعداد كبيرة من الخصيان والعاهرات المقدسات، وبالإضافة إلى الذين ارتبطوا على نحو أو آخر بالخدمات الدينية، كان المعبد يشتمل على العاملين في المعبد ومن ضمنهم الكثيرون من الموظفين غير الكهنوتيين، والعمال، والعبيد الذين

كانوا يساعدون على تسيير مشاريعه الزراعية والاقتصادية المختلفة، كما توضح الوثائق الإدارية التي لا تحصي والتي تم الكشف عنها في المعابد السومرية القديمة.

وكان دمار معبد سومري هو الفاجعة الأشد التي يمكن أن تقع للمدينة وشعبها، كما تكشف التفجيعات والمراثي المريرة التي يؤلفها شعراء المعبد ورجازه المكروبون، وللاستشهاد بمثال واحد فقط، نقدم الآن مقطوعة شعرية من «مرثية دمار أور» ترسم صورة الخراب الكلي الذي جري لـ«أور» ومعبدها، «الإكيشنوغال»، بعد أن هاجمها العيلاميون وقضوا على «إبي - سين»، الحاكم الأخير من سلالة «أور» الثالثة:

أيتها المليكة، كيف حفزك قلبك، كيف تقوين على البقاء حية!

أيا نينغال، كيف حفزك قلبك، كيف تقوين على البقاء حية!

أيتها العادلة التي تقوضت مدينتها، كيف تقوين على الوجود!

أيا نينغال، التي باد بلدها، كيف طاوعك قلبك!

بعد أن تدمرت مدينتك، كيف تستطعين الحياة الآن!

بعد أن تقوض بيتك، كيف طاوعك قلبك!

باتت مدينتك غريبة، كيف تستطعين الحياة الآن،

أمسي بيتك بيت الدموع، كيف طاولك قلبك

مدينتك التي صارت خرائب ـ لم تعودي سيدتها،
منزلك الصالح الذي سلم إلى المعول
لم تعودي تسكنين فيه.

شعبك الذي سيق إلى المذبحة ـ لم تعودي ملكته

باتت دموعك دموعاً غريبة، وبلدك لا يذرف الدموع،

إنه من دون «دموع الابتهال» يسكن في بلاد أجنبية،

صارت مدينتك خرائب، كيف تقوين على الوجود!

انكشف منزلك، كيف طاوعك قلبك!

أور، المزار، قد سلمت إلى الريح، كيف تستطعين الحياة الآن!

لم يعد كاهنها الغودا يسير في حالة حسنة، كيف طاوعك قلبك!

و«الإن» لا يسكن في الجيبار، كيف تقوين على الوجود!

وكاهن الإيشيب الذى يرعى أعمال التطهير لا يقوم بذلك من أجلك،

والأب، نانا، إيشيبك لما يستكمل الأوعية المقدسة من أجلك،

وكاهن «الماه» فى «الجيغونا» المقدسة لا يرتدى الكتان.

و«الإن» الصالح التابع لك والمنتخب، فى الإكشينوفال،

لا يسير فرحاً من المزار إلى الجيبار،

وفى «الآهو»، دار أعيادك، لا يحتفلون بالأعياد،

ولم يعزفوا من أجلك على «الأوب» و«الآلا».

موسيقى «التيجى» التي تجلب السرور إلى القلب.

ولا يستحم من أجل عيدك الناس أصحاب الرءوس السود،

حكم عليهم أن يكونوا مثل وسخ الكتان، تبدل مظهرهم.

واستحالت أغنيتك نحيباً، . . ،

واستحالت موسيقاك التيجى ندباً.

ولم يعد الثور بؤرب في حظيرته، ولم يعد دسمه معداً لك،

وخرافك لا تمكث فى زريبتها، ولبنها لا يُقدم إليك،

ومن تعود أن يجلب لك الدسم لم يعد يجلبه لك من معلف الماشية،

ومن تعود أن يجلب لك اللبن لم يعد يجلبه لك من زريبة الغنم، . .
والصياد الذي تعود أن يجلب لك السمك: يلم به الحظ العاثر،
والقناصون الذين تعودوا أن يجلبوا لك الطيور أماتتهم . . تكادين لا تستطعين أن تعيشي،
والنهر الذي تم جعله صالحاً لزوراق الماغور، في وسطه الـ . . ينمو النبات،
وفي دربك الذي أعد للمراكب الحربية، ينمو شوك الجبل.
يا مليكتي، مدينتك تبكي أمامك بوصفك أمها،
أور، مثل طفل شارع مدمر، تبحث عنك،
المنزل، مثل إنسان فقد كل شيء، يمد يديه إليك،
منزلك الصالح المصنوع من الآجر، مثل إنسان يبكي لك «أين أصلي؟»
يا مليكتي، لقد رحلت عن المنزل، رحلت عن المدينة.
أتوسل إليك، كم سيطول وقوفك جانباً في المدينة مثل عدو؟
أيتها الأم نينغال «كم سيطول» قذفك المدينة بالتحديات مثل عدو؟
على الرغم من أنك ملكة تحبها مدينتها، فعن مدينتك . . تخليت،
«ومع» أنك ملكة يحبها شعبها، فعن شعبك . . تخليت.
أيتها الأم نينغال، مثل الثور بالنسبة إلى حظيرتك، مثل الغنمة بالنسبة إلى زريبتك!
كالثور بالنسبة إلى حظيرة أيامك السالفة، كالغنمة بالنسبة إلى زريبتك!
وكطفل صغير بالنسبة إلى حجرتك، أيتها العذراء، بالنسبة إلى دارك!
فلينطق «آن» ملك الآلهة، قولك «هذا يكفي».
وليرسم «إنليل»، ملك البلاد، مصيرك «الميمون».
وليعد المدينة إلى مكانها من أجلك، فتمارس ملكيتها
وليعد أور إلى مكانها من أجلك؛ تمارس ملكيتها

ومن المهم أن نلاحظ قبل كل شيء، ونحن نتحول الآن إلى الأسطوريات السومرية، أن للأساطير السومرية صلة يسيرة، إذا كانت لها أي صلة، بالطقوس والشعائر على الرغم من أن الشعائر قد أدت دوراً بالغ الأهمية فى الممارسة الدينية السومرية، وعموماً فإن كل الأساطير السومرية الباقية أدبية بطبيعتها ومتعلقة بتعليل الظواهر، وهي ليست «طقساً منطوقاً» كما تصنف الأسطورة خطأ فى كثير من الأحيان، وليست إلحاقات بالأعمال الطقسية عُبِّر عنها بالكلام، وهي أساساً تدور حول خلق الكون وتنظيمه، ومولد الآلهة، وعواطف المحبة والبغضاء لديهم، وغلهم ومكائدهم، وبركاتهم ولعناتهم، وأعمالهم في الخلق والتدمير وفيها القليل جداً من الصراع على السلطة بين الآلهة، وحتى عندما يحدث ذلك، فلا يصور على أنه نزاع مرير وحقود ودامٍ.

وبالحديث الفكري تتكشف الأساطير السومرية عن مقاربة ناضجة ومحنكة بعض الشيء في أمور الآلهة ونشاطاتهم الإلهية، ويمكن أن نتبين وراءها تأملاً كونياً ولاهوتياً ليس بالقليل على أن كُتَّاب الأساطير السومريين كانوا على العموم الورثة المباشرين للمغنين والزجالين الأميين من أقدم الأزمان، وكان هدفهم الأول هو تأليف القصائد القصصية عن الآلهة التي من شأنها أن تكون جذابة وملهمة ومسلية، ولم تكن أهم وسائلهم الأدبية المنطق والعقل بل الخيال والأخيولة فلم يترددوا في سرد قصصهم أن يخترعوا الأغراض والأحداث التي لا يمكن أن يكون لها أساس في الفكر العقلي أو التأملي، ولم يترددوا في تبني أغراض السير البطولية والمأثورات القومية التي لا صلة لها بالبحث والتفكر الكوني.

وإلى الآن، لم يصلنا من الأساطير السومرية ما يعالج مسألة خلق الكون معالجة مباشرة وصريحة، وقد استدل على القليل المعروف عن أفكار النشوء الكونى من الأقوال المبعثرة فى الوثائق الأدبية، ولكن لدينا عدد من الأساطير المتعلقة بنظام الكون وعملياته الثقافية، وخلق الإنسان وتأسيس الحضارة،

والأبطال الرئيسون المشملون فى هذه الأساطير قليلو العدد نسبياً: إله الهواء إنليل، وإله إنكى والإلهة الأم نينهورساغ التى عرف كذلك بـ«نينتو» و«نينماه»، وإله الريح الجنوبية، نينورتا، وإله القمر، نانا ـ سين، وإله البدو، مارتو، والأكثر تكراراً، الإلهة إينانا، خصوصاً فى ارتباطها بزوجها المنحوس «دوموزى».

كان إنليل، كما قد لاحظنا سابقاً فى هذا الفصل، أهم إله فى البانثيون السومرى، وهو «أبو الآلهة» و«إله السماء والأرض» و«ملك كل البلاد»، وتبعاً لأسطورة «إنليل وخلق المعول» كان الإله الذي فصل السماء عن الأرض، وأنشأ «بزر الأرض»، من التراب، وأنتج «كل ما هو مطلوب»، وسوى المعول للأغراض الزراعية والنباتية، وقدمه إلى الرءوس السود، أى إلى السومريين، أو حتى إلى البشرية جمعاء، ووفقاً لحوارية «الصيف والشتاء»، كان إنليل الإله الذى أنشأ الأشجار والحبوب، وأنتج الوفرة والازدهار فى «البلد»، وعين «الشتاء»، وهو «مزارع الآلهة»، المسؤول عن المياه منتجة الحياة وعن كل ما ينمو وكان الأرباب ـ حتى الأهم بينهم ـ تواقين جميعاً إلى بركته وتروي إحدى الأساطير كيف أن إله الماء، إنكى، بعد بنائه «منزله البحرى» فى اريدو، قد سافر إلى معبد إنليل فى نيبور لكى ينال استحسانه ومباركته، وعندما أراد إله القمر، نانا ـ سين، الإله المختص بحماية أور، أن يتيقن من حسن رخاء وازدهار حال مملكته سافر إلى نيبور على زورق محمل بالهدايا فنال بذلك بركة إنليل الكريمة.

وعلى الرغم من أن إنليل كان رئيس المجمع الإلهي، فإن لم تكن سلطاته مطلقة وغير محدودة البتة، وتهتم إحدى أكثر الأساطير السومرية إنسانية ورقة بإقصاء إنليل إلى العالم السفلي نتيجة الأحداث التالية:

عندما كان الإنسان لم يخلق بعد وكانت مدينة نيبور لا يسكنها إلا الآلهة، كان «فتاها» الإله إنليل، وكانت «عذراؤها» الإلهة نينليل، وكانت «امرأتها العجوز» أم نينليل، نونبار شيغونو وفى أحد الأيام، توصى نونبار شيغونو ابنتها بوضوح، وقد هيأت عقلها وقلبها لزواج «نينليل» بـ«إنليل» على النحو التالى:

في النهر الصافي، يا امرأة استحمي في النهر الصافي

نينليل، تمشي على امتداد ضفة نهر نينبوردو،

ومتألق العين، السيد، متألق العين،

«الجبل العظيم»، الأب إنليل، متألق العين سوف يراك،

الراعي.. الذي يقرر الأقدار، متألق العين سوف يراك،

على الفور يعانقك ويقبلك.

تتبع نينليل تعليمات أمها بابتهاج:

في النهار الصافي، تستحم المرأة، في النهر الصافي،

نينليل تسير على امتداد ضفة نهر نينبوردو،

متألق العين، السيد، متألق العين،

«الجبل العظيم»، الأب إنليل، متألق العين،

الراعي.. الذي يقرر الأقدار، متألق العين رآها.

يتحدث إليها السيد عن المجامعة وهي تتمنع،

يتحدث إليها إنليل عن المجامعة، وهي تتمنع؛

«مهبلي» ضيق جداً، إنه لا يعرف الجماع،

شفتاي صغيرتان جداً، إنهما لا تعرفان التقبيل..

وعلى ذلك يستدعى إنليل وزيره، نوسكو، ويخبره عن رغبته فى نينليل الحسناء فيحضر نوسكو قارباً، ويغتصب إنليل نينليل والقارب يمخر النهر ويجعلها حبلى بإله القمر، سين. يهتال الأرباب لهذا العمل غير الأخلاقي، وعلى الرغم من أنه ملكهم، يقبضون عليه ويبعدونه عن المدينة إلى العالم السفلي،

والفقرة ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث، وهى إحدى الفقرات القليلة التي تلقى ضوءاً غير مباشر على نظام المجمع الإلهي ومنهج عمله، تقول ما يلى:

يتمشى إنليل فى الكيور «مزار نينليل الخاص»

وبينما يتمشى إنليل فى الكيور

فإن الأرباب، الخمسين الكبار، والأرباب السبعة الذين يرسمون المصائر يقبضون على إنليل فى الكيور «قائلين»،

«إنليل»، يا فاسد الأخلاق، اخرج من المدينة،

يا نونامينر «لقب لإنليل»، يا فاسد الأخلاق، اخرج من المدينة

وهكذا وفقاً للمصير الذى يرسمه الأرباب، يرحل إنليل في اتجاه مثوى الأموات «هادس» السومري بيد أن نينليل، وهى الآن حبلى بالطفل، ترفض أن تظل متخلفة عن زوجها وتلحق إنليل في رحلته التى أرغم عليها إلى العالم السفلى، ويقلق هذا الأمر إنليل، لأن ابنه سين، المقدر له أصلاً أن يكون مسؤولاً عن أكبر جسم مضىء، وهو القمر، سيكون عليه أن يسكن فى العالم السفلى المظلم المغم بدلاً من السماء، ويبدو أن الإحباط ذلك قد دبر خطة معقدة إلى حد ما، ففى الطريق إلى العالم السفلى من نيبور، يصادف المرء ثلاثة أفراد، هم الأرباب الثانويون، الحارس المسؤول عن أبواب نيبور، و«رجل النهر في العالم السفلى»، والرجل الذى يعمل على العبارة، «تشارون السومرى»، ويعبر بالموتى إلى هادس، ويتخذ إنليل شكل كل فرد من هؤلاء على التوالى ويضاجع نينليل التى تحبل بثلاثة من أرباب العالم السفلي بديلاً من أخيهم الأكبر «سين» الذى يصبح بذلك حراً فى الصعود إلى السماء.

وتهتم أحد أكبر الأساطير السومرية تفصيلاً وإبانة، بتنظيم إنكي للكون، وهو إله الماء وإله الحكمة السومرى، وتروى أسطورة أخرى عن إنكي حكاية متشابكة وهى إلى الآن غامضة إلى حد ما، تشتمل على أرض الفردوس ديلمون،

ولعها متماثلة جزئياً مع الهند القديمة وتسير هذه الحبكة لأسطورة «الفردوس» السومرية، المرسومة بإيجاز شديد، والتى تتناول الآلهة لا البشر، كما يلى:

ديلمون أرض «طاهرة» و«نظيفة» و«مشرقة»، «أرض الحياة» التي لا تعرف المرض ولا الموت ولكن ما تفتقر إليه هو الماء العذب الضرورى جداً للحياة الحيوانية والنباتية، ولذلك فإن إله الماء السومرى العظيم، إنكي، يأمر أوتو، إله الشمس، بأن يملأها بالماء العذب الصاعد من التراب، وهكذا تتحول ديلمون إلى جنة إلهية، خضراء ذات حقول ومروج مثقلة بالثمار.

فى فردوس الآلهة هذا توضع ثمانى غراس لتنبتها نينهور ساغ، الإلهة، الأم العظيمة عند السومريين، ولعلها كانت فى الأصل «الأرض الأم» ولا تنجح فى إيجاد هذه النباتات إلاَّ بعد عملية معقدة تستلزم ثلاثة أجيال من الربات، يحلبن جميعاً من إله الماء ويلدن كما تؤكد القصيدة مراراً من دون أدنى ألم أو عناء، ولكن إنكى أراد أن يذوق النباتات الثمانى فيقطف رسوله، الإله ريسمود ذو الوجهين هذه النباتات الثمينة واحدة واحدة ويعطيها لسيده، الذي يشرع في أكل كل نبات منها على التوالى، وعلى إثر ذلك تقضى نينهور ساغ الغاضبة بلعنة الموت عليه، ولكى لا تغير رأيها وتلين، تختفي من بين الآلهة.

تأخذ صحة إنكي في الانهيار، وتمسي ثمانية أعضاء منه سقيمة، ومع انحطاط إنكى بصورة مضطردة يعقد كبار الآلهة في الغبار، ويبدو إنليل، إله الهواء وملك الآلهة السومريين، عاجزاً عن التغلب على الوضع عندما يكلمه أحد الثعالب فيقول الثعلب لإنليل إنه إذا كوفئ كما ينبغى فسوف يعيد نينهورساغ، ويصدق الثعلب وعده، وينجح بطريقة ما، ولسوء الحظ فإن الفقرة وثيقة الصلة بهذا الموضوع تالفة، فى إعادة الإلهة الأم إلى الآلهة لتشفى إله الماء الذي يشرف على الموت فتقعده عند فرجها، وبعد الاستعلام عن الأعضاء الثمانية التي توجعه فى جسمه، توجد ثمانى إلهات لشفاء أعضائه الثمانية ويعاد إنكي إلى الحياة والصحة.

وعلى الرغم من أن الأسطورة تعالج فردوساً إلهياً وليس بالأحرى إنسانياً، فإن لها أوجه شبه كثيرة مع قصة الفردوس التوراتية، وفي الحقيقة، ثمة مسوغ للاعتقاد بأن فكرة الفردوس نفسها، جنة الآلهة، قد ابتكرها السومريون، ويتحدد موقع الفردوس السومرى، وفقاً لقصيدتنا، في ديلمون، وهى أرض تقع شرقى سومر، وإنه في ديلمون هذه نفسها، عين البابليون فيما بعد، وهم الشعب السامي الذي تغلب على السومريين، «بلد الحياة» عندهم، وهو وطن الخالدين منهم وثمة دليل وجيه على أن الفردوس التوراتى، أيضاً، الموصوف بأنه جنة مزروعة فى عدن شرقاً، ومن مياهها تجرى أنهار العالم الأربعة، ومن ضمنها دجلة والفرات، يمكن أنها كانت متماثلة فى الأصل مع ديلمون، أرض الفردوس السومرية.

ومرة أخرى، فإن الفقرة التي تصف فى قصيدتنا سقاية إله الشمس لديلمون بالماء العذب الصاعد من التراب، تذكرنا بالفقرة التوراتية: «وكان ضباب يصعد من الأرض، ويروى كل وجه الأرض» (سفر التكوين: ٦ : ٢)، وولادة الربات من دون ألم أو عناء توضح خلفية اللعنة على حواء التي سيكون نصيبها أن تحبل وتلد الأولاد فى ألم، وواضح بما يكفي أن أكل إنكي من النباتات الثماني واللعنة الصادرة عليه لسوء فعله هذا، تذكرنا بأكل آدم وحواء من ثمرة شجرة المعرفة واللعنات المصبوبة عليهما من جراء هذا العمل الآثم.

لكن لعل أكثر نتيجة تستأثر بالاهتمام في هذا التحليل المقارني للقصيدة السومرية هو التفسير الذي تقدمه لأشد العناصر أريكاً في قصة الفردوس التوراتى، وهو النبذة التي تصف تكوين حواء، «أم كل حى» من ضلع آدم، فلماذا الضلع؟ لماذا يجد السارد العبرى من الأصلح أن يختار ضلعاً من أي عضو آخر فى الجسم لصنع المرأة التي يعني اسمها حواء، حسب الفكرة التوراتية تقريباً «التى تحيى»، إن السبب يغدو واضحاً تماماً إذا افترضنا أن خلفية أدبية سومرية، كتلك الخلفية التى تمثلها قصيدتنا ديلمون، تكمن في أساس حكاية

الفردوس التوراتية، لأن أحد الأعضاء المريضة في قصيدتنا السومرية هو الضلع، وفى هذه الحالة فإن الكلمة السومرية الدالة على «الضلع هى تى»، ولذلك فإن الإلهة التى خلقت لشفاء ضلع إنكى تدعى بالسومرية «نين ـ تى» «سيدة الضلع»، ولكن الكلمة «تى» تعنى كذلك وتحيى، وعلى ذلك ففى الأدب السومرى صارت «سيدة الضلع» متماثلة مع السيدة التى تحيى من خلال ما يمكن أن يدعى تلاعباً فى الألفاظ وقد كان هذا التلاعب اللفظى، وهو من أقدم الجناسات الأدبية، هو الذى انتقل إلى قصة الفردوس التوراتية وخلد فيها، على الرغم من أنه يفقد فيها، ولا ريب، مشروعيته، مادامت الكلمتان العبريتان الدالتان على «الضلع» و«تحيى» لا تشتركان فى اللفظ.

وهنالك أسطورة أخرى عن إنكى ونينهورساغ معنية بخلق الإنسان من الطين الذى هو فوق الغمر، وتبدأ القصة بوصف صعوبات الآلهة فى تحصيل خبزهم، وبخاصة كما يمكن التوقع، بعد أن ظهرت إلى الوجود الربات الإناث ويشتكى الأرباب، ولكن إنكى الذى من الممكن أن يهب لمساعدتهم، مستلق على الفراش يغط فى نوم عميق ولا يستطيع سماعهم، وعليه تقوم أمه، وهى البحر البدئى، والأم التى أنجبت كل الآلهة، بإحضار دموع الآلهة إلى أمام إنكى، قائلة:

يا ابنى، انهض من سريرك، ما هو حكيم وافعل

اصنع خدماً للآلهة دعهم يتكاثرون «؟»

ويولى إنكى الأمر تفكيراً، ويتقدم جمع «الصناع المهرة الأميريين»، ويقول لأمه نامو البحر البدئى:

يا أمى، إن المخلوق الذى نطقت اسمه، يوجد،

شدى عليه صورة «؟» الآلهة،

امزجى قلب الطين الذى هو فوق الغمر

والصناع المهرة الأميريون سوف يكثفون الطين،

وبينما تعملين على تسوية أعضائه،

نينماه «اسم آخر لنينهورساغ» سوف توجه عملك،

وإلهة «الولادة».. ستقف بجانبك

يا أمي، ارسمي مصيره «مصير المولود الجديد»،

نينماه سوف تشد فوقه قالب «؟» الآلهة،

إنه الإنسان..

ثم تتصرف القصيدة عن خلق الإنسان في كليته إلى خلق بعض أنماط البشر الناقصين في محاولة واضحة لتفسير وجود هذه الكائنات الشاذة، وتخبر عن مأدبة يرتبها إنكي للآلهة ربما لتكريم ذكرى خلق الإنسان، وفي هذه المأدبة يعب إنكي ونينماه الكثير من الخمرة ويغدوان موفوري النشاط، وتأخذ نينماه بعض الطين الذي على الغور وتشكل ستة أنواع مختلفة من الأفراد المعوقين، في حين يرسم إنكي مصائرهم ويمنحهم وسيلة لأكل الخبز، وبعد أن خلقت نينماه هذه الأنماط من الإنسان، يقرر إنكي أن يخلق نمطه والطريقة التي اشتغل بها ليست واضحة، ولكن مهما تكن، فالمخلوق الناجم متخلف، فهو ضعيف وواه جسماً وروحاً، وإنكي قلق في هذه الحالة حيال مساعدة نينماه لهذا المخلوق الخائب، ولذا يخاطبها كما يلي:

إن من صنعتهم يدك، قد رسمت مصيرهم،

وأعطيتهم وسيلة لأكل الخبز

فهلا رسمت مصير من صنعته يدي،

هلا أعطيته وسيلة لأكل الخبز

وتحاول نينماه أن تكون خيرة نحو المخلوق ولكن من دون جدوى تتحدث

إليه، ولكنه لا يجيب تعطيه خبزاً ليأكل لا يمد يده إليه، وهو لا يستطيع أن يقعد ولا أن يقف ولا أن يحنى ركبتيه، وبعد محادثة طويلة ولكنها بعد غير مفهومة بين إنكى ونينماه، تلفظ نينماه لعنة على إنكى بسبب المخلوق المريض الجامد الذى صنعه، لعنة يبدو أن إنكى تقبلها بوصفها ما يستحقه.

وفيما يتصل بـ«نينورتا»، إله الريح الرعدية الجنوبية، توجد أسطورة غرضها ذبح التنين، إن الحبكة، بعد فقرة ترتيلية موجهة إلى الإله، تبدأ بخطاب يوجهه إلى نينورتا سلاحه المشخص شارور، ولسبب غير معلن عقد شارور عزمه ضد أساغ، شيطان المرض والداء، الذى يقع منزله فى الـ«كور»، أو العالم السفلى، وفى كلام مفعم بالعبارات التى تشيد بذكر صفات نينورتا وأعماله البطولية، يحفزه على مهاجمة الوحش والقضاء عليه، ويخرج نينورتا مسافراً للقيام بما حفز إليه، ولكن يبدو أنه فى البداية قد واجه خصماً قوياً، و«يفر مثل طائر» ويخاطبه الشارور مرة أخرى بكلمات مطمئنة ومشجعة، وفى هذه المرة يهاجم نينورتا أساغ بكل الأسلحة التى تحت تصرفه، ويتم القضاء على الشيطان.

ولكن مع القضاء على الأساغ تلم بسومر طامة خطيرة، فقد ارتفعت من الكور مياه أول الزمان إلى السطح، ونتيجة لعنفها لم تتمكن المياه العذبة من الوصول إلى الحقول والبساتين، وأصيب باليأس آلهة سومر الذين «حملوا معولها وسلتها»، أى الذين عليهم واجب رى سومر وتهيئتها للفلاحة، ولم يرتفع نهر دجلة، ولم يكن فى مجراه ماء صالح.

كانت المجاعة شديدة، لم ينتج شيء،

وفى الأنهار الصغيرة، لم يكن ثمة «غسل الأيدى»،

ولم ترتفع المياه عالياً،

لم تسق الحقول،

لم يكن هنالك حفر «إفاضة ماء» للخنادق،

وفى كل الأراضى لم يكن هنالك نمو للنبات،

فلم تنم إلا الأعشاب الضارة

وعليه ركز السيد فكرة السامى على هذه المسألة

نينورتا، ابن إنليل، أوجد أشياء عظيمة.

ونصب نينورتا كداسة من الأحجار فوق الكور وكومها عالياً كالجدار أمام سومر، واحتجزت هذه الأحجار «المياه القوية»، وفى النتيجة لم تعد مياه الكور ترتفع إلى سطح الأرض، أمَّا المياه التى كانت تفيض على الأرض، فقد جمعها نينورتا وساقها إلى نهر دجلة، الذى صار فى مقدوره آنئذ أن يروى الحقول بفيضه.

ما كان قد تفرق، جمعه،

ما تفرق من الكور،

وجهه وقذفه فى نهر دجلة،

ليصب المياه العالية على الحقول.

انظروا، الآن كل شىء على الأرض،

مغتبط عن بعد من نينورتا، ملك البلد،

الحقول أغلت حباً وفيراً،

وحمل الكرم والبستان ثمارهما،

والحصاد مكوم فى المخازن والتلال،

جعل السيد الحداد يختفى عن البلد،

جعل روح الآلهة سعيدة.

وأمه، نينماه، إذ تسمع فِعال ابنها العظيمة والبطولية، تستغرقها الشفقة عليه، وتمسى من الاضطراب إلى حد أن تعجز عن النوم فى حجرة نومها، ولذلك تخاطب ابنها عن بعد بالصلاة من أجل السماح لها بزيارته والنظر إليه، وينظر إليها نينورتا بـ«عين الحياة»، قائلاً:

أيتها السيدة، لأنك تودين المجيء، إلى الكور،

أيا نينماه، لأنك من أجلى تودين أن تدخلى الأرض المناوئة،

لأنه ليس لديك خوف من هول المعركة التى تكتنفنى،

لذلك، فالتل الذى كومته أنا، البطل،

ليكن اسمه هو رساغ «الجبل» ولتكونى ملكته.

ثم يبارك نينورتا الهورساغ الذى يمكن أن يجىء بكل أنواع الأعشاب والخمر والعسل، وشتى أنواع الأشجار والذهب والفضة والبرونز والأبقار والغنم وكل «المخلوقات من ذوات القوائم الأربع»، وبعد هذه المباركة، يلتفت إلى الأحجار، لاعناً تلك التى كانت معادية له فى معركته مع الشيطان، أساغ ومباركاً تلك التى كانت صديقة له.

ويدور عدد غير قليل من الأساطير السومرية حول إلهة الحب الطموح والعدوانية والمتطلبة، إنانا ـ عشتار الأكادية وزوجها الإله ـ الراعى دوموزى ـ تموز التورانى، وتودد دوموزى للإلهة مسرود فى صيغتين، وفى الأولى كان يتنازع على رضاها مع الإله ـ الزراع، إنكيمدو، ولا ينجح إلا بعد قدر كبير من الجدال المسبب للخصام الذى يقضى إلى التهديد بالعنف، وفى الصيغة الأخرى يبدو أن دوموزى يلقى القبول الفورى والمباشر بوصفه عاشق إينانا وزوجها، ولكنه قلما يحلم بأن زواجه بإينانا سوف يؤول إلى الثبور، وأنه سوف ينجر إلى الجحيم فعلياً، وهذه القصة مسرودة فى إحدى الأساطير السومرية المحفوظة على أحسن ما يكون، أسطورة «نزول إينانا إلى العالم السفلى»، التى نُشرت ونُقحت

ثلاث مرات فى غضون السنوات، الخمس والعشرين الماضية، وهى على وشك أن تُنقح مرة رابعة بعون من عدة رقم وكسر كانت مجهولة حتى الآن. وإذا أجملنا هذه الأسطورة بإيجاز، فإنها تسرد الحكاية التالية.

إن إينانا، «ملكة السماء»، إلهة الحب والحرب الطموح التى تودد إليها الراعى دوموزى وفاز بها زوجة، تقرر أن تنزل إلى العالم السفلى لكى تجعل نفسها سيدته، وربما من ثم لترفع الموتى، فتجتمع القوانين الإلهية الملائمة، وبما أنها زينت نفسها بالحلل والحلى الملكية، فهى متأهبة للدخول فى «أرض اللاعودة».

وملكة العالم السفلى هى أختها الكبرى وعدوتها اللدود، إرشكيغال، إلهة الموت والظلام السومرية، وإينانا خائفة من أن تسلمها أختها إلى الموت فى عقر دارها، فتعلم وزيرها نينشوبور، الذى هو طوع إشارتها دوماً، أنها إذا أخفقت فى العودة بعد ثلاثة أيام، فعليه أن يشرع فى ندب لها بجانب الأنقاض فى قاعة اجتماعات الآلهة، ثم عليه أن يذهب إلى نيبور مدينة إنليل، كبير الآلهة فى المجمع الإلهى السومرى، ويتوسل إليه ألا يدعها تقتل فى العالم السفلى، فإذا رفض إنليل، فعلى نينشوبور أن يذهب إلى أور، مدينة إله القمر، نانا، وأن يكرر توسله وإذا رفض نانا كذلك، فعليه أن يذهب إلى إريدو، مدينة إنكى، إله الحكمة، الذى «يعرف طعام الحياة»، والذى «يعرف ماء الحياة» وسيهُب لإنقاذها حتماً.

ثم تنزل إينانا إلى العالم السفلى وتقترب من معبد إرشكيغال اللازوردى، وعند الباب يلقاها رئيس حراس الباب، الذى يطلب أن يعرف من هى ولماذا أتت تلفق إينانا عذراً زائفاً لزيارتها، ويقودها حارس الباب، بناء على تعليمات سيدته، عبر الأبواب السبعة للعالم السفلى، وعندما تجتاز باباً بعد آخر، تُنزع قطع ثيابها ومجوهراتها قطعة قطعة على الرغم من احتجاجاتها، وأخيراً بعد اجتيازها الباب الأخير يتم إحضارها مجردة وعريانة وجاثية على ركبتها إلى

أمام إرشكيغال والـ«الأنوناكى»، قضاة العالم السفلى السبعة الرهيبين، الذين ثبتوا عليها أنظارهم المسيئة فاستحالت جثة، وغدت بعدئذ مدلاة من وتد.

وتمر ثلاثة أيام وثلاث ليال وإذا يرى نينشوبور، فى اليوم الرابع أن سيدته لم تعد، يبدأ القيام بجولات على الآلهة وفقاً لتوصياتها وكما خمنت إينانا، يرفض إنليل ونانا على السواء تقديم يد العون، ولكن إنكى يدير خطة لإعادتها إلى الحياة، فيصنع الـ«كورغاره» والـ«كالاتوره»، وهما مخلوقان لا جنس لهما، ويعهد إليهما بـ«طعام الحياة»، و«ماء الحياة»، اللذين عليهما أن يمضيا بهما إلى العالم السفلى، حيث تستلقى إرشكيغال، «الأم المولدة» مريضة «بسبب طفليها»، وتظل وهى عارية ومكشوفة تئن، «ويلاه من داخلى» و«ويلاه من خارجى»، وعليهما، الـ«كورغاره»، والـ«كلاتوره»، أن يرددا صيحتها يتعاطف وأن يضيفا، «من داخلى إلى داخلك»، و«من خارجى إلى خارجك»، ثم سيقدم إليها ماء الأنهار وحب العقول على سبيل الهدايا، ولكن إنكى يحذرهما بأن عليهما ألا يقبلا الهدايا بل عليهما أن يقولا، «أعطنا الجثة المتدلية من المسمار»، وأن يرشا عليها «طعام الحياة» و«ماء الحياة»، اللذين عهد بهما إليهما وهكذا يحييان إينانا الميتة، وقام الـ«كورغاره» والـ«كالاتوره» بما أمرهما به إنكى، وتم إحياء إينانا.

وعلى الرغم من أن إينان قد أصبحت حية من جديد، فإن متاعبها كانت أبعد من أن تنقضى، لأنه كان من القواعد التى لا تُخرق فى العالم السفلى أنه لا يمكن لمن دخل أبوابه أن يعود إلى العالم العلوى ما لم يؤمن بديلاً يحل محله، ولا يمكن أن تكون إينانا استثناءً من هذه القاعدة، فقد سمح لها بالفعل أن تصعد مجدداً إلى الأرض، ولكن كان يصحبها عدد من الشياطين عديمى الشفقة، وقد تزودوا بتعليمات تقضى بأن يعيدوها إلى المناطق السفلية إذا أخفقت فى توفير إله آخر يحتل مكانها.

وإذا تحاط إينانا بهؤلاء الشرطة الغوليين تشرع أولاً فى زيارة المدينتين السومريتين «أوما» و«باد - تيبيرا»، وكان ربا حماية هاتين المدينتين، «شارا»

و«لاتارك» قد أرعبهما منظر القادمين غير الأرضيين، فعفرا نفسيهما بالتراب أمام إينانا تذللاً، وعندما هدد الشياطين بحملهما معهم، ردت الشياطين فأنقذت بذلك حياتهما.

وبمواصلة إينانا والشياطين رحلتهم، يصلون إلى «كولاب» وهى منطقة من مناطق المدينة السومرية «إيريك»، وملك هذه المدينة هو الإله ـ الراعى، دوموزى الذى بدلاً من أن ينوح على أن زوجته التى نزلت إلى العالم السفلى حيث عانت العذاب والموت، «ارتدى حلة باذخة، وتربع فوق العرش»، أى أنه كان يحتفل فعلاً بشقائها، فتنظر إينانا إليه حانقة بـ«عين الموت» وتسلمه إلى الشياطين القساة المتلهفين لينقلوه إلى العالم السفلى فيمتقع لون دوموزى ويبكى، ويرفع يديه إلى السماء، ويتوسل إلى إله الشمس، أوتو، الذى هو أخو إينانا ومن ثم فهو ابن حميه ويتضرع دوموزى إليه أن يساعده فى النجاة من الشياطين بتحويل يده إلى يد حية وقدمه إلى قدم حية.

ولكن عند ذلك الحد فى القصة ـ فى غمرة دعاء دوموزى ـ تصل الرقم المتاحة إلى النهاية، وكان القارئ قد ترك حتى عهد قريب معلقاً فى وسط الجو، ولكن لدينا الآن النهاية السوداوية:

إن دوموزى، على الرغم من ثلاثة توسطات يقوم بها أوتو، ينقل إلى العالم السفلى ليموت فيه بدلاً من زوجته الحانقة والمرورة، إينانا، ونحن نعلم ذلك من قصيدة كانت مجهولة.

إلى الآن على نطاق واسع وهى بالفعل ليست جزءاً من أسطورة «نزول إينانا إلى العالم السفلى»، ولكنها ذات صلة حميمة بها، وهى إلى ذلك تتحدث عن تحول دوموزى إلى غزال وليس بالأحرى إلى حية، وهذا التأليف الجديد قد وجد مكتوباً على ثمانية وعشرين لوحاً وعلى كسر يعود تاريخها إلى زهاء العام «١٧٥٠ ق.م»، والنص الكامل لم يتم إلاَّ مؤخراً توصيل أجزائه بعضها إلى بعض وترجمتها، على الأقل بصورة مؤقتة، على الرغم من أن بعض القطع قد نشر

قبل عقود.

تبدأ الأسطورة، التى يمكن أن تعنون بـ«موت دوموزى»، بفقرة تمهيدية يهىء فيها المؤلف للنبرة السوداوية للحكاية التى سيرويها إن لدى دوموزى، راعى إيريك، سابق إنذار بأن موته وشيك ولذلك يتقدم إلى السهل بعينين دامعتين وتفجع مرير:

كان قلبه مترعاً بالدموع،

تقدم إلى السهل،

الراعى كان قلبه، مترعاً بالدموع،

تقدم إلى السهل،

دوموزى كان قلبه مترعاً بالدموع،

تقدم إلي السهل

ربط نايه «؟» حول عنقه،

أطلق النواح؛

أطلق النواح، أطلق النواح،

أيها السهل، أطلق النواح،

أيها السهل، أطلق النواح، أطلق العويل «؟»

بين سراطين النهر، أطلق النواح

بين ضفادع النهر، أطلق النواح

دع أمي تنطق كلمات «النواح»،

أمي، سيرتور، تنطق كلمات «النواح»

دع أمي التي لا تملك «؟» خمس خبزات «؟»

تنطلق كلمات النواح «؟»

دع أمي التي لا تملك «؟» عشر خبزات «؟»

تنطق كلمات «النواح»،

في اليوم الذي أموت فيه لن يكون لديها من يعنى «؟» بها،

على السهل، مثل أمي، لتذرف عيناى الدموع «؟»،

على السهل، مثل أختي الصغيرة، لتذرف عيناى الدموع

وتستمر القصيدة، يستلقى دوموزى لينام فيرى حلماً تشاؤمياً ومنذراً بالشر:

بين البراعم «؟»، اضطجع، بين البراعم «،»

الراعي بين البراعم «؟» اضطجع،

وحين اضطجع الراعي بين البراعم «؟» رأى حلماً،

نهض كان حلماً ارتجف «؟» كانت رؤيا،

فرك عينيه بيديه، كان منذهلاً.

ودوموزى المتحير يدعو أخته «غشتيننه»، الشاعرة والمغنية ومفسرة الأحلام الإلهية إليه ويروى لها رؤياه المنذرة بالسوء:

حلمي، يا أختي، حلمي،

هذا هو لب حلمي

نما القصب من حولي، تدافع القصب من حولي

إحدى القصبات المنتهية وحدها تحني رأسي لها

إحدى القصبات المنتصبة زوجاً زوجاً، تنتزع إحداها من أجلى،

وفى الغيضة الشجراء، تطلع الأشجار الطويلة «؟» مروعة فى كل مكان حولى،

فوق موقدى المقدس، ينسكب الماء،

وعن ممخضتى المقدسة، تنتزع قاعدتها «؟»،

والقدح المقدس الذى يتدلى من مسمار التعليق، عن المسمار سقط،

ومحجن الراعى الذى لى قد اختفى،

ويومة تمسك بـ....،

وصقر يمسك بمخالبه خروفاً،

وماعزى الصغيرة تجر لحاها اللازوردية فى التراب.

وقطيع غنمى يضرب الأرض بأطرافه المحنية،

وممخضتى تتمدد «محطمة»، فلا لبن ينصب،

وقدحى يتمدد «محطماً» دوموزى لن يعيش أكثر،

ويسلم قطيع الغنم إلى الريح.

وغشتيننه، كذلك يشوشها حلم أخيها تشويشاً عميقاً:

آه، يا أخى ليس محبذاً حلمك الذى ترويه لى

آه، يا أخى ليس محبذاً حلمك الذى ترويه لى

القصب ينمو من حولك، القصب يتدافع من حولك

«هذا يعنى» سيهب القتلة لمهاجمتك

إحدى القصبات المنتصبة وحدها تحنى رأسها لك،

«هذا يعنى» أمك التى ولدتك سوف تخفض رأسها من أجلك

أما القصبات المنتصبة زوجاً زوجاً، تنتزع إحداها، «فإنها تقول» أنا وأنت ـ واحد منا سوف ينتزع.

وتستمر غشتيننه فى تفسير حلم أخيها الكئيب والتشاؤمى، مفردة مفردة. منهية تفسيرها بتحذيره من أن شياطين العالم السفلى، الغالات، محدقة به وأن عليه الاختباء على الفور، ويوافق دوموزى ويتوسل إلى أخته ألا تخبر الغالات عن مخبئه.

يا صديقتى، سأختبئ بين النباتات،

لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائى»،

سأختبئ بين النباتات الصغيرة،

لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائى»،

سأختبئ بين النباتات الكبيرة،

لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائى».

سأختبئ بين خنادق أرالو،

لا تخبرى أحداً عن مكان «اختبائى».

فتجيبه غشتينه:

إذا أخبرت عن مكان «اختبائك»، فلعل كلابك تفترسنى،

الكلاب السود، كلاب «رعايتك»،

الكلاب المتوحشة، كلاب «سيادتك»،

فلتفترسنى كلابك.

وهكذا فإن الغالات، المخلوقات غير البشرية التى

لا تأكل طعاماً، ولا تعرف ماءً،

لا تأكل دقيقاً مذروراً،

لا تشرب ماء مصبوباً على سبيل القربان،

لا تقبل الهدايا التى تسترضى،

لا تروى بلذة صدر الزوجة،

لا تقبل الأطفال، الحلوين...،

تأتى العفاريت باحثة عن دوموزى المختبئ ولكنها لا تستطيع العثور عليه وتمسك بغشتيننه وتعمد إلى رشوتها لإخبارها عن مكان وجود دوموزى، ولكنها تظل صادقة فى وعدها، على أن دوموزى يعود إلى المدينة، ربما لأنه لا يخشى أن تقتل الشياطين أخته، وفيها يقبض الغالات عليه، ويهاجمونه بالضربات والجلدات واللكزات، ويربطون يديه وذراعيه بإحكام، ويصيحون متأهبين لنقله إلى العالم السفلى، وعلى إثر ذلك يلتفت دوموزى بالدعاء إلى إله الشمس أوتو، أخو زوجته إينانا، عله بحوله إلى غزال حتى يتمكن من الفرار من الغالات وينقل روحه إلى مكان معروف باسم «شوبيريلا» «موقعه غير محدد حتى الآن»، أو كما يعبر دوموزى عن ذلك:

أوتو، أنت أخو زوجتى،

أنا زوج أختك،

أنا الذى يحمل الطعام إلى الإيانا «معبد إينانا»،

إلى إيريك أحضرت هدايا الزواج،

قبلت الشفتين المقدستين «؟»،

عانقت «؟» الحضن المقدس، حضن إينانا

حول يدى إلى يدى غزال ،

حول قدمى إلى قدمى غزال ،

دعنى أفلت من الغالات ،

دعنى أنقل روحى إلى شوبيريلا . .

أصاخ إله الشمس السمع إلى دعاء دوموزى، وبكلمات الشاعر:

أخذ أوتو دموعه هدية ،

ومثل إنسان الرحمة ، أظهر له الرحمة ،

حول يديه إلى يدى غزال ،

حول قدميه إلى قدمى غزال ،

أفلته من الغالات ،

نقل روحه إلى شوبيريلا . .

ولسوء الحظ، يلحق به الشياطين المطاردون مرة أخرى ويضربونه ويعذبونه كما حدث من قبل، ولذلك يتجه دوموزى فى المرة الثانية إلى أوتو بالدعاء أن يحوله إلى غزال، وفى هذه المرة، يرغب فى أن ينقل روحه إلى دار الإلهة المعروفة بـ«بيليلى السيدة الحكيمة العجوز» يستجيب أوتو لدعائه، ويصل دوموزى إلى دار بيليلى، متوسلاً:

أيتها السيدة الحكيمة ، لست إنساناً ، أنا زوج إلهة ،

من ماء القربان ، دعينى أشرب قليلاً «؟»

من الدقيق المذرور، دعينى آكل قليلاً «؟» .

ولم يكد يجد الوقت للمشاركة فى الطعام والشراب حتى ظهر الغالات وضربوه وعذبوه مرة ثالثة، ومن جديد يحوله أوتو إلى غزال، ويفر إلى حظيرة

أختـه، غشتـيننه، ولكن كل ذلك من دون طائل، فيدخل خمسة من الغالات الحظيرة ويضربون دوموزى على خده بالمسمار والعصا، ويموت دوموزى أو لنستشهد بالأسطر السوداوية التى تختم القصيدة:

يدخل الغالا الأول الحظيرة،

يضرب دوموزى على خده بمسمار «؟» حاد «؟»،

يدخل الثانى الحظيرة،

يضرب دوموزى على خده بمحجن الراعى،

يدخل الثالث الحظيرة،

عن الممخضة المقدسة، تنتزع القاعدة «؟»،

يدخل الغالا الرابع الحظيرة،

القدح المدلى من مسمار تعليق، يسقط عن مسمار التعليق،

يدخل الغالا الخامس الحظيرة،

تتمدد المخضة المقدسة «مكسورة»، لا لبن ينسكب،

يتمدد القدح «مكسوراً»، دوموزى لن يعيش أكثر،

تسلم الحظيرة إلى الريح.

وهكذا يصل دوموزى إلى نهاية مأساوية، ضحية حب إينانا وبغضها.

على أن أساطير إينانا لا تعنى كلها بدوموزى فثمة، مثلاً، أسطورة تروى كيف حصلت الإلهة، من خلال المخاتلة، على الشرائع الإلهية، شرائع الـ«مى» التى تحكم الجنس البشرى ومؤسساته، وهذه الأسطورة ذات أهمية أنثروبولوجية كبيرة لأن مؤلفها قد وجد أن من المستحب أن يعطى، فيما يتعلق بالقصة، قائمة كاملة بشرائع الـ«مى»، وأن يقسم الحضارة كما يصورها إلى أكثر

من مائة سمة ثقافية، ومركب ثقافى تتصل بمؤسسات الإنسان السياسية والدينية والاجتماعية، وبالفنون والحرف، وبالموسيقى والآلات الموسيقية، والمجموعة المنوعة من نماذج السلوك الفكرية والانفعالية والاجتماعية، وإذا جعلنا حبكة هذه الأسطورة الشفافة فإنها تسير كما يلى:

إن إينانا، ملكة السماء، الإلهة المختصة بحماية مدينة إيريك، مهتمة بزيادة سعادة مدينتها ورخائها، وبأن تجعلها مركز الحضارة السومرية، فتعلى بذلك من مقام اسمها وصيتها، ولذا تقرر أن تذهب إلى إريدو، المقر القديم للثقافة السومرية، حيث يسكن إنكى سيد الحكمة، المطلع على أفئدة الآلهة، والذى يسكن فى غور الأعماق المائية الـ«أبزو»، لأن إنكى يملك فى حوزته كل الأحكام أو «النواميس» الإلهية الأساسية للحضارة، فإذا استطاعت الحصول عليها صارت مدينتها المركز الحضارى الرئيس لكل بلدان سومر تصل إينانا إلى قصر إنكى فى الأعماق المائية فيستقبلها أحسن استقبال ويجلس معها إلى مائدة عامرة ويأخذان بشرب الخمر حتى يلعب الشراب برأس إنكى ويوافق على إعطائها النواميس، تحمل إينانا النواميس فى قاربها وتنطلق نحو أوروك، ولكن إنكى يصحو من سكرته ويرسل فى إثرها وحوشاً مائية تدركها عند الميناء الأول فى الطريق لإعادة النواميس، ولكن إينانا بمعونة وزيرها نينشورور تفلح فى الإفلات من الوحوش ست مرات وتصل بأمان إلى ميناء أوروك حيث تفرغ حمولتها وسط ابتهاج سكان المدينة.

وفى أسطورة أخرى من أساطير إينانا يؤدى أحد الفنانين دوراً مهماً، وتسير حبكتها كما يلى: كان فى أحد الأزمان يعيش بستانى اسمه شوكاليتودا، لم تتكلل جهوده الجاهدة إلا بالخيبة، وعلى الرغم من أنه كان يسقى حقوله وبساتينه بعناية، فقد اضمحلت النباتات، واشتدت الرياح العاتية فى ضربه بـ«غبار الجبال»، واستحال قفراً كل ما رعاه باهتمام، وعلى ذلك رفع عينيه

شوكاليتودا، الذى كان يترصدها من طرف بستانه، فرصة تعبها الشديد وجامعها، وعندما صحت إينانا فى الصباح وعرفت ما جرى لها، قررت إيجاد ومعاقبة ذلك الفانى الذى أخزاها مهما كلف الأمر، ولذا أرسلت ثلاث كوارث على سومر، أولاً: ملأت كل آبار البلد بالدم، حتى أشبعت كل خمائل النخيل والكروم بالدم، ثانياً أرسلت رياحاً وعواصف مدمرة للبلد وطبيعة الكارثة الثالثة غير يقينة بسبب تشوه الرقيم فى هذا الموضع، ولكن على الرغم من كل الكوارث الثلاث، كانت عاجزة عن تحديد مدنسها، لأنه بعد كل كارثة كان شوكاليتودا يذهب إلى دار أبيه ويعلمه عن الخطر الذى يهدده، فينصح الأب ابنه أن يوجه خطواته نحو إخوته «الشعب ذو الرأس الأسود» ـ أى شعب سومر ـ وأن يمكث قريباً من المراكز المدنية، فيتبع شوكاليتودا النصيحة، وفى النتيجة، عجزت إينانا عن العثور عليه وبعد الإخفاق الرابع، أدركت إينانا بمرارة أنها كانت عاجزة عن أن تثأر للفاحشة المرتكبة بحقها، ولذلك قررت أن تذهب إلى إريدو، إلى منزل إنكى، إله الحكمة السومرى، تبتغى منه النصيحة والمساعدة، ولسوء الحظ، يوجد انقطاع هنا، وتظل نهاية القصة مجهولة.

وباستثناء الإشارة إلى البشر بشكل عام، فإن الفنانين يؤدون دوراً صغيراً فى الأساطير السومرية، وبالإضافة إلى أسطورة إينانا ـ شوكاليتودا التى سردناها قبل قليل، لا توجد غير أسطورة واحدة أخرى ترتبط بفان، إنها قصة الطوفان، المعروفة من زمن طويل، والتى لها أهمية شديدة بالنسبة إلى الدراسات التوراتية المقارنة، ولسوء الحظ، لم يتم حتى الآن الكشف إلا عن رقيم واحد يحتوى على هذه الأسطورة، ولم يحفظ إلا ثلث هذا الرقيم وبداية الأسطورة مفقودة، أمَّا الأسطر المفهومة الأولى فتتعلق بخلق الإنسان وحياة النباتات والحيوانات، والأصل الإلهى للملكية، وتأسيس المدن الخمس التى كانت قبل الطوفان، وتسميتها بعد ذلك نعلم أن بعض الأرباب حاقدون وأشقياء بسبب القرار الإلهى بالمجىء بالطوفان والقضاء على الجنس البشرى ثم يتم إدخال

زيوسودرا، وهو النظير السومرى لنوح التوراتى فى القصة بوصفه ملكاً تقياً، يخشى الآلهة، ويترقب على الدوام الأحلام والإلهامات الإلهية، ويتخذ لنفسه موقعاً بجانب جدار، حيث يسمع صوت إله، لعله إنكى، ينبئه بالقرار الذى اتخذه مجمع الآلهة بإرسال طوفان و«القضاء على بذرة البشر».

ولابد أن الأسطورة قد استمرت بتعليمات مفصلة حول بناء زيوسودرا سفينة ضخمة حتى ينقذ نفسه من الهلاك ولكن كل ذلك مفقود بسبب انقطاع كبير إلى حد ما فى اللوح، وعندما يستأنف النص سرده، نجد أن الطوفان بكل عنفه قد انداح على الأرض وهاج لمدة سبعة أيام بلياليها، وعند ذلك، يتقدم إله الشمس، أوتو، ناشراً عليها الدفء والضياء، ويسجد زيوسودرا له ويقدم إليه أضحياته من الثيران والغنم وتصف الأسطر الأخيرة الموجودة من الأسطورة تأليه زيوسودار: فبعد أن سجد لـ«آن» و«إنليل»، مُنح الحياة مثل إله، وانتقل إلى «ديلمون»، أرض الفردوس الإلهية، «المكان الذى تشرق فيه الشمس.

وأخيراً، توجد أسطورة سومرية، وإن كانت لا تهتم إلاَّ بالآلهة توفر قطعة تستأثر بالاهتمام من المعلومات الأنثروبولوجية عن شعب البدو المعروف بـ«مارتو» ويقع حدث القصة فى مدينة نيناب، «مدينة المدن وبلد الإمارة» ـ لا يزال موقعها فى بلاد ما بين النهرين غير محدد ـ ويبدو أن إلهها الحامى لها كان مارتو، إله الساميين البداة الذين كانوا يعيشون فى الغرب وفى الجنوب الشرقى من سومر، ويوصف الزمن النسبى الذى وقعت فيه الحوادث فى عبارات ملغوزة وطباقية وغامضة، على النحو:

وجدت نيناب، لم توجد أكتاب،

وجد التاج المقدس، لم يوجد الإكليل المقدس،

وجدت الأعشاب المقدسة، لم يوجد النتروم المقدس...

وتبدأ القصة بأن الإله مارتو يقرر أن يتزوج فيطلب إلى أمه أن تعثر له

على زوجة، ولكنها تنصحه أن يذهب ويجد لنفسه زوجة وفقاً لرغبته، وتواصل القصة سردها أنه قد تم فى أحد الأيام الإعداد لعيد دينى كبير فى نيناب، ويأتى إليه نوموشدا، الإله المختص بحماية كازالو، وهى دولة مدنية تقع فى الشمال الشرقى من سومر، مع زوجته وابنته وفى أثناء العيد يؤدى مارتو عملاً بطولياً يجلب الفرج إلى قلب نوموشدا، فيقدم إليه الفضة واللازورد مكافأة له على ذلك ولكن مارتو يأبى هذه المكافأة، ويزعم أن يد ابنة نوموشدا هى المكافأة، ويوافق نوموشدا بسرور، وكذلك ابنته، على الرغم من أن صديقاتها يحاولن إقناعها بالعدول عن الزواج بمارتو مادام ليس إلا بدوياً همجياً يسكن الخيمة ويأكل اللحم النىء و«لا يدفن حين يموت».

■ ■ ■

الآلهـة السومـريـة

طبقات الآلهة السومرية

لم تتشكل الآلهة السومرية دفعةً واحدة، بل شكلها زمن طويل يمتد إلى حوالى ما يقرب من الألفى عام، ولم تكن هذه الآلهة متساوية المقام ومنسجمة المراتب، بل نراها فى شكلها النهائى مكونة من عدة طبقات أو مقامات يمكن فرزها عنها من منظورات مختلفة.

المنظور الأول هو الذى نظر به السومريون أنفسهم إلى آلهتهم وجعلوها فى مراتب مختلفة الأهمية تتدرج عظمتها كما يلى:

١ ـ آلهة المصائر الكبرى: وهى الآلهة السبعة التى تُسيطر على الكون كله، والتى لها صلاحيات مطلقة ونفوذ شامل وكانت قراراتها نافذة ولا ترد، ويتكون مجلس هذه الآلهة من إله عظيم يرأسها هو الإله «آن» إله السماء وإله الكون وستة من الآلهة يشكل الثلاثة الأول منهم مع آن ما يسمى بـ«الآلهة الخالقة» وهم كى «ننخرساج»، إنكى، إنليل، وهؤلاء الأربعة هم آلهة عناصر الطبيعة الأربعة «السماء، التراب، الماء، الهواء».

أما الآلهة الثلاثة الآخرون فهم آلهة الكواكب الثلاثة العظمى «ننار، أوتو، إنانا» «القمر، الشمس، الزهرة».

ويبدو لنا هذا التقسيم منسجماً فى مكوناته ومراتبه، حيث إن رب الأرباب «آن» تخضع له آلهة الطبيعة ثم آلهة الكواكب فى مجلس الآلهة.

٢ ـ الآلهة الخمسون العظام «الأنونا»: يترأس مجلس الآلهة الخمسين الإله إنليل «رقمه الرمزى هو خمسون، واسم معبده معبد الخمسين» وسمى هؤلاء

الآلهة أيضاً بآلهة «الأنوناكى بعد السومريين يشير إلى قضاة العالم الأسفل، وهم أغلب ما نعرف عن الآلهة السومرية، ويشكلون ثمار شجرتها.

٣ ـ الآلهة الثانويون «الإيجيجى»: وهم الآلهة الصغار الشأن! ويظهرون فى الغالب منتشرين فى السماء، وقد اختلط مصطلح الإيجيجى، بالأنوناكى كثيراً بعد السومريين ولكن الأرجح فى الاصطلاحين هو إشارة الإيجيجى إلى السماء والأنوناكى إلى الأرض.

المنظور الثانى للآلهة السومرية مأخوذ عن تقسيم السومريين أنفسهم لآلهتهم على أساس أن لكل مدينة سومرية إلهاً خاصاً بها، ولا يتعارض هذا التقسيم مع التقسيم السابق بل يكمله.

ولم يكن هذا التقسيم اعتباطياً، بل سار وفق طبيعة المدن وحاجاتها فمدينة إريدو مثلاً كانت مدينة مطلة على المياه وهى أول المدن فى جنوب العراق ولذلك كان الإله إنكى إله المياه وهو من أقدم الآلهة السومرية هو إلهها.. ويسرى هذا على بقية المدن وآلهتها.

المنظور الثالث للآلهة السومرية ما رآه جاكوبسن من تصنيف خاص يعتمد على الطبيعة الجغرافية لأرض سومر، ويشمل المجموعات التالية:

١ ـ آلهة الأهوار: هى الأهوار الجنوبية الشرقية التى تفصل الأرض المأهولة لسومر عن الخليج العربى والتى تبدأ من جنوب شرق إريدو حتى نينا «سرغول». وتشمل آلهة مائية يرعاها الإله إنكى، وهذه الآلهة هى «إنكى، أسلوحى، دموزى، نانشة، ننمار».

٢ ـ آلهة البساتين: وهى البساتين الجنوبية المحاذية لأسفل طريق الفرات القديم، وتتصف آلهة هذه البساتين بصلتها بالعالم الأسفل فهى آلهة سفلية وتشمل «ننازو، ننكشزيدا، دامو».

٣ ـ آلهة الرعاة: وتشمل المناطق من أور باتجاه أوروك وأوما، وتشتمل هذه

الآلهة على صنفين:

أ ـ آلهة رعاة البقر الجنوبية: وهى «نانا، ننهار، أوتو، ننسون، آن».

ب ـ آلهة رعاة الحمير الشمالية: وتشمل عائلة الآلهة ننخرساج «بيليتيلى» وهــى آلهــة أدب وكـيش ومـعــهـا زوجـهـا شـولبى وأبناؤهمـا موليل وأشـرجى وابنتهما أغيم.

٤ ـ آلهـة الحقـول: وتشـمل المناطق الشـمـاليـة المعشبـة حتى أكد. وشـرق الأقسام الشمالية من لكش وهى أرض زراعية ولذلك يكون بانثيون هذه المنطقة فلاحياً يعتنى بالزراعة والمحاصيل، ويقف على قمة هذه المجموعة الإله إنليل وهو إله سـومـر القـومى مع زوجتـه الإلهـة إنليل ومـعـهـمـا «نصـابا، ننورتا، باو، ميسلامتاى ـ نركال ـ».

ورغم أن جاكوبسن يأخذ بعين الاعتبار المجموعات الطبيعية ومجاميع المدن المتقـاربة فى الوقت نفسـه، فإن تقـسيمـه هذا يزيد من تشويشنا فيمـا يخص تسلسل الآلهة وانحدارها عن بعضها وأهميتها، وبعبارة أخرى فإنه اهتم بطبيعة سومر فى هذا التصنيف ولم يهتم بآلهة سومر.

إن هذه التـصنيفـات النـاقصـة لآلهـة سـومـر لا تعـالجـهـا إلاَّ شـجـرة أنسـاب الآلهـة السـومرية التى سنضعها هنا كمحاولة شـاملة لتصنيف الآلهة السـومـرية المعروفة والتى جاء ذكرها فى النصوص الأسطورية بشكل خاص.

■ ■ ■

شجرة الآلهة السومرية

حاولنا تنظيم شجرة آلهة سومرية شاملة، لا نستطيع المرور على كل تفاصيلها في مولفنا هذا ولكن يمكن الرجوع إلى كتابنا «متون سومر» الكتاب الأول، «التاريخ، المثولوجيا، اللاهوت، الطقوس» الذى يتابع أدق تفاصيل هذه الحقول، ويرسم لوحة شاملة للآلهة السومرية، ويمكننا وضع هذه الخلاصة الميسرة لشجرة الأنساب السومرية.

تتكون الشجرة من مستويات عدة، يضم كل مستوى مجموعة من الآلهة التى يربطها فى الغالب نسب واحد، وأحياناً طبيعة واحدة، وهى كما يلى:

١ ـ آلهة الهيولى والخليقة الأولى «آلهة الجذور»:

وهى الآلهة البدئية التى تشكل منها الكون، وهى قديمة وأزلية فى الوقت نفسه لأن أجسادها تشكل الكون والعالم والإلهة «نمو» هى أم الآلهة السومرية، والآلهة الهيولية الأولى، والتى نتج عن حركتها تكون جبل الكون الأول «آن ـ كى» الذى يتضمن السماء والأرض فى حالة تلاصق أو اندماج.

٢ ـ آلهة العناصر الأربعة:

وهى الآلهة التى كونت مادة العالم ثم كونت الحياة وتشمل آلهة المصائر الكبرى «آن، كى، إنليل، إنكى» وتقابل «السماء، الأرض، الهواء، الماء».

آن: هو إله السماء، ويظهر لنا فى الأساطير السومرية على أن الابن المباشر للإلهة «نمو»، الذى تسلم مقاليد الكون بعدها وكأنه يذكرنا بالانقلاب الذكورى الذى حصل فى الكالكوليت «الحجرى المعدنى» عندما انتزع الرجل مقاليد الحياة من المرأة التى سيطرت على الإلوهية والحياة منذ اكتشاف الزراعة.

والإله «آن» فى العقيدة السومرية إله عالمى مسؤول عن البشر أجمعين وعن الأرض والسماء.

وللإله آن معبد رئيس فى أوروك اسمه «اى ـ أنا» أى «بيت السماء» وزوجته الإلهة «كى» التى هى الأرض، ومن تزاوجهما أنجبا إنليل «إله الهواء» وإنكى «إله الماء» ونسكو «إله النار» وننخرساج «إله الأرض» وهذه هى آلهة العناصر الأربعة.

وله أيضاً سبع بنات مسؤولات عن الزراعة والشفاء هن «باو، ننسينا، كولا، ننكارك، جتومدو «مزب»، ناناى، ننتى نوجا» وللإله آن أبناء شياطين فى العالم الأسفل وأبناء ملائكة فى السماء.

إنليل: هو إله الهواء، الذى أصبح الإله القومى السومرى والذى وضعت فى صفاته كل أشكال القوة والسلطة والجبروت والحزم، وهناك ما يشير إلى أنه أخذ سلطات أبيه الكونية وفاز بها، ويظهر إنليل على رأس مجمع الأنونا «الخمسين» الذى يضم أغلب الآلهة المسؤولين عن شؤون الأرض ويعد إنليل وشجرته الهوائية مصدراً للموت والظلام والعالم الأسفل والهواء ووالد الكواكب المنيرة، إذ الصفات الأساسية لإنليل وشجرته تعكس مبادئ الحزم والقوة والموت، والإله إنليل أب لأربع مجاميع من الآلهة هم: «الفصول: إيميش ـ الصيف ـ وانتين ـ الشتاء ـ»، والعالم الأسفل وهم ميسلام تاى «نركال» والبيجييل «كيبل» إله النار وننازو إله الشجرة والطب، وبابيل سانج «إله البوابة» والمجموعة الثالثة هى العاصفة ممثلة بإلهيها ننكرسو وننورتا، أما المجموعة الرابعة فتضم الإله الوريث له وهو الإله «نانا» إله القمر.

وزوجة الإله إنليل هى الإلهة «سود» التى صار اسمها بعد زواجه منها «ننليل».

إنكى: وهو إله الماء وإله الحياة، وشجرته تحمل كل الآلهة التى تمثل مظاهر

الحياة، ويوصف أيضاً بأنه إله الأرض لارتباط الماء بالأرض وإنجابهما للحياة.

مدينة الإله إنكى هى إريدو ومعبده فيها يسمى معبد الغور «اى ـ إنغورا» ويسمى أيضاً معبد الأعماق «إى ـ أبسو» وللإله إنكى وزير اسمه «أسيمو» أو «إيسمود» وهو فى حقيقته ابنه وله علاقة بالمياه والزوارق والقصب ويظهر دائماً برأس بشرى وله وجهان.

والإله إنكى هو الذى خلق الإنسان وأحبه وأعطاه نواميس الحكمة والآلهة وبعث بكائنه السمكى «أوانيس» ليعلمه فنون الحضارة والكتابة وهو الذى أنقذ الإنسان من الطوفان.

وتبدو للإله إنكى ثمانية مجاميع من الآلهة سنأتى على ذكرها، جميعها يرتبط بالحياة واستمرارها ولا أثر فى سلالته للموت مطلقاً، بل إن أغلب الإلهات من نسله صرن فيما بعد زوجات لآلهة النسل الإنليلى وهذا أيضاً من صفات الحياة لأنه مانح الأنوثة.

كى: وهى إلهة الأرض، وتبدو إلهة قديمة ولكن شخصيتها تختلط بالإلهة ننخرساج التى تُسمى «ننكى» أى «سيدة الأرض» وربما كانت ننكى ابنتها، وفى جميع الأحوال، يمكننا القول إن الإلهة ننخرساج وهى رديفة كى، وهى بذلك زوجة الإله إنكى ولها عدة ألقاب هى «دامكال نونا أى زوجة الأمير الكبيرة» و«ننماخ» أى السيدة الكبيرة و«ننتو سيدة الولادة» و«ما مى أو ماما وهى الأم» و«مارى» وهى العذراء» و«كاتوم دوك» أى إلهة الأطفال، و«بيليتى» أى إلهة النسل، و«أوراش» أى الأرض، و«أرورو» أى التى تخرج الطفل من الرحم، و«دنكيرما» أى الإلهة الأم، و«ننمينا» أى سيدة القبعات الإلهية.

وحقيقة الأمر أن الإلهة ننخرساج هى الإلهة السومرية الأم وهى إلهة الإخصاب، أما «إنانا» فهى شاب لعوب تمارس الحب الطائش وقد استحوذت فيما بعد على صفات ننخرساج زوراً.

وربما حصل هذا مع «دموزى» الذى هو حصراً إله المراعى والحظائر لكن صفات إنكى الخصيبة أسبغت عليه.

وهناك زوج آخر لننخرساج يظهر كإله فى العالم الأسفل هو «شولبى» الذى أنجبت منه إلهين هما «موليل» ولعله «ليل» الذى يموت ويبعث مثل دموزى والآخر هو «اشرجى» وإلهة واحدة هى «أغيم».

٣ ـ سلالة إنليل:

تمتلئ شجرة إنليل الإلهية بآلهة يمثلون فى الغالب عناصر الهواء والظلام والكواكب والفصول والرياح والموت «العالم الأسفل» وهى شجرة جافة تفتقد إلى الحياة والمرونة، ولذلك تسود صفات القسوة والحزم والسلطة والقوة على آلهتها.

أ ـ إلها الفصول وهما «إيمش: الصيف» و«إنتين: الشتاء» وهذان الفصلان يعبران عن أهم موسمين فى سومر حيث الربيع يندغم بالشتاء والخريف بالصيف.

وهناك قطعة من أدب المناظرة السومرى «وتسمى بالسومرية أدمندوكا» تروى قصة خلق إيمش وإنتين والمنافسة بينهما أمام أبيهما «إنليل» حيث يوصف إيمش «الصيف» بأنه خلق الأشجار والحقول ووسع الحظائر والزرائب وأزاد المحصول فى المزارع، أما إينتين «الشتاء» فيوصف بأنه جعل النعاج تلد الحملان والماعز تلد الجداء وكاثر الأبقار والعجول وزاد اللبن وأفرح الماعز المتوحش والنعاج والحمير والطيور والأسماك ووفر العسل ثم ينتصر الإله إنليل إلى الشتاء الذى يعطيه لقب «فلاح الآلهة».

ب ـ إلها العاصفة: وهما «ننورتا: إله الأعصار» وننكرسو: إله مدينة كرسو، وهما إلهان يمثلان العاصفة القوية وعلاقتهما تتصل بالحروب والموت والدمار، لكن ننورتا يظهر بعض صفات الإخصاب الزراعية بحكم ارتباطه بزوجته «باو»

أو «بابا» وهى ابنة آن وإلهة الزراعة ثم صارت إلهة الطب والشفاء ورمز لها بالكلب.

أما الإله ننكرسو فقد عبد فى لكش وكان معبده يطلق عليه «بيت البجارا» وتقدم لأجله نذور كثيرة، وكان يرمز له بطير الصاعقة أمدو كد «زو» الذى يظهر برأس أسد وجناحى نسر.

وكان للإله ننكرسو ولدان هما «كال اليم» وهو إله الحق وصد الشر وإله الملوكية، والآخر «شول شاكا» إله السكائب والقرابين وإله الحياة أو الحيوية لارتباطه بالدم.

ج ـ آلهة العالم الأسفل:

وهم أربعة آلهة، ذكرت أسطورة إنليل وننليل كيفية إنجاب ثلاثة منهم هم ميسلام تاى وهو نركال الذى كان إلهاً شمسياً لكنه هبط فيما بعد إلى العالم الأسفل وتزوج أرشكيغال، وبقى معها إلى الأبد يحكمان العالم الأسفل وله عدة أسماء أخرى «لو كالجيرا، لو كال جودوا، لو كال أبيك» والثانى هو الإله «جيرا» أو «جيرو»، ويمكن أن يكون هذا الإله مصدر خير أو شر للناس وفقاً للتأثير الذى تحدثه النار نفسها؛ إذ بإمكانه أن يقدم الضوء والدفء بواسطة النار أو يسبب الحرائق والمصائب، وتذكر بعض المصادر أنه ابن إنكى «وهذا غير دقيق»، وفى نصوص «الأوتوكو» وهى العفاريت الشريرة بالسومرية والأكدية يظهر جبيل مع الإله إنكى يصعدان إلى السماء ليكتشفا سر العفاريت الشريرة السبعة «سبيتو» وهى مخلوقات الإله آن تم خلقها دون معرفة إنكى، وعند ذاك يرسل إنكى جبيل إلى ابنه أسارلوحى الذى يزوده بالتعاويذ اللازمة لمجابهة الـ«سبيتو» أما الإله الثالث فهو الإله ننازو ويعنى اسمه بالسومرية «السيد الطبيب» ويظهر هذا الإله دائماً على أنه ابن أرشيكيغال ونركال وليس ابناً لإنليل كما تذكره الأسطورة، وهو إله الشفاء والاغتسال فى العالم الأسفل، وكانت عبادته منتشرة فى منطقة ديالى حتى سلالة أور الثالثة، وحل محله فيما بعد الإله «تشباك».

أما الإله الرابع فهو إله عتيق جداً اسمه «بابيل سانج» ويعتقد أنه كان إله مدينة لاراك قبل الطوفان كما جاء فى الرواية السومرية، وهو زوج إلهة الشفاء «نينسينا» التى كانت تلقب أحياناً بـ«السيدة لاراك».

د ـ إله القمر نانا:

وكان له اسم قديم هو «سواين» أصبح فيما بعد جذراً لاسمه السامى «سين» ومن ألقابه السومرية «أشيم بابار» الذى يعنى صاحب الشروق المشع وكان يلقب أيضاً بـ«ثوير إنليل»، وزوجة الإله القمر هى «ننكال» أى السيدة الكبيرة.

وكان «نانا» يعبد فى معبد أور المسمى «أكيشنوكال»، وفى معبد «الهلهول» فى حران حيث كان يعبد الإله نوسكو «إله الضوء والنار» ابنا له، وقد صور على أنه ثور وأن له قرنين هما الهلال، وصور على أنه سفينة السماء أو سفينة شحن بضائع السماء، واتخذ منه السومريون مصدراً لمعرفة الزمن لأن أطواره الأربعة التى تبدأ بالهلال «شمباتارا» ومنه «تارخ» ثم نصف البدر «تكر» أو «إنسون» أى الثور البرى ثم البدر «سين أو شين» ثم نصف البدر ثم الهلال ثم المحاق «بوبولو» وكانت مراحل ظهور الهلال الأربعة تستغرق كل واحدة أسبوعاً كاملاً، ومن هنا ظهر مقياس الأسبوع بسبعة أيام، أما المرحلة الأخيرة أو المحاق فكانت تستغرق «٢ ـ ٣» أيام وبذلك يكون الشهر القمرى قد اكتمل.

وهكذا أصبح القمر مقياساً للتقويم السومرى القمرى ولم تؤخذ الشمس بسبب ثباتها الدائم، وقد ظل هذا فى الاسم السامى الآخر للقمر وهو «ورخ» أو «تارخ» الذى يشير إلى التاريخ، وكان خسوف القمر يعلل بأسطورة تقول إن الآلهة الشريرة «سبيتو» تسرق وتصرع الإله القمر وتحجبه.

وكذلك يفسر غيابه لمدة ثلاثة أيام فى نهاية كل شهر فى مرحلة المحاق التى كانت تسمى «بوبولو» بأن الشياطين من العالم الأسفل تقوم باحتجازه وأسره والذهاب به إلى هناك مؤقتاً وكانت تجرى بعض الطقوس لفك أسره.

ونرى أن كلمة «ننسون» التى هى الإلهة المسماة بالبقرة الوحشية لها علاقة بتسمية نصف البدر «إنسون» التى تعنى الثور الوحشى، وربما كانت ننسون قرينة إنسون فى هذه المرحلة رغم أن الإلهة «ننسون» تظهر قرينة لإله الشمس أب كلكامش الإلهى لأنها كانت أمه.

أبناء الإله القمر: للقمر ولدان أحدهما كوكب هو «أوتو» إله الشمس والآخر إله كزالو «نوموشدا» وله بنتان إحداهما تمثل كوكب الزهرة وهى «إنانا» إله الحب والجمال والأخرى إلهة العالم الأسفل «أرشكيغال» وهى إلهة الظلام والموت.

والإلهة «إنانا» لعبت أعظم دور بين الآلهة فقد طغت أساطيرها وقصصها وقدرتها على بقية الآلهة وهى التى أسماها الأكديون ثم البابليون «عشتار» وقد ظهرت عبادتها مبكرة فى أوروك فى الألف الرابع قبل الميلاد، ولها معابد فى أوروك وماری ونوزى ويمكن أن نحدد لها بدقة ثلاث صفات ثابتة الأولى أنها إلهة الحب والإغواء والجنس والجمال، والثانية أنها إلهة الحرب ونزعات التدمير والقتال والثالثة أنها إلهة نجم الزهرة الذى يسمى بنجمة الصباح أو نجمة العشاء، أما الصفة التى يعطيها لها بعض الباحثين حين ينسبون لها صفات الخصوبة والإلهة الأم فهى غير أصيلة فيها، فقد أسبغت عليها من الإلهة السومرية الأم «ننخرساج» التى بدأ ذكرها بالخفوت بعد السومريين.

ولعل أكثر القصص التى اشتهرت بها «إنانا» أساطيرها مع الإله «دموزى» عشيقها وزوجها وقتيلها فى الوقت نفسه وهو الإله الراعى المسؤول عن حظائر الأغنام والماعز، وقد أخذ صفات الخصب من الإله إنكى خصوصاً عند الأكديين عندما تحول إلى «تموز»، كذلك يرد ذكره على أنه أحد سكان العالم الأعلى «السماء» حارساً لبوابة آن مع الإله ننكشزيدا وكذلك أحد سكان العالم الأسفل مع نفس هذا الإله.

ولنا رأى خاص فى الأسباب العميقة التى أدت إلى موت دموزى ونفيه إلى

العالم الأسفل مفاده أن هذا الإله هو الإله الذكرى الوحيد من سلالة إنكى «هو ابن إنكى» الذى تزوج إلهة أنثى من سلالة إنليل فى حين أن أغلب بنات إنكى كن زوجات للذكور من سلالة إنليل، على اعتبار أن سلالة إنليل كانت تمثل القوة والبطش والذكورة والموت وسلالة إنكى كانت تتمثل باللين واللطف والأنوثة والحياة، وأن الذى حصل بين دموزى وإنانا هو الشذوذ الوحيد فى تلك القاعدة ولذلك كان لابد من عقاب دموزى وموته.

وهناك خمسة أبناء للإلهة «إنانا» من دموزى «وربما من غيره» وهم الإلهة «إشخارا» التى ذكرت فى عيلام وعصر أور الثالث وهى الإلهة المختصة بضمان تنفيذ العهود المقطوعة، أمام الآلهة ولذلك تُسمى سيدة القضاء والأضاحى، ولها صفات حربية ورمزها هو العقرب ولها سبعة أبناء أو عفاريت، ويبدو أنها ورثت صفات «إنانا».

أما الأبناء الأربعة الباقون لها فهم «شارا» الذى يختلط أحياناً بصفات «إشخارا» وهو إله مدينة أوما، إله الحرب، وربما كانت له علاقة بـ«الزواج».

والإله «لولال» إله لتراك، والإله «ننخار» إله الرعد والعواصف والإله «إشكر» وهو إله البرق الذى ظهرت من صفاته شخصية الإله أدد السومرى ثم هدد أو حدد السامى، وهناك ختم اسطوانى من تل الرماح من القرن الثامن عشر ق.م يصور ويذكر الإله «إشكور ـ أدو» كاسم مركب من اسمين لإله العاصفة، وهو زوج الإله «شالا» أو «شلش» أو «أمجرو» إلهة النار.

وهكذا حافظت سلالة «إنانا» على صفات السلالة الإنليلية الهوائية النارية المميتة.

أما أبناء الإله «أوتو» إله الشمس من زوجته «آية» فهم ستة أبناء أولهم «بونينه» وزير وسائق عربة الشمس، و«خار» راعى الحيوانات البرية و«سموكان» راعى النباتات والحيوانات البرية و«سيسكال» إله العاصفة و«نكجينا» إله الصدق

والحق و«مامو» إلهة الأحلام.

وكان الإلهان إشكر والإله أوتو يعتبران إلهى العرافة وتفسير الأحلام.

الإلهة «أرشكيغال» هى إلهة الموت والعالم السفلى، ويعنى اسمها «سيدة الأرض الكبيرة»، وتذكر الروايات السومرية أن لها زوجين هما «كوكال أنا ـ أى ثور السماء الكبير» ونركال ولها من الأخير ثلاثة أبناء اثنان منهما بمثابة الوزيرين لها ولنركال وهما «نمتار» مُقدر المصير وإله الستين مرضاً ووزيرها، والإله الثانى «خيندر ساك» إله الموت وزير نركال، أما الابن الثالث فهو الإله «ننازو» الذى ظهر فى رواية أخرى على أنه ابن إنليل وننليل، وهو إله الطب وإله الشجرة، وابنة الإله «ننشكزيدا» حامل العرش ومعنى اسمه «سيدة شجرة العدل» وربما المقصود منها «شجرة الحياة» ويلقب فى المدائح الإلهية بـ«خادم الأرض الواسعة» و«محرك كرسى الأرض الواسعة» وهو زوج الآلهة آزيموا «إلهة مقاطعة فى لكش» ولهما ابن هو «دامو» إله النسغ الصاعد فى النباتات، والذى تذكره نصوص أخرى على أنه ابن إلهة الشفاء «ننسينا» من زوجها «بابيل سانج»، وكانت علاقته بالطب والشفاء واضحة.

٤ ـ سلالة إنكى:

السلالة الكبيرة الثانية فى شجرة أنساب الإلهة السومرية هى سلالة إنكى، التى تُعبر عن الحياة والماء وتشير إلى الجانب المعاكس تماماً لسلالة إنليل فهى تحفل بآلهة لهم وظائف مرتبطة بالأنوثة والولادة والخصب والنبات والحيوان والإنسان.

وقد رأينا أن من الأنسب تصنيف هذه الآلهة التى هى من نسل إنكى وزوجته ننخرساج إلى ثمانية أصناف هى:

أ ـ الإلهان عديما الجنس المخنثان «كوركالا» و«كولاتور» اللذان صنعهما إنكى من الوسخ الذى تحت أظافره لإنقاذ «إنانا» من العالم الأسفل.

ب ـ آلهة المياه وهم:

١ ـ دموزى أبسو: وهو غير الإله دموزى فهو إله المياه العميقة، وعلى الأغلب هو إله أنثى من محيط لكش، إلهة مدينة «كيزشا» وترتبط بإله المحيطات العذبة «أبسو» وقد فقدت أهميتها بعد العصر البابلى القديم لتضاؤل دور مدينة لكش السياسية.

٢ ـ أبيللو: وهو إله المياه والحقول وكان معنياً بالأقنية والسدود والترع بالإضافة إلى المطر، وقد اختاره الإله إنكى للإشراف على دجلة والفرات، وله شكل أنثوى هو الإلهة السومرية بيللو المرموز لها بقرية الماء والمعروفة بعداوتها للإله دموزى.

٣ ـ سيرار: هو إله الخليج العربى، ويعتقد أنه حفيد بيللو المسمى «سرو».

٤ ـ إيسمود: وهو الإله إسيمو ذو الوجهين، وزير الإله إنكى.

٥ ـ نندارا: وهو جابى البحر وزوج الإلهة نانشة ونازى.

ج ـ آلهة النباتات وهم:

١ ـ أبو: وهو ملك النباتات وإلهها ويعنى بالخضرة والحشائش الصغيرة، وقد حظى بالعبادة فى مملكة أشنونا «منطقة ديالى» وعثر فى تل اسمر على تمثال له ولزوجته وما يشير لوالده.

٢ ـ دموزى أما أشمو كال أنا: وهو القوة المخصبة التى تكمن فى النخيل وتسبب الطلع والخصب لها، وهو غير الإله الراعى دموزى.

٣ ـ أنكمدو: وهو الإله الفلاح.

٤ ـ نصابا: إلهة الحبوب ثم إلهة الكتابة والأعداد فى سومر.

٥ ـ أشنان: إلهة الغلة.

٦ ـ ننموخ: إلهة الغابات.

٧ ـ ننغيردا «ننكيرى، ننسوتو»: زوجة الإله ننازو.

٨ ـ كشتن أنا: سيدة دالية الكروم وأخت الإله دموزى.

٩ ـ نازى: زوجة الإله ننداراً.

١٠ ـ آزيموا: زوجة الإله ننكشزيدا.

١١ ـ ننكيرى أوتو: إلهة نباتية.

١٢ ـ ننسار: سيدة الخضار والنباتات التى تُؤكل.

١٣ ـ ننمو: سيدة النباتات ذات الألياف.

١٤ ـ إيمر: إله الحبوب.

١٥ ـ أزينو: إله أو إلهة الحبوب والزمن.

١٦ ـ كوسو وباسيكيل: إلها الحبوب.

د ـ آلهة الحيوان:

١ ـ دموزى: وهو راعى الأغنام والماعز، «دمو تعنى ابن، وزى تعنى مخلص» فهو الابن البار، كما أن زو تعنى المخلص فهو الابن المخلص، كما أن زى تعنى الذى يعلو فهو الابن الذى يعلو، وهو أكثر الآلهة شهرة على المستوى الشعبى، حيث كانت تمارس شعائر وطقوس عبادته بشكل واسع، ويرى مورتغات أن دموزى وعقيدته الدينية هى أساس العقيدة الدينية السومرية وأساس المواضيع الخالدة فيها.

ولعل أساطير دموزى مع «إنانا» من أشهر أساطير الحب والجمال، وكذلك طقوس الزواج المقدس.

٢ ـ لهار «لخار»: وهو إله الأغنام والحظائر ومنتوجاتها.

٣ ـ ننسون: وهى البقرة الوحشية أم الإله دموزى أحياناً «وتسمى سرتور»

وأم كلكامش والأمير كوديا.

٤ ـ نانشة: إلهة الأسماك.

٥ ـ ننمار: إلهة الطيور.

٦ ـ زيابا: إله الأغنام وحقولها والمسؤول عن ذبحها وهو إله الحرب فى كيش.

٧ ـ بليلى: الوجه المؤنث من إنبيليلو وتظهر قاطنة حظائر الماشية.

هـ ـ آلهة العمران:

١ ـ ممو: إله الحرف والمهارات.

٢ ـ ننتى: إلهة الشهور وراعية الزمن وهى الإلهة التى تحيى وقد كانت مصدر فكرة حواء فى الديانة العبرية، لأنها إلهة الضلع أيضاً.

٣ ـ إنشاج: إله دلمون ويُسمى أيضاً «إنزاك».

٤ ـ ننسيكلا: إلهة دلمون ومكان «عُمان».

٥ ـ ننكاسى: إلهة الخمرة «إلهة الكأس».

٦ ـ كبتا: إلهة الفأس والقرميد.

٧ ـ كولا: إلهة الطابوق وصناعته.

٨ ـ مشدما: إله المساكن.

٩ ـ هايا: إله الصوامع زوج نصابا.

١٠ ـ نندوب: إله المعمار ومصمم المعابد.

١١ ـ ننكورا: إله الأصباغ.

١٢ ـ أتو: إلهة النسيج.

١٣ ـ أشموكال كلاما: إله الموسيقى «القيثارة».

١٤ ـ تيبال «تابيرا»: إله المعادن.

١٥ ـ ميرسو: إله الري.

١٦ ـ طقطوق: إله الصناعة.

١٧ ـ ساتران: إله مدينة دير.

١٨ ـ نيراح «نيراه»: القوة الحامية للبشر ويصور كثعبان.

و ـ أسلوحى:

هو الابن الوريث للإله إنكى، ويمثل الغيوم المرعدة، وهو الجذر السومرى للإله مردوخ «ابن أيا الأكدى» لأنه يحمل نفس صفاته، ولكن اشتقاق اسم مردوخ قادم من المقطعين السومريين «أمار أوتو» والذى يعنى «عجل الشمس» أو «طفل الشمس» وكان هذا المصطلح يشير إلى كوكب المشترى الذى يمثله مردوخ، وقد كان أسلوحى أو «أسارولوخى» إلهاً للسحر والتعاويذ التى ورثها عن أبيه إنكى.

ز ـ إلهات الولادة السبع:

وهن سبع ثانويات مخصصات للولادة ويساعدن الإلهة ننماخ ساعة ولادة الآلهة أو الإنسان وهن:

١ ـ نن ـ إما.

٢ ـ نن ـ مادا.

٣ ـ نن ـ يارا.

٤ ـ نن مكك.

٥ ـ نن كونا.

٦ ـ سوزى أنا.

٧ ـ موسار غابا.

ح ـ الإله الميت أو الضعيف «الإنسان ـ لولو»:

يُوصف الإنسان في التراث الديني السومري بأنه ابن الإله وهو تحديداً ابن الإله إنكي، ولكن هذا الإنسان هو إله ميت أو ضعيف أي محكوم عليه بالموت، وسنشرح أساطير خلق الإنسان وولادته في الفصل القادم.

وكلمة «لولو» مأخوذة من المقاطع السومرية «Lu- ux- Lu» التي تعني حرفياً «الإنسان البعيد أو السحيق» أو الإنسان العادي، ومرادفتها الأكدية أويلو، التي ترتبط باسم الإله «وي ـ إيلا» ومعناه الحرفي «الإله الذي كانت له شخصية» وهو الإله الذي ذبح في «أوزموا» في نفر وصنع من دمه مع الطين الإنسان وهي أسطورة أكدية ذات أصول مكانية سومرية.

رموز الآلهة السومرية

يمكننا القول إجمالاً إن الرموز ظهرت فى وادى الرافدين فى وقت مبكر، فى حضارة سامراء «٥١١١ ـ ٤٩٠٠» ق.م وربما فى حضارة حسونة التى سبقتها، وكانت هذه الرموز فى غالبيتها دينية الطابع، وقد تطورت فى عصر الكالكوليت، أما فى العصر السومرى فقد ظهرت رموز الآلهة على نطاق واسع ومتطور وسنقوم باستعراض هذه الرموز حسب أهمية ومقام الآلهة اعتماداً على شجرة الآلهة السومرية التى وضعناها، وسنقتصر على الرموز السومرية فقط تاركين أمر تطورها لاحقاً فى بابل وآشور إلى الكتب القادمة.

١ ـ **رمز إله السماء «آن»:** وهو الرمز المهم للآلهة والذى أصبح فيما بعد علامة «دنكر» التى تشير إلى الآلهة بعامة، وقد تطورت عن رمز الإلهة آن الذى يدل على ثمانى جهات، وكان ذلك فى حدود ٣٢٠٠ ق.م، ثم أحيطت أذرع الجهات بما يشكل نجمة ثمانية تنبثق داخلها خطوط الجهات. وقد حافظت الكتابة المسمارية السومرية على شكل قريب من هذا عندما خطت بأربعة مسامير متقاطعة تشير إلى الجهات الثمانية أيضاً.

وقد كان العدد الرمزى للإله آن هو «٦٠» ويكتب بعلامة مسمار واقف وهو رقم مقدس عند السومريين لأنه يعبر عن الكمال، وقد سميت الرياضيات السومرية بالرياضيات الستينية التى أصبحت أساس الرياضيات الفلكية والهندسية إلى يومنا هذا.

٢ ـ **رمز الإله إنليل:** يعود رمز الإله إنليل إلى نهاية الألف الخامس قبل الميلاد حين مُثّل هذا الإله على شكل مثلثين متقابلين متصلين أو على شكل فأس مزدوج، وكان ذلك يشير إلى أسطورة خلق الفأس لإنليل، حيث يعتبر هو

رب العمل الذى أعطى لشعب سومر الفأس ليبنى حضارته بها، ولتدل على القوة والبأس، والعدد الرمزى لإنليل هو «٥٠» الذى كان يعنى أيضاً أن إنليل يترأس خمسين إلهاً أرضياً هم أعضاء مجلس الأنوناكى السومرى وقد ورث هذا العدد كل من ولديه ننورتا وننجرسو.

٣ ـ **رمز الإله إنكى:** عبر عنه بالإناء الفوار الذى يشبه الكمثرى، الذى تخرج منه خطوط المياه العشر من الجانبين، فهو إله المياه وقد عبرت شجرة «الكشكانو» وهى «شجرة الحياة» التى كانت تُسمى باسم إنكى عن هذا الإله لأنه إله الحياة وإله الخصب.

أما عدده الرمزى فهو «٤٠» وقد كان هذا الرقم يحمل معانى عديدة منها النضج والحكمة والنبوة وغير ذلك.

٤ ـ **رمز الإله نانا «القمر»:** وقد كان رمزه المبكر فى العصر السومرى عبارة عن هلال وفى وسطه نجمة ذات اثنى عشر شعاعاً، ستة من الآشعة على شكل مدبب والستة الأخرى على شكل شريط شعاعى مكون من ثلاثة خطوط، كما تدل قرون الهلال على قرون الثور باعتبار أنه كان يسمى بـ«ثور السماء» وكذلك على حافتى «سفينة السماء».

والعدد الرمزى للإله نانا هو «٣٠» يشير إلى أيام الشهر الذى كان يقاس بدورة القمر الشهرية، ويشير إلى فكرة جعله مصدر التاريخ والزمن.

٥ ـ **رمز الإله أوتو:** كان رمز الإله الشمس قد ظهر مُبكراً فى الرسوم الرافدينية فقد ظهر فى الألف الخامس على شكل صليب وصليب مالطى، وعلى شكل الرمح والنجمة المعلقة به ثم ظهر فى العصر الأكدى على شكل «المنشار» الذى يقص الظلام، وعلى شكل النجمة ذات الآشعة الستة عشر، التى كان ثمانية منها على شكل مثلثات مدببة والثمانية الأخرى على شكل أشرطة أشعة متساوية، وكان ظهوره بهذا الشكل المميز فى العصر الأكدى يؤكد مكانته عند

الأكديين باعتباره الإله القومى لهم، وكان العدد الرمزى له هو «٢٠».

٦ ـ رموز الإلهة إنانا: للإلهة إنان ثلاثة رموز سومرية أساسية ظهرت فى عصر الوركاء وجمدت نصر أى فى عصر البروتوليتريت الشبيه بالتاريخى وهو عصر سومرى مبكر، الرمز الأول هو رمزها الكتابى وهو عبارة عن قصبتين متتابعتين باتجاه واحد معتوقتين ويتدلى من رقبة كل واحدة منهما شريط حريرى. أما الرمز الثانى فهو عبارة عن قصبة مدببة ذات ست حلقات على جانبيها. الرمز الثالث هو زهرة الإقحوان المؤلفة من ثمانى أوراق مدببة على شكل معينات مصفوفة باتجاه مركز مدور. وكان هذا الرمز يشير إلى شجرة حياة إنكى أيضاً.

أما العدد الرمزى للإلهة إنانا فهو (١٥) وهو نصف عدد أبيها القمر وكأنه يشير إلى البدر التمام وهو ما يؤشر صفة الجمال لإنانا، وكذلك يضمر هذا العدد أصل اسمها اللاحق «عشتار» من التسمية السومرية (كشدار) الذى يضم معنى الشق والقضيب وهما رمزا الأنوثة والذكورة الدالان أيضاً على الحب والحرب.

٧ ـ رمز الإله دموزى: رغم شيوع عبادة الإله دموزى وأساطيره وطقوس الزواج المقدس والحزن عليه، إلا فإن هناك رمزاً واحداً يرجح أن يكون خاصاً به وهو عبارة عن جذع نخلة يشير إلى الإله دموزى (أما أشمكال أنا) وهو مخصب النخيل وطلعها وفى أعلى هذا الجذع رمز الألوهية الذى هو عبارة عن عجلة تحتوى فى داخلها على نجمة ثمانية مدببة الأشعة وذات مركز. ولم يكن للإله دموزى عدد رمزى.

٨ ـ رمز الإلهة إشخارا: ظهر رمز العقرب فى وقت مبكر جدا، فقد كان من الرموز الأولى لحضارة سامراء النيوليثية فى الألف السادس قبل الميلاد وكان يشير إلى الإلهة الأم، وقد ظهر فى الأطباق الفخارية السامرائية ليشير إلى علامة الصليب المعقوق (السواستيكا) التى كانت رمزاً للإلهة الأم، وظهر أيضاً

فى قصة الأكيتو (استنزال المطر أو الاستسقاء) ليشير إلى الإلهة الأم لأن من صفات العقرب ولادة أبنائها من البيوض داخل جسدها ولذلك حين كانوا يخرجون بعد التفقيس الداخلى يضطرون إلى تمزيق ظهرها والعيش على بقايا جسدها فى حين تموت العقرب الأم، ويعتبر هذا الرمز واحدا من أول رموز التضحية والأمومة، ويبدو أن الإلهة إشخارا كانت تمثل بالعقرب استمراراً لحفظ تقليد الإلهة الأم رغم أن هذا الرمز كان يدل على الإله شارا الذى كان يختلط مع الإلهة إشخارا بسبب اقتراب اسميهما وكونهما أبناء الإلهة إنانا. وكان أحد مداليل العقرب هو (الزواج) الذى كانت إشخارا تمثله.

٩ ـ رمز الإله إشكر: ظهر رمز الإله إشكر الدال على الصاعقة والبرق مبكراً فى حضارة سامراء النيوليثية على شكل الحرف u المتعرج الذراعين، ثُمَّ تطور فى العصر السومرى فى النصف الثانى من الألف الثالث قبل الميلاد إلى شكل الشوكة المزدوجة ذات المقبض الوسطى الذى أصبح يدل على البرق والصاعقة كسلاح فى يد الإله إشكر الذى صار الإله أدد فيها بعد.

والعدد الرمزى للإله إشكر هو (٦).

١٠ ـ رمز الإلهة باو (بابا): ظهر رمز الوزة الدال على الإلهة باو مبكراً فى حضارة حلف ولكنه مع ظهور الحضارة السومرية أصبح دالاً على هذه الإلهة التى تهتم بالزراعة، لكن الوجه الآخر لباو هو الوجه الطبى ـ حيث سميت بابا (طبيبة ذوى الرؤوس السود) ـ تجسد فى رمز الكلب (الذى كان بسبب لعقه للجروح يعتبر عامل شفاء) وكان هذا الرمز يشير إلى جميع إلهات الشفاء والزراعة السبع بنات الإله آن فى الوقت نفسه، أما الوزة فهو رمز (باو) حصراً.

١١ ـ رمز الإله ننكرسو: وهو ابن انليل الذى يحمل صفاته، فهو إله العاصفة التى يمثلها أيضاً الإله ننورتا، إلا أنه حصرا إله مدينة (كرسو). وقد كان رمزه فى بداية عصر ميسلم (حوالى ٣٠٠٠ ق.م) على شكل عصا مزدوجة ذات نهاية منتفخة ومحززة الرقبة وهى دالة على السلطة والقوة أما فى النصف الأول من الألف

الثالث ق. م. فقد أصبح شكل (أمدوجد) إله الريح الكاسحة الذى يمثل برأس أسد وجناحى نسر هو رمز الإله ننكرسو.

العدد السرى للإله ننكرسو هو (٥٠) مثل والده الإله إنليل.

١٢ ـ رمز الإله ننكشزيدا: وهو ابن ننازو إله الطب، الذى يحمل صفاته وقد رمز له بثعبانين ملتفين على غصن شجرة أو عصا فى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. وكان الثعبانان متصلى الذيلين ويتقابل وجهاهما وتتلاقى حلقتان انفيتان لكل منهما. ومعروف أن الأفعى (أو الثعبان) مثلت رمزاً من رموز الشفاء والخلود، ففى سمها ترياق طبى وفى تجدد جلدها ما يشير إلى الخلود وتجدد الشباب. وقد أصبح رمز ننكشزيدا هذا رمزاً عالمياً للطب، فقد أصبح شعار الطب السومرى (الكاديكيوس) الذى انتشر شرقاً وغرباً وترسخ فى اليونان وصار رمزاً لإله الطب اليونانى (أسكليبيوس) وشعاراً للطب اليونانى. وارتبط عند الرومان بسنابل القمح كرمز للخصب وأسماه اليونان والرومان بـ (الكاديكيوس). ونستطيع ملاحظة وجود هذا الرمز واستمراره حياً فى الشرق القديم من حكاية حية النحاس التى رفعها موسى على جبل نبو رمزاً للشفاء وقد كانت حية ملتفة على عصا. وفى عصرنا الحديث مازال رمز الطب هو الحية الملتفة على عصا. ورمز الصيدلية الحية الملتفة على كأس وهى تضع رأسها عند فوهتها. وهو الشعار الذى نراه على أبواب الصيدليات ولافتاتها.

١٣ ـ رمز الإلهة أشنان: كانت السنبلة رمزاً قديماً من رموز الإلهة الأم فى عصر النيوليت والكالكوليت ولكنها أصبحت، حصراً، فى العصر السومرى دالة على الإلهة أشنان إلهة الغلة والنبات وهى سنبلة مميزة تتكون من ساق بثلاثة أغصان تشبه ثنية الكف وكأنها تمثل العطاء، والسنبلة مكونة من ستة فروع بارزة يتوسطها شكل هندسى مكون من تسعة مربعات لعلها إشارة لأشهر الولادة والخصب وواضح أن العدد (ثلاثة) يتكرر فى شكل هذه النبتة وهو عدد يرمز إلى الكثرة والوفرة.

١٤ ـ رمز الإلهة نانشة: كانت السمكة رمزاً نيوليتياً ظهر فى حضارة سامراء ليشير إلى الإلهة الأم فى بعض الأوانى الفخارية التى كانت تحمل صورة ثمانى سمكات تدور باتجاه معاكس لعقرب الساعة حول أربع سمكات مطعونة وبمركز سواستيكى. وفى العصر السومرى أصبح هذا الرمز يشير إلى الإلهة نانشة إلهة الأسماك وابنة إنكى.

١٥ ـ رمز الإلهة ننمار: كانت الطيور عموما تشير إلى الإلهة الأم النيوليثية وحتى النسور الكاسرة كانت تشير لها كما فى (شتال حيوك) فى الأناضول النيوليثية، لكن النسور والعقبان أصبحت تدل على الإله الأب الذكر القوى الممثل بإله الهواء فى بداية الكالكوليت وأصبحت الطيور الأليفة حصراً هى التى تدل على الإلهة الأم.. والإلهة ننمار كانت إلهة الطيور التى كانت رمزاً لها فى المرحلة السومرية.

١٦ ـ رمز الإلهة لهار (لخار): وهى إلهة الماشية بشكل عام وربما أصبحت تدل على الخراف بشكل خاص، ولذلك كان رمزها النعجة، وإذا ظهرت النعجة مع الغلة أو السنابل فإن ذلك يدل على تلازم الإلهتين الأختين (لهار) النعجة و(أشنان) الغلة حيث تصف قصيدة مناظرة سومرية تلازمهما وتنافسهما فى الوقت نفسه.

١٧ ـ رمز إلهة العين «المضادة للحسد»: لم تكن هذه الإلهة شائعة ضمن البانثيون السومرى، ولكنها كانت شائعة فى مناطق غرب وأعالى الفرات، فقد عثر لها فى معبد العين «فى تل براك على الخابور» على آلاف التماثيل الحجرية المنحوتة بزوج من العيون المحدقة وعلى رمزها «العين المحدقة» باعتبارها إلهة طاردة للحسد والشر.

١٨ ـ رمز الحمامة السماوية «أياهو»: هذا الرمز له أهمية خاصة فهو يشير إلى الحمامة السماوية التى كانت طيراً مقدساً واعتبرت من رسل السماء وتدعى بالسومرية «أياهو»، ونرى أن هذا الاسم هو مصدر الإله العبرى «يهوه»،

وقد حصل ذلك من خلال الإله إنليل الذى أرجح أن يكون مصدر الحمامة السماوية أو أنها شكل من إشكال ظهوره أو مبعوثته من السماء وقد اقترنت بها عند العبريين ثم اليهود صفات «يهوه» الذى يناظر تماماً فى صفاته الإله «إنليل» كالعاصفة والغضب والقوة، خصوصاً إن «إنليل» هو الإله القومى السومرى و«يهوه» الإله القومى العبرى.

١٩ ـ **رمز الفأس «العمل»**: وهو أحد رموز الآلهة أيضاً الذى جسدته أسطورة الفأس الخاصة به، فهو هدية الإله إنليل إلى الشعب السومرى ليبنوا سومر بالعمل وقد جسد المحراث فكرة العمل أيضاً.

٢٠ ـ **رمز البناء**: وهو رمز مكون من عصا وبجانبها حبل مطوى على شكل حلقة تتهدل منه قطعة حبل مطوية، وقد ظهر هذا الرمز فى القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد.

٢١ ـ **رمز السلطة**: وهو رمز قديم يظهر مرافقاً للإله آن ثم للإله إنليل ثم يظهر مع الملوك. وهو مكون من عصا وبجانبها حلقة دائرية.

٢٢ ـ **رمز بوابة المعبد**: الذى يظهر على شكل عمودين مدببى النهاية من خلال قبة صغيرة تعلو كلاً منهما، وهناك نصف حلقة جانبية على ثلثهما الأعلى، وقد ظهر هذا الرمز حوالى «٢٤٧٥» ق. م.

٢٣ ـ **رمز الماء المقدس**: وهو إناء سكب الماء المقدس الذى يظهر مثل كأس مخصرة تتدلى على جانبيه ثمرتان وتنبع منه سعفة مكونة من أوراق جانبية صغيرة. وربما كان هذا الشكل عبارة عن الكأس والنخلة.

٢٤ ـ **رمز الموقد المقدس**: وهو عبارة عن إناء طويل تخرج منه ألسنة لهب، وهو أحد رموز المعبد ولكنه أشار فى العصر الأكدى إلى الإله «نسكو» إله النار والإله «ننكشزيدا» إله الطب.

الأساطير السومرية

لعل من الضرورى التأكيد على أن هناك الكثير من الأساطير السومرية ما زال مفقوداً، حيث نرى إشارات كثيرة لأساطير لم يُعثر عليها حتى الآن، وبرغم ذلك فإن الأساطير السومرية التى بين أيدينا تعطينا فكرة واضحة عن النظام المثولوجى السومرى.

إن تصنيف الأساطير السومرية هو الذى يدلنا على هذا النظام ويعيننا على تلمس شكله وبنائه. وقد اقترحنا تصنيفاً نعتقد أنه يوفر مثل هذه الفرصة أو يفتح طريقاً لها على الأقل، وهو كما يلى:

١ ـ أساطير الخليقة «التكوين» Myths of Gensis:

أ ـ أساطير نشوء الكون «الكوزموغونيا Cosmogony».

ب ـ أساطير نشوء الآلهة «الثيوغونيا Theogony».

ج ـ أساطير نشوء الإنسان «الانثربوغونيا Anthropgony».

٢ ـ أساطير تنظيم الكون Mythes of Organization:

أ ـ الأساطير المرتبطة بالإله إنليل.

■ أسطورة خلق الفأس.

■ رحلة «نانا» إلى نفر.

■ إيميش وإنتين.

■ لاهار وأشنان.

ب ـ الأساطير المرتبطة بالإله إنكى.

■ إنكى وتنظيم سومر.

■ إنكى وإريدو والرحلة إلى نفر.

٣ ـ أساطير تدمير الكون Myths of Destrucation:

أ ـ الطوفان «أسطورة الدمار القادم من العالم الأعلى».

ب ـ التنين «أسطورة الدمار القادم من العالم الأسفل».

■ التنين كور والآلهة إنكى وننورتا وإنانا.

■ التنين أساج والإله ننورتا.

٤ ـ أساطير إنانا Myths of Inanna:

أ ـ إنانا والآلهة «آن، إنليل، إنكى».

ب ـ إنانا ودموزى.

ج ـ إنانا وملوك سومر «كلكامش، شولكى، شوسين، إيدن داجان، إيشمى داجان».

د ـ إنانا والإنسان «شوكاليتودا، بليولو».

هـ ـ إنانا والعالم الآخر.

■ إنانا وجبل إيبيخ.

■ إنانا وكور.

■ هبوط إنانا إلى العالم الأسفل.

١ - أساطير الخليقة
Myths of Gensis

لا تسعفنا المدونات السومرية بأسطورة خاصة عن خلق الكون، ولكننا نعرف من مقدمات القصائد والأساطير الأخرى أن الكون فى نظر السومريين ظهر من الإلهة السومرية الأم الأولى «نمو» وهى إلهة هيولية تحركت فيها إرادة الخلق وتصارعت الحركة مع السكون ونتج عن ذلك تكون الكون «آن - كى» الذى يعنى «السماء - الأرض» وهو جبل كونى يعوم وسط مياه «نمو».

وكان السومريون يسمون الزمان الأول الذى بدأ فيه الخلق أوريا، وهذا يعنى أن ثلاثى الخلق الأول عند السومريين كان مكملاً لبعضه، حيث المادة الأولى «نمو» والزمان الأول «أوريا» والمكان الأول «آن - كى».. وبهذا الثالوث التكوينى يتحرك الوجود كله وتصير استعادته الدائمة فى الطقوس والشعائر الدينية محور هذه الطقوس.

إن «نمو» تمثل العماء «كاؤس» أما «آن - كى» فيمثل الكون «كوسموس» وزمن الانتقال من العماء إلى الكون هو الزمن الأول «أوربيا».

وكانت أعياد رأس السنة السومرية تمثل محاولة لاستعادة الزمن الأول «أوربيا» ولذلك كانت هذه الأعياد تتضمن استعادة قصة الخليقة من جديد بل ونتضمن ما يشير إلى الخروج من العماء إلى الكون عن طريق عودة العالم إلى الفوضى ثم تدرجه إلى النظام.

وكذلك كان بناء المعابد وتمثيلها بالجبال الكونية وإطلاق تسمية «صلة بين الأرض والسماء» عليها تعنى استعادة خلق المكان الأول، وكانت الزقورات السومرية إحياء لهذا الجبل الكونى «آن - كى»، وقد كان ينظر إليها السومريون

على أنها مركز العالم وسرة الكون، إن مصطلح «دور ـ آن ـ كى» الذى كان يشير إلى زقورات نفر ولارسا وأور وغيرها كان يمثل هذا التوجه تماماً وكانت المعابد تبنى فى الغالب قرب أو فوق المياه تمثلاً للحظة الخليقة الأولى واستعادة لها.

وتستكمل عملية الخلق نفسها عندما يمثل «آن» السماء و«كى» الأرض فى الجبل الكونى «آن ـ كى»، وهما فى وضع مضاجعة والتصاق حيث يكون «آن» العنصر الذكرى و«كى» العنصرى الأنثوى، وينشأ عن ذلك ولدهما «إنليل» ومعناه «سيد الهواء» الذى يولد بينهما ويكبر حتى يقوم بفصلهما تماماً حيث يرتفع الإله «آن» إله السماء إلى الأعلى وتنخفض الإلهة «كى» إلهة الأرض إلى الأسفل.

ثم يقوم الإله «آن» بإخصاب الإلهة «كى» من جديد عن طريق المطر الذى يساهم فى تحريكه الهواء وينتج عن ذلك ولادة الإله «إنكى» وهو إله الماء الذى سيملأ الأرض ويصبح أيضاً إله الأرض مع الإلهة «كى».

وبولادة هؤلاء الآلهة الأربعة يكون الكون بمعناه البدئى قد اكتمل حيث تميز الآلهة «آن، كى، إنليل، إنكى» وأصبح كل منهم إلهاً لواحد من أوجه الطبيعة الأربعة «السماء، الأرض، الهواء، الماء»، وهى العناصر الأساسية الأربعة للكون كله.

وهكذا يستمر انتظام الكون بتفاصيله، حيث يظهر الكون السومرى فى النهاية طافياً أو سابحاً فوق بحر هيولى من الماء تمثله الإلهة السومرية الأم «نمو»، أما الكون نفسه فيتكون من خمسة أقسام أساسية هى:

١ ـ العالم الأعلى «Anunna» وهو الفضاء الذى يعلو السماء، حيث تسكن الآلهة فى مقرها الذى يسمى بـ«أنونا» الذى يعنى بالسومرية «بذور الحياة الأميرية» ويصعب تفسيره، ولكنه يشير إلى جموع الآلهة فى السماء والأرض ويعتقد أن هذا الاسم هو أصل تسمية «أنوناكى» الأكدية التى حصرت به آلهة العالم الأرضى ثم العالم الأسفل، و«إيجيجى» الذين يمثلون آلهة السماء أى أن

الـ«أنونا» السومرى كان يضمهما معاً.

٢ ـ السماء «An» وهى سطح صلب على شكل قبة يحيط قرص الأرض الذى تحتها، ويرى السومريون أنها كانت مكونة من مادة القصدير لأن معنى كلمة قصدير بالسومرية هو «معدن السماء».

٣ ـ الفضاء «ليل Lil» وهو الفراغ بين السماء والأرض والذى يمتلأ بمادة اسمها «ليل» أى الهواء والتى تدل على الظلمة، كما أنها تدل على النفس والروح، وتسبح فى هذه المادة الكواكب والنجوم المكونة من نفس مادة الهواء إلا أنها مشرقة ومضيئة.

٤ ـ الأرض «كى Ki» وهى قرص مدور منبسط يطفو على محيط مائى حوله وتحته، وكان السومريون يرون أن هذا المحيط المائى يمتد من الشمال مثل قوس مائى ويسموه البحر الأعلى وهو البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب البحر الأسفل وهو الخليج العربى أما البحر الذى تحت الأرض فهو البحر العميق ويسمى «أبسو» حيث يسكن الإله إنكى.

٥ ـ العالم الأسفل «كور Kur» وهو الفضاء الذى يقع تحت الأرض والأبسو وتعيش فيه آلهة العالم السفلى، وتسكنه أرواح الموتى من البشر على شكل طيور مترية، ويتكون العالم الأسفل من نهر كبير يحيط به اسمه «خيبر» ومن بوابات سبع، وهناك فى وسطه قصر الإلهة أريشكيغال والإله نركال.

نرجح أن تكون هناك أساطير خاصة تدور حول ولادة كل سلالة إلهية أو مجموعة آلهة، وإذا عدنا ونظرنا فى شجرة أنساب الآلهة «فى الفصل السابق» فإننا سنتخيل عدد الأساطير التى وصفت ظهور الآلهة ونشوئها، ولكن الأساطير الثيوغونية «الخاصة بنشوء الآلهة» ليست وفيرة العدد إلى الحد الذى يتناسب مع حجم الولادات الإلهية عن بعضها كما نراها فى الشجرة.

إن الأبوين الكبيرين للآلهة هما «إنليل» و«إنكى» وهناك أسطورتان

ثيوغونيتان، كل واحدة ترتبط بأحدهما:

١ ـ الأسطورة الثيوغونية الإنليلية هى أسطورة «إنليل، وننليل وولادة الإله نانا إله القمر» التى تبدأ بوصف مدينة «نفر» ثم تظهر أم الإلهة ننليل وتسمى «ننبار شكونو وهى الإلهة نصابا إلهة الحبوب والمعرفة» والتى تنصح ابنتها بألا تخلع ثيابها وتسبح فى النهر خوفاً من أن يراها إنليل،، لكن ننليل تفعل ذلك فيراها إنليل ويفتن بها ثم يأمر وزيره «نسكو» ليجلبها له فى قارية، فيجلبها ويضاجعها فى القارب ويبذر فى أحشائها بذرة الإلهة القمر «نانا»، لكن مجلس الآلهة عندما يعلم بذلك يعتبر ذلك جريمة اغتصاب ويقرر نفى الإله إنليل إلى العالم الأسفل.

وحين يذهب الإله إنليل إلى العالم الأسفل تتبعه ننليل وهى حامل بابنها القمر، وعلى بوابة العالم الأسفل يجد إنليل حارس البوابة فيتخذ هيأته ويأمره بأن يتوارى، ويقف هو مكانه كحارس للبوابة، وعندما تجىء ننليل يقنعها إنليل المتنكر بأنها إذا أرادت أن تنقذ بذرة الإله القمر فإنها لابد لها قبول مضاجعته لكى تلد إلهاً يكون بديلاً عن الإله القمر وعند ذاك يمكنها دخول العالم الأسفل دون أن تضحى بولدها فتقبل بذلك.

ويتكرر هذا الأمر لثلاث مرات، وبذلك تلد الإلهة ننليل أربعة أبناء هم الإله القمر نانا، الإله تركال «مسلامتيا» وهو إله العالم الأسفل، والإله ننازو وهو إله الشجرة وإله الطب فى العالم الأسفل والإله اليجبيل وهو إله النار السفلى.

وبذلك يبقى الآلهة الثلاثة الأخيرون فى العالم الأسفل ويصبح من الممكن تحرر الآلهة الثلاثة الكبار إلى العالم الأعلى وهو إنليل وننليلى ونانا، لأن أحكام العالم الأسفل تقضى بأن الآلهة إذا نزلوا إلى العالم الأسفل لا يخرجون منه إلا إذا أتوا ببدائل إلهية عنهم يبقون مكانهم فى العالم الأسفل.

إن هذه الأسطورة تلقى الضوء على كيفية ولادة أربعة من الآلهة المهمين فى

الشجرة الإنليلية وتحمل فى داخلها علاقات سببية دقيقة وهى أسطورة محملة بالرموز والمعانى العميقة.

٢ ـ الأسطورة النيوغونية الإنكية هى أسطورة «إنكى وننخرساج فى دلمون» والتى تبدأ بوصف «دلمون» واستقرار الإله إنكى والإلهة ننخرساج فيها وكيف أن هذه الأرض لم يكن فيها الشر والقبح والشيخوخة والمرض، وكان كل شىء موفراً، إلا المياه العذبة التى تخصب أرضها فتطلب الآلهة من إنكى توفير الماء، ويطلب إنكى من إله الشمس «أوتو» ذلك فيفعل ذلك وتتفجر الينابيع والآبار وتظهر الأهوار وتستصلح أرض دلمون.. وإكمالاً لخصب الطبيعة هذا يقوم الإله إنكى بإخصاب الإلهة ننخرساج التى تلد بعد تسعة أيام تعادل تسعة شهور بدون ألم الإلهة ننسار «سيدة الخضار والنباتات التى تؤكل». وعندما تكبر ننسار ويراها أبوها تتنزه على طول الهور يعجب بها ويضاجعها وينجب منها الإلهة «ننمو» وهى «سيدة النباتات ذات الألياف» وتتكرر الحادثة مع حفيدته الحرام لينجب منها «ننكورا» سيدة الأصباغ التى يضجاعها فينجب منها «أتو» إلهة النسيج التى يضاجعها بعد إغواءات عدة وينجب منها ثمانية أنواع من النباتات التى يقرر إنكى أن يعطيها أسماء فيقوم وزيره «إسمود» بقطع جزء من كل نبتة، وعندما يتذوقها إنكى يطلق على كل واحدة إسماً.

ويبدو أن هذه النباتات المحرمة «بسبب خطايا إنكى المتكررة مع بناته وحفيدته» كانت نباتات سامة. وبسب ذلك تقوم ننخرساج بترك إنكى لمصيره المحتوم، ويفعل السم فعله فى جسد إنكى ويصبح إنكى مهدداً بالموت، وعند ذاك يحزن مجمع الآلهة، لكن الثعلب يذهب إلى إنليل ويطلب منه مكافأة مقابل أن يستطيع إقناع ننخرساج بالعودة، فيعده إنليل أن يزرع له شجرة «كشكانو» وهى شجرة إنكى المقدسة وأن يصبح مشهوراً.

وينجح الثعلب بإقناع ننخرساج فى عودتها إلى إنكى الذى أصبح مريضاً بثمانية أمراض بسبب أكله من النباتات السامة المحرمة، وتبدأ بفحصه وتسأله

ما الذى يؤلمه فيعدد لها ثمانى مناطق فى جسده أمرضتها النباتات الثمانية، فتقوم الإلهة ننخرساج بخلق ثمانى آلهة لكل مرض فى الأعضاء السابقة، وهكذا يشفى الإله إنكى من أمراضه، ثم يقوم بتقرير مصير هذه الآلهة الثمانية لمهمات أخرى بالإضافة إلى دورها الطبى والعلاجى الذى أثبت جدواه وهذه الآلهة هى:

١ ـ آبو: أشفى مرض الراس وأصبح ملك النباتات.

٢ ـ ننسيكلا: أشفت مرض الفك وأصبحت إلهة «مكان» أى عمان والآلهة الحامية لـ«دلمون».

٣ ـ ننكيرى: أشفت الأنف وأصبحت زوجة الإله ننازو فى العالم الأسفل.

٤ ـ ننكاسى: أشفت الفم وأصبح إلهة الشراب أو «الإلهة التى تشبع شهوة القلب».

٥ ـ نازى: أشفت الحنجرة وأصبحت زوجة الإله نندارا.

٦ ـ آزيمو: أشفت الذراع وأصبحت زوجة الإله ننكشزيدا.

٧ ـ ننتى: أشفت الضلع وأصبحت إلهة الشهور، وكانت هذه الإلهة مصدر الأسطورة التوراتية حول حواء وخلقها من الضلع لأنها إلهة الضلع والإلهة التى تحيى «حواء» فى الوقت نفسه.

٨ ـ إينشاج: أشفى المتون وأصبح إله دلمون.

إن هذه الأسطور تلقى الضوء على علاقة إنكى وننخرساج، كما أنها تصف السلالة النباتية للإله إنكى.. وتتضمن بعض رموزها إشارات عميقة تخص أسرار إنكى.

إن أساطير خلق الإنسان «الأنثربوغونية» السومرية متنوعة وهى إشارات لمدى واسع من التصور المثولوجى حول نشوء الإنسان وأصله.

ولعل الأنثربوغونيا «خلق الإنسان» الطينة المائية التى تجسدها أسطورة «إنكى وننمو وننماخ وطين الأبسو» هى الأكثر شهرة بينها، حيث تصف هذه الأسطورة الآلهة الصغار العاملين وهم يضجرون من العمل والإرهاق فيذهبون إلى الإله إنكى عساه بجد حلاً لمعاناتهم فيقوم الإله إنكى بخلق الإنسان وينصح أمه الإلهة «نمو» بأن تشرف هى على هذا الخلق وتساعدها فى ذلك الإلهة ننماخ، أى أن الإله إنكى قرر شكل الإنسان وقرر منحه شيئاً من حكمة إنكى أما ولادته فتركها أولاً لإلهات الولادة السبع وللإلهة ننماخ والإلهة نمو.

وفى حفلة إلهية كبيرة تقوم الإلهة ننماخ بصنع ستة أنواع من الإنسان، لكن إنكى عندما فحصهم وجدهم مشوهين فقرر مصائرهم وجعلهم فى خدمة الآلهة والملوك، ثم قام إنكى بصنع مخلوق بشرى اسمه «أومول» ومعناه «يومى بعيد» وكان يعانى من عدة عاهات أيضاً ليحرج «ننماخ» فى كيفية تعيين مصيره، وتفشل «ننماخ» فى هذا.

ويبدو أن هذه الأسطورة تبين تنافس إنكى وننماخ فى خلق الإنسان وتعيين مصيره، ولكن مادة الخلق كانت من الطين الذى فى مياه الأعماق «الآبسو»، وربما أشارت فكرة التشويه إلى نقص الإنسان الأول ومرضه وعدم تكامله.

أما الأسطورة الأخرى فتوضح الأصل النباتى للإنسان، حيث يقوم الإله إنليل بوضع بدايات البشرية «أى بذورها» فى شقوق الأرض وبعدها بدأ البشر بالظهور من هذه الشقوق مثل الحشيش، ونرجح أن تكون أصول هذه الأسطورة بعيدة وربما تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد، عندما كان أجداد السومريين فى المناطق الشمالية من وادى الرافدين حين تعرفوا «مع نهاية عصر النيولويت» على أهمية الهواء والأمطار فى عمليات الزراعة ولذلك اكتسب الإله إنليل «الهواء» آنذاك أهمية استثنائية فى خلق العالم والإنسان.

وهناك مقدمة التى تشير إلى الأصل الحيوانى للإنسان، فقد خلق على جبل الآلهة «آن ـ كى» الإنسان مثل حيوان يمشى على يدين ورجلين.

«البشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز بعد

ولم يعرفوا ارتداء الملابس

وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم

وكانوا كالخراف يعلفون الحشيش

ومن القنوات يشربون الماء».

وتُصور لنا هذه الأبيات الإنسان كأنه حيوان، لكن الآلهة تقوم بعد ذلك بإنزال الإنسان من هذا الجبل الكونى إلى الأرض ليتعلم كيف يكون قادراً على الانفصال عن الحيوانات والاستفادة منها.

أما أسطورة الأصل الإلهى للإنسان فتجسده أسطورة الآلهة لمكا، حيث تشير إلى أن الآلهة بعد أن أتعبهم العمل قال لهم الإله إنليل ماذا تريدون فأجابوه: بإنهم يريدون ذبح آلهة لمكا «وهى آلهة العمل» وفى منطقة «أوزموا» فى «نفر» ومن دم هذه الآلهة يصنع الإنسان ليقوم بالعمل بدلاً عن الآلهة، وتشير هذه الأسطورة إلى أن آلهة العمل هذه آلهة ثانوية إضافة إلى أنها تعمل لخدمة الآلهة الكبار وبذلك يحمل دمها فكرة خدمة، الآلهة حيث سيكون الإنسان الذى يخلق من هذه الدماء مشابهاً لها. وبذلك تحل مشكلة عمل الآلهة وتعبهم فالإنسان هنا مجرد خادم وعامل من أجل الآلهة. ويرجح أن تكون هذه الأسطورة ذات أصول أكدية.

وهناك إشارات إلى أن السومريين عرفوا الأنثروبوغونيا اللوغوسية، أى أن الإنسان خلق بمجرد أن نطق الآلهة وقالوا «ليخلق الإنسان» دون مواد أولية كالطين والماء والبذور والدم، حيث ترد فى إحدى قصص كلكامش السومرية عبارة «بعد أن تعين اسم الإنسان» وهناك إشارات أخرى، وهذا يعنى أن فكرة الخلق من الكلمة تكمن فى التراث السومرى عميقة قصية.

٢ـ أساطير تنظيم الكون
Myths of Organization

أـ أساطير تنظيم الكون المرتبطة بالإله «إنليل»

ينضوى تحت هذا النوع من الأساطير ما يخص العمل والفصول وتوزيع وظائف الماشية والحبوب ورحلة القمر إلى نفر حيث مكان أبيه.

فى أسطورة الفأس يهدى الإله «إنليل» الفأس للشعب السومرى هدية ليعملوا بها ويصلحوا أرضهم ويبنوا مدنهم.

«الفأس والسلة تبنى المدن

الدار الثابتة الأركان بنتها الفأس

الدار الثابتة الأركان أنشأتها الفأس».

وفى أسطورة الصيف الشتاء خلق إنليل «إيميش» ليرعى الصّيف و«إنتين» ليرعى الشتاء وصار إيميش يسمى راعى الآلهة وإنتين فلاح الآلهة، لكن تنافساً حصل بينهما فاحتكما إلى الإله إنليل الذى فضلً الفلاحة والشتاء على الرعى، والصيف.

وفى أسطورة مشابهة يخلق إنليل «لاهار» النعجة ويخلق «أشنان» الغلة والحبوب ليخدما حاجات الآلهة لكنهما يتنافسان ويحتكمان إلى إنليل فينحاز إلى أشنان إلهة الحبوب على لاهار إلهة النعجة.

وينظر لهاتين الأسطورتين على أنهما من أدب المناظرات السومرى «أدمندوكا»، حيث يتضمن حوارهما مفاخرة وتفاضلاً بينهما.

وفى أسطورة رحلة الإله نانا «القمر» إلى نفر يظهر الإله القمر وهو يستعد لزيارة أبيه الإله إنليل فى مدينة «نفر» فيحمل فى مركبة الهلالى الشكل أصناف الأشجار والنباتات والحيوانات ويتوقف خلال هذه الرحلة فى خمس مدن يقوم فيها الإله الحارس لكل مدينة باستقباله والترحاب به حتى يصل إلى مدينة نفر فيفتح له بواب إنليل بيت إنليل ثم يلتقى بأبيه ويطلب منه أن يعطيه فى النهر المياه وفى الحقل القمح وفى الأهوار العشب والقصب وفى بستان النخيل ومزرعة العنب العسل والشراب وفى القصر العمر المديد، فيقوم الأب بإعطائه ما أراد ثم يعود الإله القمر إلى مدينته «أور».

ب- أساطير تنظيم الكون المرتبطة بالإله «إنكى»

الأسطورتان الأساسيتان فى هذا المحفل هما أسطورة تنظيم سومر وتعيين الآلهة فيها وأسطورة ترتيلة إريدو.

فى أسطورة تنظيم سومر يقوم الإله «إنكى» بإظهار قدرته على إخصاب الأرض والنباتات والحيوانات فى الطبيعة، وعندما يصل إنكى إلى سومر يقرر مصيرها كما يلى:

«يا سومر: أيها البلد العظيم، يا أعظم بلد فى العالم

لقد غمرتك الأضواء المستديمة، والناس من مشرق الشمس إلى مغربها، هم طوع شرائعك المقدسة

إن شرائعك سامية لا يمكن إدراكها

وقلبك عميق لا يمكن سبر أغواره

إن.. كالسماء لا يمكن بلوغها

الملك الذى تلده يزين نفسه بالحلى الدائمية

الرب الذى تلده يضع التاج على الرأس

ربك هو رب معظم، مع «آن» يجلس فى المكان المقدس فى السماء

الملك هو الجبل العظيم، هو الأب «إنليل»

بعدها ينظم إنكى مدينة «أور» التى كانت عاصمة سومر فى مراحلها الأخيرة، ثم يقوم الإله إنكى بتنظيم وتقرير مصائر مجموعة كبيرة من البلدان والمواقع والأشياء، فيبارك ملوخا، ويعين الإله «أنبيلولو» لنهرى دجلة والفرات ويملأهما بالأسماك، ويُعيِّن الإله «سيرار» حامياً لمياه الخليج العربى والإله «إشكور» حامياً للقلب الفضى فى السماء، ويعين الإله أنكيمدو مسؤولاً عن المحراث والحقل والخضار، ويعين الإلهة «أشنان» مسؤولة عن الغلة والحبوب، ويعين الإله «كبتا» مسؤولاً عن الفأس وقالب الآجر ويعين أدوات البناء «كوكن» ويعين الإله «مشدما» بناء الإله إنليل مسؤولاً عنها، ويعين «سموكان» ويعين الإله «مشدما» بناء الإله إنليل مسئولاً عنها، ويعين «سموكان» ملك الجبل مسؤولاً عن نباتات وحيوانات السهول، ويعين «دموزى» مسؤولاً عن الاسطبلات وزرائب الماشية.. إلخ.

أما الأسطورة الثانية فهى رحلة إنكى من إريدو إلى نفر وتسمى «ترتيلة أريدو» التى تبدأ بمديح الإله إنكى وكيف أنه بنى بيته من الفضة وحجر اللازورد فى مدينته «إريدو» وحلاه بالذهب، ولكنه يحتاج بعد ذلك إلى مباركة الإله الأعظم إله سومر «إنليل» الموجود فى نفر، ولذلك يهيىء قاربه للسفر ويخرج هو من مياه الأبسو التى فيها مقره المسمى ببيت الغور «أى ـ أنغورا».

وتصف الأسطورة هذا البيت المبنى على ساحل مدينة إريدو بالكثير من الجمال والروعة:

«لا يقوى أحد على متراسك

قفلك أسد مرعب

عواميد سقفك ثور من السماء! تزيا بشكل وقاد

ستائرك من اللازورد، حلين للعواميد

... ثور متوحش، رافع قرنيه

مدخلك أسد يعترض الناس،

كساء بابك أسد مسلط على الناس».

ثم يصل الإله «إنكى» إلى نفر ويجد «إنليل» وقد أقام حفلاً فخماً له بمناسبة بناء بيته ووصوله إلى نفر ودعا إليه الآلهة العظام ويشرب الآلهة نخب إنكى وبيته ثم يقوم إنليل بإطراء إنكى، وقد قام البروفسور أ. فالكنشتاين بتحليل هذه الأسطورة ورموزها وما تحتويه من مضامين.

■ ■ ■

٣ ـ أساطير تدمير الكون

Myths of Destrucation

فى أعماق النتاج الأسطورى لأى شعب حى نلمح فكرة الأدوار الكونية وهى تعبر عن نفسها فى أساطير الخلق ثم أساطير بناء الكون ثم أساطير نهاية وتدمير الكون ثم إعادة خلقة من جديد.

وهذا الزمن الدائرى الذى يتجدد دورياً إلى ما لا نهاية يحتوى بعد بدايته على «العصر الذهبى» الذى يكون قريباً من «العصر المثالى» وهو زمن التكوين الأول وبعد العصر الذهبى نرى العصر البنائى الذى يتضمن استعادات منظمة للعصرين المثالى والذهبى لإنعاش لحظات التاريخ المتحضرة التى تستفد طاقتها مع الزمن لتختتم الدورة الكونية بعصر التدمير الذى يكون عن طريق الطوفان أو الحريق أو انفجار العوالم الباطنية كالعالم الأسفل.

ولعل أنسب ما نصف به هذا المسرى هو الصفة الدائرية التى يتصف بها الزمان الكونى، والحق أننا نشهد تكراراً لا نهائياً للظاهرة نفسها «خلق ـ خراب ـ خلق جديد».

وإذا كنا فى القسم الأول قد عالجنا أساطير الزمن المثالى وهى أساطير الخلق والتكوين، وفى القسم الثانى قد عالجنا أساطير الزمن الزهبى وهى أساطير البناء، ففى هذا القسم سنعالج أساطير التدمير التى نرى أنها فى التراث السومرى تنقسم إلى قسمين أساسيين هما:

ستائرك من اللازورد، حلين للعواميد

... ثور متوحش، رافع قرنيه

مدخلك أسد يعترض الناس،

كساء بابك أسد مسلط على الناس».

ثم يصل الإله «إنكى» إلى نفر ويجد «إنليل» وقد أقام حفلاً فخماً له بمناسبة بناء بيته ووصوله إلى نفر ودعا إليه الآلهة العظام ويشرب الآلهة نخب إنكى وبيته ثم يقوم إنليل بإطراء إنكى، وقد قام البروفسور أ. فالكنشتاين بتحليل هذه الأسطورة ورموزها وما تحتويه من مضامين.

■ ■ ■

أ ـ الطوفان «أسطورة الدمار القادم من العالم الأعلى»

عُثر على النص السومرى للطوفان فى مدينة «نفر» وهو بحالة مهشمة فبعد أسطرة السبعة والثلاثين الأولى الممحوة يظهر الإله «إنكى» وهو يريد إنقاذ البشرية من الدمار، ثُمَّ يتطرق النص إلى خلق الإنسان على يد الإلهين آن وإنليل والإلهة ننخرساج، ثم تأتى فجوة، بعدها يتحدث النص عن نزول الملكية من السماء إلى الأرض وتوزيع السلطات بين الآلهة ليحكم كل إله فى مدينة معينة ويأتى ترتيب المدن متفقاً مع لائحة الملوك والمدن السومرية قبل الطوفان مع ذكر اسم إله المدينة.

ويبدو أن مجلس الآلهة اجتمع لسبب غير واضح وقرر هلاك ذرية الإنسان عن طريق الأعاصير والأمطار التى ستسبب الطوفان وأنه لابد من إسقاط الملوكية التى منحها الآلهة للإنسان. وكانت هذه الملوكية قد استقرت فى مدينة شروباك فى ذلك الوقت والتى كان يحكمها ملك حكيم اسمه «زيوسدرا» ومعنى اسمه «الذى جعل الحياة طويلة»، فيقوم الإله إنكى بالاتصال خفية بزيوسدرا «ربما عن طريق الحلم» ويخبره بقرار الآلهة تدمير الأرض عن طريق الطوفان وينصحه بصناعة سفينة تنقذه مع أهله ومن يحب.

ثم يأتى الطوفان ويدمر كل شىء.

«وجاءت كل الأعاصير والعواصف المدمرة

واكتسحت الأعاصير العواصم

وبعد أن اكتسحت الأعاصير البلاد سبعة أيام وسبع ليال وجعلت الأعاصير المدمرة السفينة تتأرجح فى المياه العالية «وعندما انتهى الطوفان» بزغت الشمس فأنارت الأرض والسماء

«وعندئذ» فتح زيوسدرا كوة فى الفلك

فدخلت السفينة بأشعتها إلى الفلك

فركع زيوسدرا أمام إله الشمس

ونحر الملك «زيوسدرا» أعداداً كبيرة من الثيران والأغنام».

بعدها يركع زيوسدرا أمام الإلهين آن وإنليل اللذين يقومان بمكافأته وإعطائه الحياة الأبدية أى «الخلود» ويسكنانه فى بلد على البحر، فى «دلمون» وهو الفردوس الإلهى الذى عرفناه.

إن النسخة البابلية للطوفان تعتمد جوهرياً على قصة الطوفان السومرية هذه لكن تفاصيلها تزداد وتتشعب «وهو حال أغلب الأساطير البابلية المبنية على أصل سومرى».

ب ـ التنين «أسطورة الدمار الصاعد من العالم الأسفل

الدمار الذى يأتى من العالم الأسفل لا يشبه ذلك الذى يأتى من العالم الأعلى لسببين، الأول: هو أن دمار العالم الأعلى دمار شامل دورى يبدو وكأنه يخضع لإيقاع كونى هائل تقرره الآلهة «الأدوار الكونية». أما دمار العالم الأسفل فهو دمار جزئى لا إيقاع له ولا يأتى بصورة منتظمة وتنفذه تنانين وعفاريت وشياطين كبرى تقبع فى العالم الأسفل.

أما السبب الثانى: فهو أن الدمار الأعلى يتحول إلى نوع من نهاية عالم قديم بال وبداية عالم جديد نشيط، فهو لحظة موت وحياة فى نفس الوقت، أما الدمار الأسفل فلا يشير إلى ذلك بل يدل على وهلة ارتباك أو فوضى فى قوانين العالم ولحظة عدم توازن، وتخلخل وترنح سرعان ما تعود بعدها الحياة إلى سابق عهدها وتواصل ماضيها، فهو أشبه بالإنذار وقرع أجراس الخطر.

وهناك أسطورتان أساسيتان حول التنين السومرى وهما:

١ ـ التنين كور وأساطيره مع الآلهة:

يوصف التنين «كور» بإنه كائن افعوانى كبير يعيش فى قعر العالم الأسفل الذى كان متصلاً بمياه البحر الأولى، ويبدو أن هذا الكائن كان يسيطر على مياه هذا البحر المالحة أو المعدنية. ولذلك فإنه عندما كان يقتل ترتفع هذه المياه إلى الأرض ويتوقف انسياب المياه العذبة ويصيب الأرض القحط حتى تقوم الآلهة بتدبر الأمر وإعادة الأمور إلى نصابها، وكان العالم الأسفل بأكمله يسمى «كور» أيضاً.

إن أسطورة كور مع إنكى التى تأتى فى مقدمة ملحمة كلكامش وانكيدو السومرية حول العالم الأسفل، والتى تبدأ بخلق الكون وكيف أخذ كور الإلهة أرشكيغال غنيمة واختطفها إلى العالم الأسفل، لكن الإله إنكى جهز قاربه وتبعه فقام كور برمى الحجارة الصغيرة والكبيرة عليه.. ويبدو أن صراعاً بينهما قد حصل، لكننا لا نعرف نتيجة هذا الصراع رغم أن الأساطير الأخرى تخبرنا بوجود الإلهة أرشكيغال فى العالم الأسفل وزواجها من الإله نركال الذى ولد من ننليل فى العالم الأسفل.

الأسطورة الأخرى حول «كور» و«ننورتا» وهى أسطورة طويلة تتألف من أكثر من «٦٠٠» سطر، حيث تبدأ بتراتيل دينية ثم يقوم «شارو» وهو سلاح الإله إنليل المتجسد على شكل مساعد أو وزير بمخاطبة ننورتا ويمجده أو يحثه على مهاجمة «كور» وقتله، فيستعد ننورتا للقاء «كور». وعندما يلاقيه ينهزم أمامه كالطير.. لكن «شارو» لا يهدأ فيقوم بتحريض «ننورتا» ثانية بعد أن يحسن استعداده فيلاقيه ثانية ويهاجمه ويقوم بذبحه.

وبعد أن يموت كور «الذى كان يسيطر على المياه الأولى» تفقد السيطرة على هذه المياه فترتفع بعنف العالم الأسفل إلى سطح الأرض، وبسبب ذلك

يتوقف انسياب المياه العذبة إلى الحقول والبساتين ويدب اليأس فى قلوب آلهة الأرض والعاملين فيها والمسؤولين عن إروائها وتهيئتها للزراعة ويصبح نهر دجلة ساقية ضحلة لا تحمل المياه النافعة.

يتصدى الإله «ننورتا» لهذه المشكلة فيضع أكواماً من الحصى على جثة «كور» ويكدسها حتى تتحول إلى ما يشبه الجدار الذى يشكل سداً يصد تدفق المياه القوية من الأسفل، وترتفع نتيجة لذلك المياه النقية الصافية التى حجبتها مياه «كور» القذرة، فيجمع «ننورتا» المياه العذبة ويسلطها على دجلة فترتوى المزارع والحقول وتنتج الأرض الغلة والحبوب وثمار النخيل والأعناب وتتكدس فى الأهراء والتلال، ويسبب هذا راحة الآلهة فتقوم الإلهة ننخرساج «ننماخ» التى تبدو وكأنها أم ننورتا بزيارته ورؤية ما فعل، ويتفاخر ننورتا بأعماله البطولية ويعين ننخرساج ملكة على الجبل الذى صنعه.

لا شك أن هذا الأسطورة تعكس محاولات السومريين لكبح صعود الملوحة إلى الأرض، وهى بذلك تشير إلى مشكلة تدمير الخصوبة والحياة على الأرض أيضاً.

أما أسطورة «كور وإنانا» فهى واحدة من أساطير إنانا وعلاقتها بالعالم الأسفل، حيث تقرر إنانا مصارعة التنين كور رغم تحذير الإله آن لها لكنها تتصدى له وترميه بحربته الطويلة وتضرم به النار وتغرس فأسها البرونزى برأسه وتقتله ثم تطأه بقدميها وتحصل على لقب «قاهرة كور».

هذه الأساطير الثلاثة تظهر صراع الآلهة مع الثعبان المائى للعالم الأسفل الذى يرقد على المياه الهيولوية المالحة الأولى، هى تعبر عن صراع ثلاثة آلهة يمثلون بنسب مختلفة صور الخصب، فالإله إنكى إله الخصب والحياة والإله ننورتا إله العاصفة الذى له علاقة بالمطر والإلهة إنانا أخذت صورة الخصب

أيضاً، فهى أساطير صراع بين الملوحة والعذوبة وبين الجدب والخصب.

٢ ـ التنين أساج ونورتا:

تكاد هذه الأسطورة أن تكون نسخة محورة من أسطورة «كور وننورتا»، حيث يظهر لنا «أساج» بمثابة الوزير المساعد لـ«كور» وبذلك فإنه يقوم بالقتال نيابة عنه، ومثل ذلك يظهر «شارو» الوزير المساعد والسلاح القوى لـ«ننورتا» والذى يحثه على قتال «أساج» ويقوم الصراع بين أساج وننورتا فيهزم ننورتا أولاً ثم ينتصر على أساج، فتفيض مياه كور من مكانه ويقيم ننورتا الجبل الحجرى كسد بين هذه المياه وبين سومر، لكن هذه الأسطورة تخلو من مباركة ننخرساج لعمل ننورتا، وتختتم الأسطورة بمباركة ننورتا لأعماله البطولية ومدحها.

■ ■ ■

٤ـ أساطير إنانا

Myths of Inanna

تنفرد إنانا «إلهة الحب والجمال وسيدة كوكب الزهرة وإلهة الحرب» بعدد كبير من الأساطير والقصائد والتراتيل.. التى تشكل صفحة مهمة من المثولوجيا والأدب السومرى.

ويمكننا تقسيم أساطير «إنانا» السومرية إلى خمسة أقسام على أساس صلة إنانا بـ«الآلهة، دموزى، ملوك سومر، الإنسان، العالم الأسفل، حيث يوفر لنا هذا التقسيم نوعاً من التناسق مع موضوعات إنانا التى تحتاج برأينا إلى كتاب منفصل.

أ ـ إنانا والآلهة العظام

كانت علاقة إنانا بالإله «آن» مثار جدل بين باحثى السومريات وقد اتفقت الآراء على أن إنانا هى ابنة الإله نانا «القمر»، ولكنها بسبب المكانة العظيمة التى حازت عليها ارتبطت بالإله آن فى بعض الأساطير كزوجة أو عشيقة، فقد روت أسطورة مدونة باللغتين السومرية والأكدية اسمها «السيدة المتعالية التى هى وحدها العظيمة»، إن الإله آن رفع إنانا، على ضوء طلب الآلهة العظام، إلى مرتبة قرينته «أنتوم» المعادلة لرتبته هو وجعل منها نجمة السماء «الزهرة» وزودها بالإشارات الإلهية المناسبة، ثم منحها الإله إنليل السيادة على الأرض. ويبدو أن الإلهة «إنانا» تحالفت، برغم ذلك، مع أخيها إله الشمس «أوتو» ومع أبيها إله القمر «نانا» وكونوا ثالوثاً كوكبياً مضاداً لإله السماء «آن»، لكنها عندما شعرت بفشل محاولتها تراجعت عن ذلك ووقف فى نهاية الأسطورة مع «آن» وهى تحلم بسيادة السماء.

أما الإله إنليل فلا ترتبط الإلهة إنانا معه بأسطورة معينة سوى ما ذكر فى الأسطورة السابقة، ولكنها ترتبط معه بصلة نسب واضحة فهى حفيدته فى شجرة الأنساب.

ولعل أشهر أسطورة لإنانا مع الآلهة العظام هى أسطورتها مع الإله إنكى «أسطورة النواميس المقدسة ـ مى» ويرى صموئيل نوح كريمر أن هذه الأسطورة «تتسم بأهمية كبيرة بالنسبة لدراسة تاريخ التطور الحضارى، ذلك لأنها تضمنت قائمة ورد فيها ما يزيد على مئة مرسوم مقدس لتنظيم جميع المنجزات الثقافية التى وضعها الكتاب والمفكرون السومريون، وهذه القائمة على ما تضمنته من تحليل سطحى، قل أو كثر، فإنها تؤلف السدى واللحمة فى نسيج الحضارة السومرية».

تبدأ الأسطورة بتطلع إنانا لمزيد من الرخاء والرفاة لمدينتها «أوروك» وتقرر الذهاب إلى مدينة «إريدو» وهى الموطن القديم للحضارة السومرية ومدينة الإله «إنكى» وتذهب إلى الآبسو موطن إنكى فيها، حيث يراها إنكى هناك ويقف مذهولاً بجمالها ويستدعى رسوله «إسمود» ويأمره بأن يقدم لها كعك الشعير مع الزبد والماء المبرد وخمرة التمر فيفعل إسمود ذلك، ويجلس الإلهان مع بعضهما ويسكران، وتحدث إنانا الإله إنكى إن كان يستطيع تسليمها النواميس الإلهية المقدسة فيسلمها لها واحدة بعد الأخرى، بعد أن يغرق فى سكر الخمرة وسكر مفاتنها.

وتأخذ «إنانا» النواميس المقدسة «مى» وتضعها فى زورقها المسمى «زورق السماء» وتبدأ بالرحيل على ساحل إريدو إلى أوروك وحين يفيق إنكى من سكرته يعرف ما حصل فيأمر وزيره «إسمود» بأن يتبعها على مركب ويأخذ معه مخلوقات الـ«إينكم» ليعودوا بالنواميس، وحين يهجم هؤلاء على زورقها تأمر إنانا وزيرتها «ننشوبر» التى تدعوها «ملكة الشرق» بإنقاذ الزورق من هذه المخلوقات فتطلق ننشوبر صرخة مدوية تتراجع فيها هذه المخلوقات وتنهزم،

وتمضى إنانا بزورقها مارة بعدة موانئ بين إريدو وأوروك ويجهز إنكى خمس حملات أخرى تقودها كائنات «أورو، لاخاما، كوكال كال، أونونون، أتورنكال» وتهزمهم ننشوبر حتى يصل الزورق بسلام إلى بوابة ننكولا فى أوروك فتعم أوروك الأفراح، ويعلم إنكى بذلك فيرسل وزيره إلى أوروك ثم يذهب هو بنفسه إلى أوروك ليبارك حصول إنانا على نواميس الـ«مى» التى تفرغ من زورق إنانا لتحتفظ بها أوروك، ويؤاخى إنكى بين إريدو وأوروك.

وتشير هذه الأسطورة إلى انتقال الحكم والملوكية من إريدو إلى أوروك.

إن المتفحص فى علاقة إنانا مع الآلهة العظام «آن، إنليل، إنكى» يلاحظ طموح الإلهة إنانا فى الحصول على مزيد من السلطات الإلهية ورغبتها فى السيطرة على سلطات السماء التى يمثلها «آن» أو سلطات السيادة على الأرض التى يمثلها «إنليل» أو سلطات النواميس الإلهية المقدسة التى يمثلها «إنكى»، ويمكننا أن نتخذ من هذه الملاحظة مفتاحاً لحل السبب الذى دعا إنانا إلى غزو العالم الأسفل والهبوط إليه، وهو اللغز الذى حير العلماء والباحثين، ويطيب لنا أن نقول إن محاولات إنانا فى السيطرة ونزعاتها الطموحة، بل وطمعها فى الهيمنة على كل شىء، كانت وراء هبوطها للعالم الأسفل، فبعد أن غزت السماء والأرض وسرقت النواميس المقدسة، وكادت تفشل فى كل محاولاتها كان لابد أن تفكر فى غزو العالم الوحيد الذى بقى موحداً أمامها، ولذلك غزته طمعاً فى السيطرة عليه، وليس حباً فى إنقاذ دموزى أو بعث الأموات أو تحرير سجناء العالم الأسفل كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين.

وهكذا بعد أن هددت ملك الآلهة العلويين العظام ذهبت لتهدد ملك إلهة العالم الأسفل «أرشكيغال» وهو ما سنبحثه فى أساطير إنانا والعالم الأسفل.

ب ـ إنانا ودموزى

شغلت أساطير إنانا ودموزى العالم القديم بأكمله، وكانت نواة لكل أساطير

الحب والجمال عند الأمم الأخرى، وكان للعلاقة الخاصة بين إنانا ودموزى فى وجهيها المفرح والمحزن الأثر الكبير فى شيوع قصص الحب التراجيدى والداعر عند أشهر عشاق التاريخ والأسطورة فى العالم القديم، بل أننا لنظن أن الطقوس التى رافقت أسطورة إنانا ودموزى كانت فى وجهها الفرح والنشوان أصلاً لفن الدراما الكوميدية وفى وجهها المحزن والكارثى أصلاً لفن الدراما التراجيدية، وهو ما حصل فى اليونان استمراراً لتقاليد الحب الداعر والدامى التى بدأت فى سومر مع إنانا ودموزى، والتى كانت مستمرة منذ النيوليت والكالكوليت حيث تظهر أختام عثر عليها فى تبه كورا بعض مظاهر الزواج المقدس.

ولعلنا نمسك سراً ونحن نعثر على الجوهر الخفى الذى دعا إنانا لتوريط دموزى فى الذهاب إلى العالم الأسفل بل ولدفعه إلى مصيره المحتوم كما تقول الأسطورة، وذلك إن تفحصنا لشجرة الآلهة السومرية دعانا للتوقف عند حالة نادرة وحيدة وهى زواج إله ذكر من سلالة إنكى «هو دموزى» لإلهة أنثى من سلالة إنليل «وهو ما ناقشناه سابقا» فى حين أن القاعدة هى زواج بنات إنكى من ذكور إنليل سواء كانوا أبناءه أم أحفاده.. لأن سلالة إنليل كانت بصفة عامة ذات نزعة ذكورية ولابد للذكور فيها من الزواج من إناث أغلبهن من سلالة إنكى، أما زواج إنانا الإنليلية النسب من دموزى ابن إنكى فحالة وحيدة.. كان لابد لها أن تنتهى بمصير مريك، وقد تحقق ذلك عندما قادت إنانا دموزى إلى العالم الأسفل، وبسبب من جرمه العظيم ومن طبيعة دموزى التى تشوب ألوهيتها صفات بشرية لم يستطع هذا الإله التحرر من العالم الأسفل أو أنه تحرر لمدة بسيطة ليعيد إيقاعاً دورياً فى الهبوط والصعود إلى العالم الأسفل.

تنقسم أساطير إنانا ودموزى إلى قسمين رئيسيين الأول مفرح ونشوان يعالج قصة الحب بينهما ثم زواجهما المقدس والثانى حزين وتراجيدى يعالج قصة موت دموزى ونزوله إلى العالم الأسفل.

١ ـ أساطير وقصائد الحب بين إنانا ودموزى:

يمكننا ترتيب هذه الأساطير والقصائد حسب تسلسل المعنى الذى تقدمه، ولذلك نرى أن القصيدة الأسطورية التى تدور حول المنافسة بين دموزى «الإله الراعى» وإنكمـدو «الإله الفـلاح» لخطب ود إنانا يمكن أن تكون فـاتحـة هذه الأساطير والقصائد.

وتبـدأ هذه القطعة حين يخاطب الإله الشمس «أوتو» أختـه «إنانا» حـول الكتـان الذى بذر بذوره فى الأرض، وكيف أنه عندمـا يشـمـر سـيجلبـه لهـا من الثمرة فتسـأله إنانا «أخى، بعد أن تجلب لى الكتان من سيحلجه لى» وتستمـر سلسلة الأجوبة والأسـئلة بينـهمـا حتى يقول لهـا أوتو بأنه سـيجلب لها مـلاءة العرس، فتسأله من سينام معها بعد ذلك، فيقول لها إنه دموزى هو الذى سينام معها فترفض ذلك وتقول له إن إنكمدو هو رجل قلبها فينصحها بأن دموزى هو الأفـضل، وتبـدأ سلسلة حوارات مـفـاضلة بين دمـوزى وإنكمـدو أمـام إنانا حـتى يتأكد لها بأن دموزى هو الأجدر، ويكاد دموزى وإنكمدو يقتتلان، ثم يتصـالحان ويدعـو دموزى إنكمدو إلى حفلة العرس. ويعد دموزى إنانا أن يجلب لها هدية العرس من حنطة وعدس وغيرها.

وفــى قصيدة أخرى تظهر إنانا وهى تتفـاخر بأصلها وتهين دموزى فيقول لها دموزى:

«إنانا كُفّى عن المساجلة

إن أبى، إنكى، ليس أدنى محتداً من أبيك نانا

وأمى سرتور ليست أدنى محتداً من أمك ننكال

اختى كشتن أنا مثل أختك

فلنتفاهم يا مليكة القصر».

ثم يذوب الخلاف بينهما وتطلب منه أن يملأ سطح أرضها وآبارها بالماء وأن يحرث الحجر الذى تلف به جسدها المقدس، ثم تتغزل به وخصوصاً بلحيته اللازوردية.

فى قصيدة أخرى وبعد أن تتهيأ أسباب اللقاء كاملة بينهما تختار إنانا دموزى الإلوهية البلاد، وهذا يشير إلى تحول مهم فى وظيفة دموزى، فقد كان إلهاً للرعى والإسطبلات ولكنه أصبح إلهاً لأوروك، وبذلك تحولت مهنته من راعى الأغنام والأبقار إلى راعى الناس وملكهم.

وفى قصيدة أخرى تلتمس إنانا موافقة أبيها القمر «نانا» فبعد أن تتزين إنانا بكامل زينتها وتضع عليها الحلى والأحجار تخرج لترى دموزى واقفاً لها على باب حجر اللازورد «باب جيبار» فترسل عند ذاك رسالة إلى أبيها تخبره فيها بأنها تريد الزواج من دموزى:

«سوف آخذ إلى هناك رجل قلبى

سوف آخذ إلى هناك أما أشمو كال أنا ،

سوف يضع يده بيدى

ويضم قلبه إلى قلبى

وضعه اليد باليد ـ ينعش الفؤاد

ضمه القلب إلى القلب ـ لذته بالغة الحلاوة».

ثُمَّ فى قصيدة أخرى، تلتمس إنانا موافقة أمها ننكال بعد أن يأتى دموزى إلى بيتها حاملاً هداياه من اللبن والقشدة والجعة ليطلب يدها، فتبدى إنانا تردداً فى قبول مجيئه لكن أمه تحثها على الإذن له بالدخول، ثم تقوم الإلهة إنانا بالتحضير لاستقبال دموزى فتقوم بتزيين جسدها وملابسها وتفتح له الباب وتعانقه.

وهناك قصيدة تصف اللقاء السرى بين إنانا ودموزى، حيث يختليان سراً تحت ضوء القمر، ولأنها إلهة لعوب، فإنها فجأة تحاول التملص منه وتطلب أن تعود إلى البيت خوفاً من أمها!!، لكن دموزى يعرف كيف يتعامل معها فيقول لها «سوف القنك كيف تكذب النساء» وينصحها بأن تقول لأمها بإنها كانت تمرح مع صديقتها بالغناء والرقص. وتستمر القصيدة وتتحدث عن جارتها التى تتحدث لمصلحة دموزى أمام أمها، وكيف أنها سوف ترش الأرضية لاستقباله، وكيف أنها قالت بإن دموزى يليق بحضن إنانا المقدس، وتطلق الجارة نبوءتها بأن دموزى سيصبح صهر نانا.

وهناك عدد من قصائد وأناشيد الزواج المقدس بين إنانا ودموزى يصل عددها إلى اثنتى عشرة قصيدة تمثل أعذب وأقدم قصائد الحب فى التاريخ القديم، وهى مازالت إلى يومنا هذا محتفظة بعذوبتها وطراوتها وتدور القصائد حول مراحل أو أوجه من الحياة التى يحياها دموزى وإنانا أثناء وبعد الزواج المقدس.

يهيئ الكهنة «لابسو الكتان» الهيكل ويغسلونه بالماء ثم تدخل إنانا إلى المعبد وتجلس على عرشها أو فراشها المخصب وبعدها يتقدم دموزى نحوها وتعده إنانا بأنها ستحقق الرفاه للبلاد والناس وسيسود العدل فيطلب منها دموزى أن توزع الشراب والطعام.

وفى معبد إنانا يقوم إله النار «أليجيبيل» بتطهير الفراش المخصب للإلهين ويزينه بحجر اللازورد ويلتمس من إنانا لتبارك دموزى، ثم تقود وزيرة إنانا «ننشوبر» الإله دموزى إلى حضن عروسه راجية أن تباركه وتبارك حكمه لبلاد سومر وما جاورها، وأن يزيد زواجهما خصوبة التربة والأرحام والوفرة للجميع.

وفى قصيدة أخرى نتعرف على طقس المضاجعة ونشيد النكاح، حيث تكون إنانا قد استحمت وارتدت ملابسها ثم تعرض نفسها له وتطلب منه مضاجعتها، وما أن يتم ذلك حتى يتدفق من حضن دموزى «ماء القلب» الذى هو

«منى» دموزى:

«وبمجرد أن تدفق من حضن الملك «ماء القلب»

فعلى جوانبه انبثقت الزروع، وعلى جوانبه نبت الحب:

وبقربه زخرت ينمو نباتها السهوب والمروج!

بينما فى بيت الحياة، فى القصر الملكى،

ركنت قرينته إلى جانبه تملأ قلبها البهجة،

فى بيت الحياة، فى القصر الملكى

بقيت إنانا إلى جانبه مكتملة البهجة».

وهناك قصائد أخرى عن سعادة إنانا وهى نائمة قرب دموزى وعن موسيقى مخضة الحليب التى تجعل إنانا تتهيج وتفرح، وعن إطفاء القمر والنجوم من قبل إنانا «بعد أن أطفئ القمر والنجوم، وأسحب المزلاج.. تعال». وعن الرجل العسل الذى حلقات شعره الجميلة مثل الخس الذى ينمو قرب الماء، وقصيدة عن صدر إنانا المرتفع وقصيدة عن دخول إنانا إلى حديقة دموزى حيث أنتجت له من خصبها الخضار والحب، وقصيدة يمازح فيها دموزى شقيقته كشتن أنا حين يشاهدان مسافرات الجداء والحملان، وبلبال «قصيدة حوارية» حول عودة دموزى إلى القصر بعد المضاجعة وأخيراً القصيدة التى نلمح فيها تهديد إنانا لدموزى رغم ما فيها من الغزل والجنس حيث تقول إنانا:

«يا ابن الملوك، أى ـ أخى ياذا الوجه الجميل ـ:

لقد أنقذت حياتك، لقد أنقذت حياتك

ولكن ها أنت أصبحت هدفاً لمصير فى منتهى القساوة!

أنقذت لك حياتك خارج أسوار المدينة، أى أخى

ولكن، ها أنت أصبحت هدفاً لمصير فى منتهى القساوة!

أنت الذى لم يستطع العدو بذاته رفع يده ضده،

ها أنت أصبحت هدفاً لمصير فى منتهى القساوة».

وتظهر لنا هذه الإشارة معلومة أخرى، إذ يبدو أن دموزى كان قد تعرض إلى الموت على يد أعداء خارج أسوار المدينة لكن إنانا أنقذته.. ويمكن أن تكون هذه الحادثة سبب حبهما ثم زواجهما، ولكنها بعد حين هجرت دموزى وكأنها قد أفاقت، وكان لابد لدموزى أن يواجه المصير من جديد، وكأنها أجلت مصيره لتتمتع معه ثم تعيده إلى هذا المصير خصوصاً أن من صفات إنانا اللهو والعبث والنزوة.

وهناك إشارة أخرى تظهر فى نفس القصيدة تدل على مضمون آخر:

«يا أخى، أنا بدون شك شببت لك مثل هذا المصير

القاسى، يا أخى، ياذا الوجه الجميل

لقد وضعت يدك اليمنى على فرجى

وكانت يدك اليسرى تداعب شعرى

وفمك كان ينضغط على فمى

وعلى فمك كانت شفتاى مضغطتين

ولهذا السبب، أصبحت هدفاً لمصير فى منتهى القساوة!

هذا ما سيكون يا «ملتهم» «؟» النساء، يا أخى».

وهذا سبب إضافى لمصير دموزى المهلك حيث تعترف إنانا أنها كانت السبب فى هذا المصير عندما أغوت دموزى بجسدها واندفع دموزى ليمارس معها حباً جسدياً شهوانياً على طريقة البشر وكان يجب أن يبقى محافظاً على

المستوى الإلهى للعلاقة.

لكننا نتذكر أن الآلهة كانت تمارس حباً جسدياً شهوانياً «كما فى أساطير إنليل ونليل، وإنكى وننخرساج»، ولذلك نرى أن هذه الإشارة تحمل فى داخلها معنى آخر وهو أن إنانا كانت إلهة بينما لم يكن دموزى كذلك.

فهل كان دموزى بشراً.. وهل كان هذا هو سبب موته؟

يمكننا القول إن دموزى كان بشراً ولكنه تأله، فهو إنسان مؤله، فى حين ذكرت الأساطير بأنه ابن إنكى وقد كان الإنسان يوصف أيضاً بأنه ابن إنكى، ولأن إنانا تعرف أصله، فإنها تدعوه لأن لا ينسى ذلك ويمارس الحب معها كما يمارسه الآلهة فيما بينهم، حتى لو أغوته هى ودعته إلى ذلك.

لقد كانت إنانا تريد منه أن يبقى خارج الشهوة، وأن يمارس الحب معها دون مشاعر حسية ملتهبة، كانت تريد ألا تقع هى فى أتون هذا الحب الجسدى العارم.. لأنها ببساطة لم تذقه مع الآلهة.. بل ذاقته مع دموزى «الإنسان المؤله».. وكان هذا يدفعها للتفكير بعد ممارسة الحب بأن تتخلص من هذا النوع الحقيقى من الحب، والنوع الملموس.. وهكذا فكرت بالتخلص من دموزى كما سنرى.. ولكنها ندمت أيما ندما بعد ذلك، فقد كادت تموت من البكاء على حبيبها الذى أضاعته فى لحظة غضب أو عماء.

إنه لم يدعها تفكر فى ألوهيتها عندما كان يمارس الحب معها فهو «ملتهم النساء» كما تصفه، لقد كان ينسيها ألوهيتها التى كانت تجرى فى عالم المثل لا فى عالم الواقع.

٢ ـ أساطير ومراثى دموزى:

بعد أن هبطت إنانا إلى العالم السفلى للاستيلاء عليه وعوقبت بالموت ثم أعيدت للحياة، كان شرط ملكة العالم السفلى لكى تعود إنانا إلى العالم الأعلى أن تجيئ ببديل عنها، فاختارت دموزى بديلاً لأنه لم يتأثر بما حصل لها وهى

فى العـالم الأسـفل وتصف القـصـيـدة كيف رأت إنانا دمـوزى وهو يجلس على العرش العظيم مرتدياً ملابسه الزاهية حيث أمرت شياطين «الكالا» المرافقين لها بالقبض عليه بديلاً عنها وحينها طلب دموزى من «أوتو» أن يحول ذراعيه إلى ذراعى أفعى وقدميه إلى قدمى أفعى «أى أن يصبح كالحية لا يمسك به» فيتحقق له ذلك ويهرب باتجاه بيت أخته كشتن أنا.

وقبل أن يصل دموزى إلى بيت أخته كان يرثى نفسه بسبب تعرضه لهذا المصير، ثم من شدة تعبه نام وحلم حلماً مفزعاً فقد رأى الأسل ينمو حوله بغزارة ورأى قصبة ثنائية المنبت اختفى فرعها الأول ثم الثانى ورأى الماء أُهرق فوق موقده المقدس ورأى مخضته تتمزق وكأس شرابه يهوى وعصاه تختفى والنسر يخطف حملاً وعنزاته تجر لحاها اللازوردية على التراب ورأى حظيرة غنمه تصفر فيها الرياح.

ولما أفاق دموزى من حلمه قص حلمه هذا على أخته ففسرت له كل مشهد بدقة وكان مجمل حلمه يقول بأنه سيموت.

بعدها يقوم دموزى واخته وصديقه بالصعود إلى التل والنظر إلى الطريق وإذا بهم يرون شياطين الكالا قادمين ويحملون خشبة لتقييد الرقبة، فتنصحه اخته بالاختباء وتعده مع صديقه بأن لا يخبرا الكالا عنه، وحين وصل هؤلاء أغروا أخته ثم عذبوها لكنها لم تخبر عن مكانه، لكن صديقه أغرى بالحبوب كهدية فأهدى الشياطين إليه فقبضوا على دموزى الذى كان يصرخ «شقيقتى أنقذت حياتى.. صديقى سبب موتى» وتذكرنا هذه القصة بخيانة يهوذا للمسيح».

وحين أحاط الكالا به وضربوه رفع دموزى يده إلى «أوتو» ليحوله إلى غزال، فاستجاب له أوتو وهرب إلى بيت العجوز «بليلى» فالتجأ إليها وصبت له الماء ليشرب، والطحين ليأكل ثم غادرت العجوز البيت «ويبدو أنها أهدت شياطين الكالا لمكانه» ويذكر هذا المقطع بالعشاء الأخير للسيد المسيح كما

سنرى، وحين هجم عليه الكالا هرب منهم إلى حظيرة أخته فلحقوه هناك، وحين رأتهم كشتن أنا بكت وخمشت عينيها وفمها وفخذيها، بينما كان الكالا يتسلقون سياج القصب وجدوا دموزى وضربوه وحطموا حظيرته بما فيها، وخلعوا عن جسده رداء الـ«مى» وهو رداء النواميس الإلهية المقدسة، وخلعوا تاجه المقدس «لنتذكر المسيح» وسقط صولجانه المقدس على الأرض وخلعوا نعليه المقدسين ومضى عارياً معهم.

هكذا ذهب معهم إلى العالم الأسفل بديلاً عن إنانا.

ومن هنا تبدأ مراثى إنانا، فقد أفاقت من وهمها، وحلت الفاجعة بأوروك وساد الحزن كل شىء، وأقيمت المناحات فى المدينة فبكت إنانا بكاء مراً على زوجها وبيتها ومدينتها، وبكت معها أمه وأخته «لنتذكر المسيح»، وحين تلتقى أخته مع زوجته لا يعرفان مكانه ومن أين ذهب للعالم الأسفل وعند ذاك تظهر الذبابة وتحوم فوق رأس إنانا وتقول «إذا أخبرتك أين هو دموزى ماذا ستقدمين لى» فترد إنانا «إذا أخبرتنى سأجعلك تترددين على حانات البيرة والخانات حيث تسمعين أحاديث الحكماء وأغانى المغنين» فتقول الذبابة بأنه هناك على مشارف البرية فتذهب أخته وزوجته إلى هناك ويجدونه فى آخر لحظات هبوطه إلى العالم الأسفل فتمسك إنانا بيديه وتقول له:

«ستمضى فى العالم الأسفل

نصف السنة

وشقيقتك، حسب إرادتها،

ستمضى النصف الآخر

فى اليوم الذى ستدعى أنت،

في ذلك اليوم سوف يأخذونك.

في اليوم الذي تستدعي كشتن أنا

في ذلك اليوم سيطلق سراحك

إنانا أسلمت دموزي إلى يدي الأبدية».

وهكذا ينزل دموزي إلى العالم الأسفل مستسلماً لمصيره حيث يبقى نصف السنة الشتوي هناك، ثم يخرج مع بداية الربيع ويقضي نصف السنة الآخر حيث تكون أخته في العالم الأسفل بديلاً عنه.

واستمراراً لهذه القصة الحزينة نكملها بأسطورة العجوز بليلي «بليلو» التي تذكرنا بفكرة «العشاء الأخير» في المسيحية، حيث تبدأ الأسطورة بوصف خطيرة دموزي وما جرى لها ثم تحضر الإلهة إنانا إلى الحظيرة وتقوم بجمع الأغنام المشتتة لدموزي وتصوغ مرثية لدموزي تدعوه فيها أن يبعث وأن يقوم من رقاده.

ثم تصادف في ذلك المكان عائلة بليلي «التي غدرت بدموزي» وجعلته ينشغل بالماء والطحين ووشت به عند الكالا. وابنها جرجير الذي هو لص ماشية وحبوب وحفيدها «سرو» الفتى الذي لا أصدقاء له، ولأن إنانا تعرف ما فعلت العجوز فقد صبت جام غضبها على هذه العائلة وقتلت العجوز وحولت جلدها إلى قربة ماء بارد، وجعلت ابنها إلى جانبها يصرخ، وجعلت حفيدها يجوب أرجاء القفر ويسكب الماء ويرش الطحين ثم يقيم محلين للراحة.

ويبدو أن إنانا فعلت ذلك لكي تبقى ذكرى «العشاء الأخير» لدموزي المكون من «الماء والطحين» ماثلة في هذه العائلة وفي هذه الصحراء، وأن يقدم الحفيد الماء والطحين استذكاراً لدموزي.

ومن المؤكد أننا لمحنا في أكثر من مكان في تراجيديا دموزي ومراثيه ما يذكر بقصة السيد المسيح. ولنا وقفة مطولة عند هذا الموضوع في المستقبل.

ج ـ إنانا وملوك سومر

انعكست أسطورة وأناشيد وطقوس الزواج المقدس بين إنانا ودموزى على أعياد رأس السنة السومرية، واتخذ الملوك من الكاهنات العلويات نظيرات لإنانا، وظهرت قصائد حب مذهلة وصلتنا منها لأربعة ملوك هم شولجى الملك الثانى لأور «٢٠٩٣ ـ ٢٠٤٦» ق.م، والملك شوسين الملك الرابع لأور «٢٠٣٦ ـ ٢٠٢٨» ق.م، والملك إيدين ـ داجان ملك مدينة إيسن «١٩٧٤ ـ ١٩٥٤» ق.م والملك إيشمى داجان ملك مدينة إيسن «١٩٥٣ ـ ١٩٣٥» ق. م.

وأغلبها يشبه النصوص الأصلية بين إنانا ودموزى.

وانفرد الملك السومرى كلكامش الذى سبق هؤلاء جميعاً بأسطورتين خاصتين مع إنانا هما أسطورة الثور السماوى، وأسطورة شجرة الخولبو «الخلاف».

فى أسطورة الثور السماوى المذكورة فى إحدى قصص كلكامش السومرية تعرض إنانا نفسها على كلكامش فيرفض فتتوسل إنانا الإله آن ليسلط على كلكامش ومدينته الثور السماوى فيفعل ذلك ويتصدى كلكامش للثور السماوى ويصرعه.

أما فى أسطورة شجرة الخولبو فإن إنانا التى تغرس هذه الشجرة فى حديقتها أملاً فى أن تصنع منها كرسياً وسريراً، تفاجأ بأن الشجرة بعد أن تنمو مسكونة بطائرة الصاعقة «زو» على أغصانها، وبالشيطانة «ليليث» فى داخلها وبالحية فى قاعدتها فتشكو ذلك إلى أخيها الذى يقترح أن يستنجد بكلكامش الذى يقتل الحية ويجعل ليليث وزو يفران منها، ثم يصنع الكرسى والسرير لها، وفى مقابل ذلك تقوم إنانا بصناعة طبل الـ«بكو» ومضربة الـ«مكو» لكلكامش من أغصان الشجرة ليستمتع بعزفها.

د ـ إنانا والإنسان

تروى أسطورة «إنانا وشوكاليتودا» قصة نزولها من العالم الأعلى لترتاح

وتنام فى بستان الفلاح شوكاليتودا الذى يفتن بجمال جسدها فيقوم بمضاجعتها وهى نائمة، وحين تستيقظ إنانا وتشعر بما حصل لها تسلط ثلاث كوارث على الأرض لكى تعثر على الفلاح، الأولى إغراق آبار الأرض بالدم. والثانية إطلاق الرياح المدمرة على الأرض، والثالثة سد طريق البلاد بالماء أو بتفجير أعماق العالم الأسفل، وكان الفلاح فى كل مرة يختبئ هرباً من انتقامها ثم يلجأ إلى إنكى الذى تتوسل إليه إنانا لكى يسلمها الفلاح، وحين يسلمه لها تصعد به إلى أعالى السماء وتحوله إلى نجم سماوى، وتصبح ذكراه كما وعدت إنكى على لسان الرعاة وفى قصائد الشعراء تردد فى القصور وتروى أسطورة «بيلولو» المشابه لشوكاليتودا أن بيلولو تحول إلى قزم ظل يصغر ويصغر حتى لم يعد له أى وجود واضح.

تبين هاتان الأسطورتان الانتقام الذى وجهته إنانا لمن اعتدى عليها من الناس، وربما لمن اعتدى عليها من الآلهة الصغار، إذا إن هناك رأياً فى اعتبار شوكاليتودا وبيلولو آلهة صغار!!

هـ- إنانا والعالم الأسفل

تحدثنا عن إنانا وكور، أما إنانا وجبل إيبيخ الذى يبدو وكأنه جبل عدو أو شرير، حيث يرفض الخضوع لسلطان إنانا «وكأنه مثل عفاريت الأساكو».

أما الأسطورة الكبيرة فهى أسطورة هبوط إنانا إلى العالم الأسفل التى ننصح بالرجوع إلى نصها فى العديد من المراجع التى تبحث فى الأساطير.

والخلاصة المركزة للأسطورة تتمثل فى رغبة الإلهة إنانا بالسيطرة على العالم الأسفل وحين تهم بالذهاب إلى هناك يطلب منها حارس أبواب العالم الأسفل أن تمتثل لقوانين هذا العالم وأن تخلع فى كل باب من أبوابه السبعة شيئاً تلبسه.. وهكذا عندما تدخل الباب السابع تجد نفسها عارية، وحين تصل إلى عرش أختها الإلهة أرشكيغال ملكة العالم الأسفل تنظر هذه إليها نظرة

الموت، فتموت إنانا وتعلق جثتها على عمود منتصب.

وكانت إنانا قد أوصت حكامها الأربعة «ومنهم دموزى» أنها إذا غابت لأكثر من ثلاثة أيام فعليهم أن يحزنوا ويمرغوا أنفسهم بالتراب وطلبت من وزيرتها ننشوبر أن تذهب إلى الآلهة «إنليل، نانا، إنكى» ليخلصها أحدهم من الموت، فتقوم ننشوبر وزيرتها الأولى بهذا العمل لكن إنليل ونانا يرفضان مساعدتها أما إنكى فيقوم بصنع كائنين من الطين الذى تحت أظافره، وهما كائنان خنثيان يدخلان إلى العالم الأسفل يحملان طعام الحياة وماء الحياة، وحين ينزل الكائنان إلى هناك ينشران الطعام والماء على جثة إنانا ستين مرة فتستيقظ من موتها، ولكنها لكى تخرج كان يجب عليها أن تقدم بديلاً عنها كما تقضى قوانين العالم الأسفل، وهكذا تخرج إنانا بصحبة جند العالم الأسفل الـ«كالو» لكى تأتى بديلها.

وحين تذهب إلى مدنها الأربع تجد أن حكام هذه المدن قد حزنوا من أجلها ووضعوا التراب على رءوسهم إلا دموزى الذى كان يلبس الملابس الزاهية ويعتلى على عرشه ولذلك تختاره بديلاً عنها وتأمر العفاريت المصاحبة لها بأخذه إلى العالم الأسفل.

عند هذا الحد تنتهى أسطورة النزول لكن هناك نصاً آخر يحكى لنا مصير الإله دموزى وجد موزعاً على «٢٨» لوحاً وكسرة تشكل ما تحدثنا عنه فى «أساطير ومراثى دموزى» التى تكمل بقية قصة نزول إنانا إلى العالم الأسفل.

■ ■ ■

من الأساطير السومرية

أساطير الطوفان

تدور أساطير الطوفان ـ البابلية والسومرية ـ حول غضب الآلهة على بنى الإنسان، واتخاذها قرارا بتدمير البشرية دماراً شاملاً، لأنها لم تصن ما منحتها الآلهة إياه، بل أخذت تنشر الفساد فى الأرض، إلا أن الآلهة ـ وفق هذا المعتقد ـ أو بعضهم قد أشفقوا على الجنس البشرى من هذا الفناء، ورأوا أنه من الحكمة البقاء على الصالح منهم دون الطالح، فما كان إلا أن اختاروا أحدهم ـ وهو بالطبع أشدهم ورعا ـ وأوكلوا له مهمة إنقاذ الجنس البشرى، فكان هذا المنقذ هو «زيوسدر» عند السومريين، أو «أوتو ـ نبشتم» و«أترا ـ حاسس» عند البابليين، وسوف نعرض لكل أسطورة من هذه الأساطير.

أسطورة الطوفان السومرية «زيو ـ سدرا»

لم يصل إلينا عن الطوفان باللغة السومرية سوى نص واحد مدون فى لوح طينـى، وقد عثر عليه فى خرائب مدينة «نفر» السومرية، إلا أن هذا اللوح قد وجد فى حالة سيئة، ورغم ذلك فإننا نستطيع أن نعلم الخطوط العريضة لهذه الأسطورة.

وتعرف هذه الأسطورة بين الباحثين باسم ملحمة أو قصة «زيوسدر»، ويعنى اسمه «خالد» أو «ذو الحياة الطويلة»، مثل الاسم البابلى لبطل الطوفان فى ملحمة جلجامش، أى «أوتو ـ نبشتم» والذى قابله جلجامش ـ كما أسلفنا ـ فى رحلة بحثه عن الخلود.

وتبدأ القصة ـ كما وردت فى النص ـ بمقدمة قصيرة ـ ناقصة ـ تروى

طرفا من قصة الخلق ـ كما تعرضنا لها سلفاً ـ حيث الآلهة «آن» و«إنليل» و«إنكى» والإلهة «ننخرساج» خلقوا البشر والحيوانات، ثم أنزلت الملوكية بعد ذلك من السماء إلى الأرض، وقدرت الأقدار والمصائر، وأسست المدن الخمس، وحلت فيها الملوكية، وهى: «دو» و«باد ـ بيرا» و«لرك» و«سبار» و«شروباك»، ويعقب ذلك انخرام فى النص، يبدو أنه قرار الآلهة بتدمير البشر عن طريق الطوفان، ثم يستقيم النص عند نوح «إنانا» لحزنها على تدمير البشر، فتتخذ الآلهة قراراً بإنقاذ البشر من هذا المصير المأساوى، واختاروا لذلك «زيوسدر» ـ الملك الصالح الذى يخاف الآلهة ـ ليكون هو منقذ الجنس البشرى من هذا الفناء، وفى نهاية الأسطورة يمنحه الإلهان «آنو» و«إنليل» الخلود حيث يدخلانه فى مجمع الآلهة، وينقلانه إلى أرض «دلمون» التى تشكل «الفردوس السومرى».

وسنعرض النص بداية من الفقرة التى تحزن فيها «إنانا» لاتخاذ الآلهة قرار الطوفان، ومن ثم تخفيف الآلهة من وطأة هذا الطوفان:

لقد ناحت «إنانا» المقدسة من أجل الناس.

وفكر «إنكى» فى الأمر مليا .

و«آنو» و«إنليل» و«إنكى» و«ننخرساج».

وأقسم آلهة الكون باسم «آنو» و«إنليل».

وفى ذلك الحين كان يحكم الملك «زيوسدرا» الممسوح بالزيت.

وكان تقيا ورعا يكثر من الدعاء والتضرع.

كان يقوم على الدوام خاشعاً.

ولم يكن ما سمعه حلماً.

سمع «زيو سدرا» وهو واقف إلى الجانب الأيسر من الجدار:

«أريد أن أكلمك فاستمع لكلامى.

وتفهم قولى وإرشادى:

ستهب عاصفة الطوفان وتجرف المدن والمنازل.

وأن تدمير نسل البشرية.

هو القرار المحتوم من مجمع الآلهة.

إنه القرار الذى أصدره «آنو» و«إنليل» و«ننخرساج».

تجمعت كل الرياح والعواصف المدمرة.

وجرف عباب الطوفان جميع المدن.

وبعد أن ظل الطوفان يجرف البلاد طوال سبعة أيام وسبع ليال.

وجرفت العواصف المدمرة السفينة الضخمة وسيَّرتها فى المياه العالمية.

أشرقت الشمس وأضاءت الأرض والسماء.

وأحدث «زيو سدرا» فتحة فى السفينة.

ودخلت إشعة الشمس إلى السفينة العظيمة.

وسجد الملك «زيو سدرا» على الأرض أمام الإله «أوتو».

وقرب الملك عدداً كبيراً من البقر والضأن.

وأخذ يدعو بحق السماء والأرض السفلى.

وتوسل إلى «آنو» و«إنليل» بالسماء والأرض السفلى.

وأخرجت الحيوانات وتجمعت من الأرض.

وسجد الملك «زيو سدرا» أمام «آنو» و«إنليل».

اللذين منحاه الحياة الخالدة مثل الآلهة.

وحافظ الملك «زيو سدرا» على ذرية البشر من الفناء.

لقد أسكناه فى أرض عبر البحار، فى المشرق، فى أرض «دلمون».

أسطورة الطوفان البابلية «أوتو ـ نبشتم»:

ذكرنا فى الفصل السابق ـ ملحمة جلجامش ـ كيف أن جلجامش ـ فى رحلته للبحث عن الخلود، قد تقابل مع «أوتو ـ نبشتم»، وفى هذا اللقاء نجد أنه قد أطلع جلجامش على سر الطوفان وهو ما سنعرض له الآن:

قال جلجامش لـ«أوتو ـ نبشتم» القاصى:

«كلما نظرت إليك يا أوتو ـ نبشتم».

وجدت هيئتك غير مختلفة، فأنت مثلى لا تختلف عنى.

أجل، أنت لم تتبدل بل إنك تشبهنى.

ويراك قلبى كاملاً كالبطل على أهبة القتال.

فأخبرنى: كيف دخلت مجمع الآلهة وحصلت على حياة الخلود؟

فقال «أوتو ـ نبشتم» لجلجامش:

يا جلجامش سأكشف لك عن سر خفى.

سأبوح لك بسر من أسرار الآلهة.

«شروباك» مدينة أنت تعرفها.

التى تقع على شاطئ نهر الفرات.

لقد شاخت المدينة والآلهة فى وسطها.

فعزم الآلهة العظام وقتئذ على إحداث الطوفان

تشاوروا فيما بينهم وكان معهم أبوهم «آنو».

و«إنليل»، البطل، مستشارهم.

و«ننورتا» مساعدهم، ووزيرهم.

و«نوكي» حاجبهم ورسولهم.

وكان حاضراً معهم «نن ـ إيكي ـ كو» أي «ايا».

فنقل هذا «يعني ايا» كلامهم إلى كوخ القصب وخاطبه:

«يا كوخ! يا كوخ القصب! يا جدار، يا جدار.

اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط.

أيها الرجل «الشروباكى» يا بن «أوبار ـ توتو».

قوض البيت وابن لك فلكا.

تخل عن مالك وانشد النجاة.

انبذ الملك وخلص حياتك.

واحمل فى السفينة بذرة كل ذى حياة.

والسفينة التى ستبنى.

عليك أن تضبط مقاسها.

ليكن عرضها مساوياً لطولها.

وغطها بسقف مثل سقف «أبسو».

ولما وعيت ذلك قلت لربى «ايا».

«سمعا يا سيدى، سأنفذ ما أمرتنى به.

ولكن ما عسانى أن أقول للمدينة؟

ويتم سأجيب الناس والشيوخ».

ففتح «ايا» فاه وقال لى: أنا عبده:

«قل لهم هكذا: إنى علمت أن إنليل يبغضنى.

فلا أستطيع العيش فى مدينتكم بعد الآن.

ولن أوجه وجهى إلى أرض إنليل وأسكن فيها.

بل سأنزل إلى الـ«أبسو».

وأعيش مع «ايا».

وأنتم سيمطركم «ايا» بالوفرة والفيض.

ومن مجاميع الطير، وعجائب الأسماك.

وفى الماء سيمطركم الموكل بالزوابع بمطر من قمح».

ولما نورت أولى بشائر الصباح تجمع البلد حولى.

حملوا إلىَّ أضاحى الأغنام الغالية.

وأحضروا إلىَّ أضاحى من ماشية مراعى البرارى.

.. «تشوه فى سطرين».

جلب إلى الصغار منهم القار.

وحمل الكبار كل الحاجات الأخرى.

وفى اليوم الخامس أكملت هيكل السفينة.

وكان سطح أرضها «ايكو» واحداً وعلوا جدرانها مائة وعشرين ذراعاً.

وطول كل جانب من جوانب سطحها الأربعة مائة وعشرون ذراعا.

حددت شكلها الخارجى هكذا:

جعلت فيها ستة طوابق «سفلية».

وبهذا قسمتها إلى سبعة طوابق.

وقسمت أرضها إلى تسعة أقسام.

وحشوتها وغرزت فيها أوتاد الماء.

ووضعت فيها المرادى وجهزتها بالمؤن.

سكبت ستة «شارات» فى الكورة.

سكبت أيضاً ثلاثة شارات من القطران.

وجلب حاملو السلال ثلاثة «شارات» من السمن.

بالإضافة إلى شار واحد من السمن لحشو أوتاد الماء.

و«شارين» من السمن اختزنهما الملاح.

ونحرت البقر وطبختها للناس.

ونحرت الأغنام كل يوم.

وقدمت عصير الكرم والخمر الأحمر والأبيض والسمن.

إلى الصناع ليشربوها بكثرة كماء النهر.

ليقيموا الأعياد كما فى أيام رأس السنة.

ومسحت يدى بسمن الزيت.

وتم بناء السفينة فى اليوم السابع.

وكان إنزالها «إلى الماء» أمراً صعباً.

فكان عليهم أن يبدلوا ألواح القاع فى الأعلى وفى الأسفل.

إلى أن غطس فى الماء ثلثاها.

وحملت فيها كل ما أملك.

وكل ما عندى من فضة حملته فيها .

وحملت فيها كل ما عندى من ذهب .

وحملت فيها كل ما كان عندى من المخلوقات الحية .

أركبت فيها جميع أهلى وذوى قرباى .

أركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البر .

وجميع الصناع أركبتهم فيها .

وضرب لى الإله «شمش» موعداً معيناً حيث قال :

«حينما ينزل الموكل بالعواصف فى المساء مطر الهلاك .

فادخل فى السفينة وأغلق بابك» .

وحل أجل الموعد المعين .

وفى الليل أنزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً .

وتطلعت حالة الجو فكان مكفهرا مخيفاً للنظر .

فولجت فى السفينة وأغلقت بابى .

وأسلمت قياة السفينة إلى الملاح «بوزر ـ آمورى» .

أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه من ثروات .

ولما ظهرت أنوار السحر .

علت من الأفق البعيد غمامة سوداء .

وفى داخلها أرعد الإله «أدد» .

وكان يسير أمامه «شلات» و«خانيش» .

وهما ينذران أمامه فى الجبال وفى السهول .

ونزع الإله «إيراكال» الأعمدة.

ثم أعقبه الإله «ننورتا» الذى فتق السدود.

ورفع الـ«أنوناكى» المشاعل.

وجعلوا الأرض تلتهب بوهج أنوارها.

وبلغت رعود الإله «أدد» عنان السماء.

فأحالت كل نور ظلمة.

وتحطمت الأرض الفسيحة كما تتحطم الجرة.

وظلت زوابع الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً.

وازدادت شدتها حتى غطت الجبال.

وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان.

وصار الأخ لا يبصر أخاه.

ولا الناس يميزون فى السماء.

وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان.

فابتعدوا وصعدوا إلى سماء «آنو».

وانكمشوا كالكلاب الخائفة وربضوا فى أسى.

فصرخت «عشتار» كالمرأة فى مخاضها.

انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجى نادبة:

«وا حسرتاه»! لقد عادت إلى طين تلك الأيام القديمة.

لأننى نطقت بالشر فى مجمع الآلهة.

فماذا دهانى إذ نطقت بالشر.

لقد سلطت الدمار على الخلق.

دمار من أعطيتهم أنا الميلاد.

لقد ملأوا اليم كبيض السمك».

وبكى معها آلهة الدأنوناكي».

جلسوا يندبون وينوحون.

وقد يبست شفاههم.

ستة أيام وسبع أمسيات.

وزوابع الطوفان تعصف وقد غطت الزوابع الجنوبية البلاد.

ولما حل اليوم السابع خفت وطأة الزوابع.

وكانت قبلها كالجيوش المحاربة.

ثم هدأ البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان.

وتطلعت إلى الجو، فوجدت السكون عاماً.

ورأيت البشر وقد عادوا جميعاً إلى طين.

وكالسقف كانت مياه الغدران مستوية.

فتحت كوة طاقتي فسقط النور على وجهي.

سجدت وجلست أبكي.

فانهمرت الدموع على وجهي.

وتطلعت إلى حدود سواحل البحر.

فرأيت جزيرة وهي تعلو مئة وأربعا وأربعين ذراعا.

واستقر الفلك على جبل «نصير».

أمسك جبل «نصير» بالسفينة ومنعها من الحركة.

ومضى يوم ويوم ثانٍ والجبل ممسك بالسفينة فلم تجر.

ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة.

ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسك بالسفينة.

ولما حل اليوم السابع.

أخرجت حمامة وأطلقتها فى السماء.

طارت الحمامة ولكنها عادت.

رجعت لأنها لم تجد موضعاً تحط فيه.

وأخرجت السنونو وأطلقته.

ذهب السنونو وعاد لأنه لم يجد موضعاً يحط فيه.

ثم أخرجت غرابا وأطلقته.

فذهب الغراب، ولما رأى المياه قد قرت وانحسرت.

أكل وحام وحط ولم يعد.

عند ذلك أخرجت كل ما فى السفينة إلى الجهات الأربع.

وقربت قرباناً.

وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل.

ونصبت سبعة وسبعة قدور للقرابين.

وكدست أسفلها القصب وخشب الأرز والآس.

فتنسم الآلهة شذاها.

أجل تشمم الآلهة عرفها الطيب.

فتجمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم الذباب .

ولما حضرت الإلهة العظيمة «عشتار» .

رفعت عقدها الذى صنعه «آنو» وفق رغباتها وقالت :

«أيها الآلهة الحاضرون ، كيما لا أنسى هذا العقد اللازوردى .

الذى يزين عنقى .

فإننى لن أنسى هذه الأيام قط وسأذكرها دوماً .

تقدموا جميعاً وقربوا من هذه الذبيحة .

إلا «إنليل» وحده لن يقترب .

لأنه سبب الطوفان دونما ترو .

وأسلم شعبى للدمار» .

ولما أن جاء «إنليل» وأبصر الفلك غضب .

وامتلأ حنقاً على آلهة «الإيكيكى» ، وقال :

«عجبا ، كيف نجت نفس واحدة ،

وكان المقدر ألا ينجو بشر من الهلاك؟

ففتح الإله «ننورتا» فاه وقال مخاطباً البطل «إنليل» :

«من ذا الذى يستطيع أن يدير مثل هذا الأمر غير «ايا» ؟

أجل ، إن «ايا» هو الذى يعرف خفايا الأمور» .

وعندئذ فتح «ايا» فاه وقال مخاطباً «إنليل» البطل :

«أيها البطل ، أنت أحكم الآلهة .

فكيف لم تترو فأحدثت عباب الطوفان؟

حمل المخطئ زور خطيئته .

وحمل المعتدى إثم اعتدائه .

ولكن ارحم «المخطئ والمعتدى» لئلا يهلك .

وتشدد «فى عقابه» لئلا يمعن فى الشر .

ولو أنك بدلاً من إحداثك الطوفان .

سلطت السباع على الناس فقللت من عددهم .

ولو أنك بدلاً من إحداثك الطوفان .

سلطت الذئاب فقللت من عدد الناس .

وبدلاً من الطوقان لو أنك أحللت القحط فى البلاد .

وبدلاً من الطوقان لو أن «ايرا» ، فتك بالناس .

أما أنا فلم أفش سر الآلهة العظام .

ولكننى جعلت «أترا ـ حاسس» يرى رؤيا .

فأدرك سر الآلهة .

والآن تدبر أمره وقرر مصيره» .

ثم صعد «إنليل» فوق السفينة .

وأمسك بيدى وأركبنى معه فى السفينة .

وأركب معى أيضاً زوجى وجعلها تسجد بجانبى .

ووقف بيننا ولمس ناصيتينا وباركنا قائلاً :

ولم يكن «أوتو ـ نيشتم» قبل الآن سوى بشر .

ولكن منذ الآن سيكون هو وزوجه مثلنا نحن الآلهة .

وسيعيش «أوتو ـ نبشتم» بعيداً عن «فم الأنهار».

ثم أخذونى بعيداً وأسكنونى فى «فم الأنهار».

أسطورة «أترا ـ حاسس»

هذه الأسطورة أو الملحمة عبارة عن قصيدة بابلية مطولة نوعاً ما، إذ يبلغ عدد أبياتها نحو ١٣٠٠ بيت موزعة على ثلاثة ألواح، ويرجح أن يكون اسم «أترا ـ حاسس» صفة مركبة تعنى المتناهى فى الحكمة»، وهى ذاتها صفة لبطل الطوفان «أوتو ـ نبشتم».

وتبدأ الرواية بمقدمة تصف حياة الآلهة قبل خلق الإنسان، ثم اتخاذهم قراراً بخلق من يعينهم ويوفر لهم حاجاتهم، وبعد ذلك تعرض الرواية كيف كثر عدد البشر حتى أن ضوضاءهم وضجيجهم أزعج الإله «إنليل» بحيث إنه حرم من النوم والراحة، فقرر أن يسلط عليهم الطاعون حتى يقلل من عددهم، ويظل يسلط عليهم الآفات حتى ينزل عليهم عقاباً شديداً وهو الطوفان، وسنبدأ بعرض نص الملحمة بداية من اللوح الثانى:

لم تكن تمضى ستمائة وستمائة عام.

حتى اتسعت البلاد وتكاثر الناس.

وصارت البلاد تجأر وتخور كالثور.

فانزعج الإله بضوضائهم وصخبهم.

لقد سمع «إنليل» صخبهم وضجيجهم.

فخاطب الآلهة العظام وكلمهم قائلاً:

«إن ضوضاء البشر قد ثقلت على فلا أحتملها.

لقد حرمنى ضجيجهم النوم.

فلتنقطع المؤن عن الناس.

ولتحل الندرة فى النباتات.

حتى لا تكفيهم سد جوعهم.

وليحبس الإله «أدد» أمطاره.

ولينقطع ارتفاع مياه العمق من الأسفل.

ولتهب الرياح اللافحة فتحرق الحقول.

ولتتكاثف السحب ولكن ليمتنع هطول الأمطار.

ولتنقص الحقول من غلالها.

ولتوقف الإلهة «نصابا» نتاج ثدييها.

ولتزل الأفراح من بينهم».

باقى الأسطورة مخرومة، وحينما يصبح النص واضحاً، تبدأ أوامر الإله «إيا» «إنكى» على الوجه الآتى:

«ليعلن المنادون بأصوات عالية فى البلاد:

لا تبجلوا آلهتكم.

ولا تصلوا لآلهتكم.

بل اقصدوا باب الإله «أدد».

وخذوا معكم رغيف خبز إليه.

ولعل قرابين السمسم ستسره.

فيخجل من قرابينكم ويرفع يده عنكم.

ولعله سينزل طلا وضبابا فى الصباح.

وينزل الطل خلسة فى السماء.

فتنتج الحقول الغلال خلسة».

لقد أقاموا فى المدينة معبداً للإله «أدد».

ولم يبجلوا آلهتهم.

ولم يصلوا لآلهتهم.

بل قصدوا باب «أدد».

وقدموا إليه رغيفاً من الخبز.

وسر بقربان طعام السمسم.

واستحى مما قدم له وكف عن الأذى.

وفى الصباح حل الضباب.

وأمطر طلا فى المساء خلسة.

ونتجت الحقول الغلال خلسة.

ونعرض الآن للوح الثالث الذى يتضمن رواية الطوفان، وتبدأ بسؤال «أترا - حاسس» لإنكى عن تفسير الرؤيا التى رآها فى منامه، فيقوم «إنكى» بتفسيرها ويخبره بما عليه أن يفعل حتى ينجو بحياته.

فتح «أترا - حاسس» فاه.

وخاطب سيد قائلاً:

«عبر لى عن معنى الرؤيا.

حتى أعرف مغزاها ونتيجتها».

ففتح إنكى فاه، وقال مخاطباً عبده:

«أنت تريد أن تعرف مغزى الرؤيا .

فانتبه إلى المعنى الذى سأبلغك به :

يا حائط ! اسمعنى يا حائط .

يا كوخ القصب ، تفهم كلماتى .

انقض بيتك وابن لك فلكا .

انبذ المال وانج بحياتك .

والسفينة التى ستبنى .

«الأسطر ٢٦ إلى ٢٨ مخرومة»:

سقفها واحكم بناءها كمياه الأبسو .

بحيث لا ترى الشمس دخلها .

واحكم سقفها من الأعلى والأسفل .

ولتكن حبالها متينة قوية .

وليكن القير ثخيناً لتكون السفينة قوية .

أنا سأمطركم بوافر من الطيور والأسماك» .

لقد فتح «أترا ـ حاسس» الساعة المائية وملأها .

لقد بلغه بوقوع الطوفان لليلة السابعة .

انصاع «أترا ـ حاسس» للأمر .

وجمع الشيوخ عند بابه .

وفتح «أترا ـ حاسس» فاه وخاطب الشيوخ قائلاً :

«إن إلهى على خلاف مع إلهكم .

إن «إنكى» و«إنليل» غاضب أحدهما على الآخر.

لقد أخرجانى وطردانى من بيتى.

ولأننى أخص إنكى بالتبجيل.

فإنه أخبرنى بالأمر.

ولذلك فلن أستطيع العيش فى مدينتكم.

ولا أستطيع أن أضع قدمى على أرض «إنليل».

«عـدة أسطـر مـخـرومـة تتـضـمن جـمع العمـال والنجـارين وتهيئـة المواد لصنع السفينة»:

....

كل ما عليك.........

ومن الحيوانات الطاهرة.....

والحيوانات السمينة....

وأطيار السماء.... والماشية وحيوان البر.. اجمعها فى السفينة.

دعا الناس.... إلى وليمة.

واركب عائلته فى السفينة.

أكلوا وشربوا.

وكان يدخل ويخرج على الدوام.

ولا يستطيع الجلوس ولا النوم.

لأن قلبه قد تحطم، وصار يتقيأ المرارة،

وتبدلت هيئة الجو.

وأرعد الإله «أدد» فى السحاب.

وحالماً سمع «أترا ـ حاسس» صوت «أدد».

أحضر القير ليسد بابه.

وبعد أن أغلق بابه.

كان «أدد» لا يزال فى السحاب.

وازدادت الرياح فى شدة هبوبها حينما استيقظ.

فقطع المرساة وأطلق السفينة.

....

«عدة أسطر مخرومة»:

وصار الطائر «اتزوا» يمزق السماء بمخلبه

لقد حطم صوته.. كما تحطم الجرة

.... وجاء الطوفان

وفتك فى شدته بالناس كالحرب العوان

وصار الأخ لا يرى أخاه

ولم يكن الناس ليميزوا من هول الهلاك

وخار عباب الطوفان كالثور الوحشى

وكان صوت الطوفان كنهيق الحمار

وغطى الناس الظلام الدامس، ولم تظهر الشمس

....

«عدة أسطر مخرومة»

استشاط «إنكى» غضباً

وهو يرى أبناءه يسحقون ويهلكون

و«ننتو» السيدة العظيمة

يبست شفتاها من الحرارة

والـ«أنوناكى»، الآلهة العظام

جلسوا وهم عطشى وجياع

وبكت الآلهة وهى تشاهد الكارثة

وقالت الحكيمة «مامى»، قابلة الآلهة:

«ليعم الظلام النهار، وليعم البؤس والشقاء

وأنا فى مجلس الآلهة

ماذا دهانى أنى قررت معهم الهلاك والدمار

لقد تجاوز إنليل المدى فى الشر والهلاك

ومثل شيطان «تريرو»، أمر بالشر والدمار

وأوقعت الأذى بنفسى عندما أصغيت إلى ضوضائهم

وإن ذريتى - وقد قطعت عنى - غدت كالذباب

وأنا أصبحت كالساكنة فى بيت الندب والبكاء

فلا يسمع نحيبى وعويلى

فهل سأرقى إلى السماء

وكأنى سأعيش فى بيت الكنز؟

إلى أين ذهب كبيرهم «آنو»؟

«آنو» الذى يطيع أمره أبناؤه الأقداس.
إنه الذى لم يترو فأحدث الطوفان
وأسلم الناس إلى الهلاك والفناء
«عدة أسطر مخرومة»
لقد ملأوا النهر كأنهم اليعاسيب
صاروا كالأرماث الطائفة فى النهر
لقد شاهدتهم وبكيت من أجلهم
أجل، انتحبت من أجلهم
حتى استنفذت رثائى وندمى من أجله»
لقد ناحت «ننتو» بكل حرارة عاطفتها
وبكى الآلهة معها من أجل البلاد
لقد ملكها الحزن وأصابها الظمأ إلى الجعة
وحينما جلست جلسوا معها يبكون
وملأوا الحوض كأنهم الغنم
ويبست شفاههم من شدة الظمأ
وحل بهم الضعف والشلل من شدة الجوع
وطول سبعة أيام وسبع ليال
عم الطوفان والزوابع
«نحو ٢٧ سطراً مخرومة، ونحو ٢٩ سطراً من الحقل التالى»
.... إلى الرياح الأربع

وجهز الطعام...

وشم الآلهة طعام الوليمة

فتجمعوا كالذباب على القرابين

نهضت «ننتو»، وهى غاضبة على الجميع فقالت:

إلى أين ذهب «آنو» كبير الآلهة؟

هل حضر «إنليل» إلى البخور والقرابين؟

إنهما اللذان لم يترويا فأحدثا الطوفان

وسلطا الدمار على الناس،

لقد أرادا الهلاك الشامل؟

والآن غدت وجوههم النظيفة كدرة مغبرة

ثم أمسكت بالذباب الكبير

وهى التى صنعها لها «آنو» وكانت تحملها

وقالت: إن حزنه حزنى، والآن قرر مصيرى

ليخلصنى من هذا الحزن والغم

وليكن هذا الذباب أحجار اللازورد التى فى عنقى

لأتذكر بها كل يوم وإلى الأبد

شاهد البطل «إنليل» السفينة

واستشاط غضباً على آلهة الـ«إيكيكى» وقال:

نحن آلهة الـ«أنوناكى» العظام

لقد قررنا وأقسمنا بذلك

فكيف نجا بعض الأحياء؟!

وكيف سلم الإنسان من الهلاك

ففتح «آنو» فاه وخاطب «إنليل» قائلاً:

من غير إنكى من يستطيع أن يفعل ذلك؟

أنا لم أفش سر القرار

ففتح إنكى فاه وخاطب الآلهة العظام قائلاً:

«لقد فعلت ذلك حقاً بمحضركم

أنا المسؤول عن نجاح الحياة»

«عدة سطور مخرومة»

فليعاقب المذنب بوزر ذنبه

وكل من يخالف أوامرك

ففتح «إنليل» فاه وخاطب «إنكى» قائلاً:

هلم! احضر «ننتو» إلهة الولادة

أنت وهى قد حضرتما الاجتماع

....

وهنا ينخرم النص، ولكن الأسطر القليلة الباقية تنتهى بها الملحمة بخلق الإلهة «ننتو» صنفاً ثالثاً غريباً من البشر هو جنس الإناث اللواتى لا يحملن، وخلق أنواع من الشياطين.

■ ■ ■

أسطورة إنانا ودموزى

من هو «دموزى»

سبق وتعرفنا على «إنانا» (عشتار عند الأقوام السامية) فى الفصل السابق، والآن نلقى بعض الضوء على «دموزى» الذى عرف فى «العهد القديم» باسم تموز.

دموزى هو إله الحظائر والرعى فى سومر، وينتسب إلى شجرة الإله «إنكى» ويجب عدم الخلط بين «دموزى» وبين «دموزى أبسو» الذى هو الابن البار لمياه الأعماق، أى أنه إله مائى، و«دموزى إشكمال إنا» الذى هو قوة إخصاب النخيل وهو إله نباتى، فى حين أن دموزى الذى نعنيه هو الإله الراعى الذى يرتبط بالماشية، عبد هذا الإله فى مدينة «باد - تبيرا» كإله للخصب وتجديد الحياة وهذه الصفات تعود لإنكى، ولكن صفات الخصب وأشكال دموزى السابقة اختلطت مع بعضها حتى صار هذا الإله يلقب بعدة ألقاب مثل «الثور الوحشى، الخصب فى عناقيد التمر، محرك الأجنة فى الأرحام، منتج الحليب فى الأثداء».

ويعتقد الباحثون أن أصل الإله دموزى هو أصل بشرى حيث حكم مدينة «باد - تيبرا» قبل الطوفان ثلاثة ملوك كان ثالثهم هو «دموزى الراعى» ولهذا الملك - أو الإله - حكاية تراجيدية - سنعرض لها فى هذا الفصل - مع «إنانا» سببت له كل هذه الشهرة وتناقلت الأجيال قصته، حتى نقل إلينا كإله عاشق للإلهة إنانا - وكان رمز الإله دموزى على شكل جذع نخلة يعلوها رمز الألوهية المكون من ثمانية آشعة.

أوتو يقنع إنانا بالزواج من دموزى

أوتو هو أخو إنانا، وهو إله الشمس، هذا الجزء من الأسطورة يتعلق بصنع مخدع الزوجية الخاص بالإلهة «إنانا»، وإقناع أوتو للإلهة إنانا بالزواج من دموزى «الراعى» وأن تلتفت عن «إنكيمدو» الفلاح، وهذا الجزء يدور فى صورة حوار بين «أوتو» و«إنانا» على النحو التالى:

أيتها الملكة العظيمة، الكتان المصقول الفاخر.

إينانا، الكتان المصقول الفاخر.

شقيقتى، أنت عندك ما يكفيك من الأشجار الباسقة.

سوف أعزق من أجلك، وأعطيك النبات.

شقيقتى لسوف آتيك بالكتان المصقول.

أى شقيقى، بعد أن تكون آتيتنى بالكتان المصقول.

من سوف يمشطه لى؟ من سوف يمشطه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يمشطه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به ممشوطاً.

إينانا، سوف آتيك به ممشوطاً.

من سوف يغزله لى؟ من سوف يغزله لى؟

ذلك الكتان من سوف يغزله لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به مغزولاً.

إينانا، لسوف آتيك به مغزولاً.

أى شقيقى، بعد أن تكون آتيتنى به مغزولاً.

من سوف يوشيه لى، من سوف يوشيه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يوشيه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به موشى.

إينانا، لسوف آتيك به موشى.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به موشى.

من سوف يبرمه لى؟ من سوف يبرمه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يبرمه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به مبروماً.

إينانا، لسوف آتيك به مبروماً.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به مبروماً.

من سوف ينسجه لى؟ من سوف ينسجه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به نسيجاً.

إينانا، لسوف آتيك به نسيجاً.

أى شقيقتى، بعد أن تكون آتيتنى به نسيجاً.

من سوف يدبغه لى؟ من سوف يدبغه لى؟

ذلك الكتان، من سوف يدبغه لى؟

أى شقيقتى، لسوف آتيك به مدبوغاً.

إينانا، لسوف آتيك به مدبوغاً.

هنا فقط نعلم الغرض من هذا الحوار، وذلك حين تطرح إنانا «أو إينانا»

السؤال الذى يدور فى رأسها:

أى شقيقى، بعد أن تكون آتيتنى به مدبوغاً.

من سوف ينام فى الفراش معى، من سوف ينام فى الفراش معى؟

عن ذلك التساؤل يجيب «أوتو» بلا تردد، إنه «دموزى» الذى سوف يكون زوجاً لها:

معك سوف ينام فى الفراش، سوف ينام فى الفراش.

معك زوجك سوف ينام فى الفراش.

أوشوم جال ـ أنا سوف ينام فى الفراش معك.

كولى ـ إنليل سوف ينام فى الفراش معك.

هو الذى طلع من الرحم الخصيب، سوف ينام فى الفراش معك.

البذرة التى أنجبت ملكاً، سوف تنام فى الفراش معك.

لكن «إنانا» تعترض وتفضل الفلاح على الراعى:

بل رجل قلبى هو.

رجل قلبى هو.

الذى فار بقلبى هو.

الذى لا يعزق ـ ومع ذلك ـ العنابر عارمة.

الحب يجلب بانتظام إلى المخازن.

الفلاح ـ حبه يملأ جميع العنابر.

يلح «أوتو» على شقيقته «إنانا» أن تتزوج من الراعى «دموزى» دون الفلاح:

أى شقيقتى، تزوجى من الراعى.

أى إينانا العذراء، لم أنت راغبة عنه؟

قشدته طيبة، ولبنه طيب.

الراعى ـ ما لمس ـ بيده ـ شيئاً إلا سطع.

أى إينانا، تزوجى من الراعى، الذى يتزين بحجر «أوتو» وحجر «شوبا» لم أنت راغبة عنه.

قشدته الطيبة سوف يأكلها معك، هو، الملك الحامى، لم أنت راغبة عنه؟

لكن إنانا تظل على عنادها:

أنا الراعى لن أتزوج.

لن أرتدى ملابسه الخشنة.

لن أقبل صوفه الخشن.

أنا، العذراء ـ الفلاح سوف أتزوج.

الفلاح الذى يزرع نباتاً كثيراً.

الفلاح الذى يزرع حباً كثيراً.

دموزى يدافع عن نفسه

اشتد الكلام بين «أوتو» و«إنانا» فقررا الذهاب إلى الراعى دموزى والتكلم معه وإعلان رأى إنانا أمامه فذهبا إليه وتكلما فى الأمر، حينها قال دموزى ـ مدافعاً عن نفسه ـ بغضب وحدة، وموضحاً لها أن الفلاح لا يمتاز عنه فى شىء، بل إنه الأفضل والأجدر بالزواج منها:

«الفلاح، أكثر مما أنا، الفلاح أكثر مما أنا.

الفلاح، ماذا يملك أكثر مما أملك؟

إذا هو أعطانى طحينه الأسود.

أعطيه ، الفلاح ـ نعجتى السوداء .

وإذا أعطانى طحينه الأبيض

أعطيه ، الفلاح نعجتى البيضاء

وإذا سكب لى جعته الأصلية .

أسكب له ـ الفلاح ـ لبن «كسيم» .

وإذا سكب لى جعته المعتقة .

أسكب له ، الفلاح ـ لبنى المخيض .

وإذا سكب لى جعته المزيج .

أسكب له ، الفلاح ، لبنى النباتى .

وإذا هو أعطانى من حلو نبات حلحلة .

أعطيه ، ـ الفلاح ـ من لبن إتردا .

وإذا أعطانى خبزه الفاخر .

اعطيه الفلاح ، جبنى العسلى .

وإذا أعطانى فوله الصغير .

أعطيه ، ـ الفلاح ـ ، جبنى الصغير .

مما أكلت ، مما شربت .

أستطيع أن أترك له فائض القشدة .

أستطيع أن أترك له فائض اللبن .

أكثر مما أملك ، الفلاح ماذا يملك أكثر ؟» .

يبدو أن كلام «دموزى» قد ترك أكبر الأثر فى نفس «إنانا»، بعد أن أقنعها بكرمه وسخائه، وأنه يعطى أكثر مما يأخذ، ولذلك نرى أن إنانا قد عدلت عن رأيها، واختارت «دموزى»، تقول نصوص الأسطورة واصفة حال «دموزى» بعد أن أبدت إنانا موافقتها:

ابتهج، وابتهج.

على صدر ضفة النهر ابتهج.

على ضفة النهر، الراعى، على ضفة النهر، ابتهج.

فى هذا الوقت يظهر الفلاح أنكيمدو على ضفة النهر، فيستعد الراعى دموزى للقتال، وهنا تتشابه الأسطورة إلى حد كبير مع قصة قابيل وهابيل، تقول النصوص.

الراعى رعى غنمة على ضفة النهر.

من الراعى الذى يرعى غنمه على ضفة النهر.

الفلاح اقترب، الفلاح أنكميدو اقترب.

من دموزى ملك السدود والأفنية اقترب.

فى سهبه، الراعى، فى سهبه يبدأ القتال.

الراعى دموزى، فى سهبه يبدأ القتال.

غير أن الفلاح ـ لحسن الحظ ـ فتى حليم ينشد السلام والصداقة، يأبى أن يقاتل الراعى، بل يقدم له أرضاً للرعى وماء لغنمه، يقول الفلاح لـ«دموزى»:

أنا معك أيها الراعى، معك أيها الراعى.

أنا معك فلماذا أكافح؟

لتأكل أغنامك فى أرضى المحروثة.

لتأكل حبى على سوقه.

لتأكل الحب فى حقول إيريك اللامعة.

لتشرب جداؤك وحملانك من قناتى، سور وجال.

وبذلك ينتهى هذا الجزء من الأسطورة نهاية سعيدة، إذ يدعو دموزى الفلاح إلى حفلة العرس، ويسر الفلاح سروراً عظيماً ويعد بأن يأتى من نتاج حقوله بهدايا مناسبة للعروس:

أنا الراعى، عند زواجى.

أيها الفلاح، سوف أعدك صديقاً لى.

أيها الفلاح، أنكيمدو، صديقاً لى، سوف أعدك صديقاً لى.

يرد الفلاح:

سوف آتيك بحنطة، سوف آتيك بقول.

سوف آتيك بعدس.

أيتها العذراء، بكل ما يليق بك.

أى إنانا العذراء، حباً و.... وفولاً، سوف آتيك.

أوضحت المناظرة السابقة منافسة بين الراعى والفلاح، هى فى حقيقة جوهرها تعكس الصراع بين البداوة والحضارة، فالإله الراعى «دموزى» يمثل البدوى فى اندفاعه وسرعة غضبه وشدة نقمته وفى نزعته للتسلط والسيطرة. عاد كلامه وبلاغته سلاحاً فعالاً لا يقل عن فعل السيف فى المعركة، بينما نجد الفلاح الذى يمثل الحضارة مسالماً، اعتاد على الهدوء والمجاملة، يعرف كيف ينسحب من المواقف الساخنة متجنباً النزاع.

وعلى كل حال يفلح «دموزى» تماماً فى إقناع عروسه المرتقبة بواسع ثرائه وأملاكه، لكنها مع ذلك ظل يخامرها الشك، فى نسبه، فهى ترى أنها أعرق منه نسباً وأرفع منه جاها، وادعت بأنه لولا أمها «ننجال» وأختها «سيدة القصب المقدس» وأبوها إله القمر «سن» وأخوها إله الشمس «أوتو» لكان دموزى طريداً

فى الأزقة والسهوب بلا سقف يظله، لكن دموزى يطيب خاطرها.

أيتها السيدة الشابة لا تبدئى خصاماً .

أى إنانا ، ليصل كلامنا فى هذا إلى نهايته .

أى إنانا ، لا تبدئى خصاماً .

يا مليكة القصر ، لنتشاور فيما بيننا .

أبى طيب مثل أبيك .

أمى طيبة مثل أمك .

أنا طيب مثل أوتو .

إنكى طيب مثل سن .

سرتو طيبة مثل ننجال .

يا مليكة القصر لنتشاور فيما بيننا .

وفى الواقع لم يؤد هذا الخصام إلا إلى اشتداد عاطفة العاشق، تقول نصوص الأسطورة:

الكلمة التى نطق بها .

كلمة رغبة .

مع بدء الخصام .

تأتى رغبة القلب .

كانت إنانا فخورة بأبيها «سن» إله القمر العظيم فى مدينة أور، إحدى كبريات مدائن سومر، لذلك، ليس غريباً أن نجدها تشعر بالحاجة لأن تلتمس موافقة سن بأن ترسل له رسالة تنبئه فيها بنيتها الترويج من عاشقها «دموزى»

بهذه الكلمات البهيجة.

بيتى، بيتى، سوف يجعله طويلاً، لأجلى.

أنا الملكة، بيتى، بيتى، سوف يجعله طويلاً لأجلى.

بيت جيبار، سوف يجعله طويلاً لأجلى.

الناس سوف يقيمون فراشى المثمر.

سوف يغطونه بشجيرات حجر اللازورد ـ الدورو.

سوف آخذ إلى هناك رجل قلبى.

سوف آخذ إلى هناك أوشوم جال أنا.

سوف يضع يده بيدى.

ويضم قلبه إلى قلبى.

وضعه اليد باليد ـ ينعش الفؤاد.

ضمه القلب إلى القلب ـ لذته بالغة الحلاوة.

غير أن إنانا كانت أقرب لأمها «ننجال» منها لأبيها، فإلى بيت أمها يجب أن يأتى العريس لطلب يدها، وإلى أمها يجب أن تذهب وتلتمس منها النصح والموافقة عندما يأتى دموزى ويقرع بابها، وبالفعل يذهب دموزى إلى بيت أمها حاملاً معه هدايا اللبن والقشدة والجعة ملتمساً منها القبول، لكن يبدو أن إنانا قد انتابها الخجل، فكانت أمها تحثها على الإذن له بالدخول:

هو ذا، الفتى، هو أبوك.

هو ذا، الفتى، هو أمك.

أمه تدللك كما تدللك أمك.

أبوه يدللك كما يدللك أبوك.

افتحى الباب، أى مليكتى، افتحى الباب.

وهكذا أعدت إنانا نفسها للقاء زوجها الموعود بما يليق بملكة سومرية.

إنانا، بناء على طلب أمها.

استحمت، وتطيبت بفاخر الزيت.

لفت على جسمها طيلسان ـ بالا النبيل.

صفصفت حجر اللازورد حول عنقها.

وأمسكت الختم بيدها.

الملكة الجليلة انتظرت على توقع.

دموزى اقتحم الباب.

طلع فى البيت مثل نور القمر.

وحدق فيها يغمره الفرح.

ضمها إلى صدره.

لكن رغم أن إنانا كانت تكن لأمها الحب الكثير، إلا أنها لم تكن منزهة عن مخادعتها، حدث هذا، بناء على إيحاء من عاشقها، لكى تمكث على ضوء القمر الفضى، ويبدأ هذا الجزء من الأسطورة بمناجاة إنانا لنفسها، إنانا التى كانت أيضاً إلهة الزّهرة.

فى الليلة الماضية، فيما كنت أنا، الملكة، أشع الضياء.

كنت أشع ضياء، كنت أرقص طربا.

كنت أترنم بأنشودة على اقتراب الضوء الساطع.

التقى بى، التقى بى.

الرب كولى ـ أنا التقى بى.

الرب وضع يده في يدى.

أوشوم جالى أنا ضمنى إلى صدره.

ادعت إنانا أنها كانت تحاول التملص من ذراعيه، لأنها لم تكن تعلم ما تقول لأمها:

تعال الآن، أيها الثور البرى، خلصنى، يجب أن أذهب إلى البيت.

كولى - إنليل، خلصنى، يجب أن أذهب إلى البيت.

ماذا عساى أن أقول لكى أخادع أمى، ننجال.

كانت إنانا سعيدة جداً - وهى المعروفة بالمكر والخداع - حين سمعت الجواب يأتى من قبل عاشقها دموزى:

فلأخبرك، فلأخبرك.

أى إنانا، يا أكثر النساء خداعاً، فلأخبرك.

قولى إن صديقتى اصطحبتنى معها إلى الساحة العامة.

حيث سلتنى بالموسيقى والرقص.

وغنت لى أغنياتها الحلوة.

فى الابتهاج الحلو قتلت الوقت هناك.

بذلك تواجهين أمك، فى خداع.

بينما نحن كنا على ضوء القمر ننغمس فى شهوتنا.

سأعد لك فراشاً طهوراً حلواً نبيلاً.

سوف أقضى معك وقتاً حلواً فى فرح غامر.

وكان واضحاً أن دموزى استذاق نكهة حب إنانا حتى دفعه ذلك أن يقطع

لها عهداً بأن يجعل منها زوجته الشرعية، وينتهى هذا الجزء من الأسطورة بأغنية تغنيها إنانا فيها استثارة ونشوة:

أتيت إلى بوابة ننجال،

أنا، جذلانة أمشى،

إلى أمى سوف يقول الكلمة،

سوف يرش زيت «السرو» على الأرض،

هو الذى مسكنه يفوح عطراً،

هو الذى كلمته تبعث فى السرور العميق،

سيدى الذى يليق به الحضن المقدس،

أما وشوم جال أنا، صهر سن،

الرب دموزى يليق به الحضن المقدس،

آما وشوم جال أنا، صهر سن.

نزول إنانا إلى العالم السفلى

يبدأ النص الأسطورى باعتزام «إنانا» النزول إلى العالم السفلى، بيت الأموات المخيف المظلم، أما سبب نزول إنانا إلى العالم السفلى فلم يذكره النص، ويرى «كريمر» أن السبب الأقوى هو طموح إنانا أن تصير ملكة «الأسفل العظيم» بجانب كونها ملكة «الأعلى العظيم»، ويتضح ذلك ـ كما سنرى ـ من تأنيب «إنليل» و«نانا» إلى «ننشوبر» وزير ـ أو وزيرة ـ إنانا، ورفضهما مد يد العون لإنانا، كما يؤكد ذلك الطموح اللامتناهى لإنانا بعض الأساطير الأخرى ـ والتى تعرضنا لها ـ مثل حصولها على النواميس المقدسة من إنكى بعد أن أسكرته.

هناك أيضاً احتمال بعيد نوعاً ما، وهو أن غزوها «الثورى» أو «التخريبى» للعالم الأسفل كانت مدفوعة إليه لرغبتها فى أن تقسيم الموتى، وبذلك تتجنب

الموت كلياً، ولا يمكن القول بأن نزولها كان هدفه إنقاذ «دموزى» الذى اقتيد أسيرا إلى العالم الأسفل، لأن الأسطورة لم تقل بذلك، فدموزى لم يكن فى العالم الأسفل قط عندما وصلت إليه «العالم الأسفل» إنانا، لأن الأسطورة تقول إن إنانا نفسها هى التى أرسلته إلى هذا العالم بعد أن صعدت هى إلى الأرض، على كل حال، تتخلى إنانا ـ من أجل تحقيق طموحها ـ عن السماء والأرض، وعن جميع مدنها ومعابدها الشهيرة، فارتدت أجمل ملابسها، وتحلت بأحلى زينتها، وقبضت بشدة على شارات سلطانها وامتيازات المقدسة بعد أن عزمت على النزول إلى «بلاد اللاعودة»، عالم الأموات والأشباح الرهيب، تقول نصوص الأسطورة:

من الأعلى العظيم قررت النزول إلى الأسفل العظيم.

الإلاهة، من الأعلى العظيم قررت النزول إلى الأسفل العظيم،

إنانا، من الأعلى العظيم قررت النزول إلى الأسفل العظيم،

سيدتى هجرت السماء، هجرت الأرض إلى العالم الأسفل نزلت،

تخلت عند «السيدية» و«السيدتية» إلي العالم الأسفل نزلت،

النواميس السبعة شدتها على وسطها،

جمعت كل النواميس، وضعتها فى يدها،

أقامت الناموس العظيم عند قدمها المنتظرة،

الـ«شوجرا»، تاج السهول، وضعته على رأسها،

خصل شعرها ثبتته على جبينها،

قبضت بيدها على صولجان القياس وحجر اللازورد،

ربطت حول عنقها حجر اللازورد الصغير.

شدت إلى صدرها حجرين بيضاويين،

طوقت معصمها بسوار ذهبى،

لفت جسمها بطيلسان بالا، طيلسان السيدتية،

دهنت عينيها بالدهن.

لكن «أرشكيجال» - ملكة العالم الأسفل، وفى نفس الوقت أخت إنانا وعدوتها اللدود - لن يغفر لها مجيؤها إلى الأقاليم السفلية، ويبدو أنها كانت علئ ثقة أن إنانا تريد أن تستولى على ملك العالم الأسفل، ولاشك أنها ستقتلها لجرأتها على اغتصاب عرشها، ولذلك استدعت إنانا وزيرتها ورسولتها «ننشوبور» التى كانت دائماً رهن إشارتها، وقالت:

أنت يا سندى الدائم،

يا وزيرتى ذات الكلمات المناسبة،

يا حاملة بريد كلماتى الصحيحة،

أنا الآن نازلة إلى العالم الأسفل،

أقيمى المناحة على عند الأطلال،

فى حرم المجمع اقرعى الطبول من أجلى،

مزقى عينيك من أجلى،

وشقى فمك من أجلى،

مثل فقير ارتدى ثوباً واحداً من أجلى،

إلى الإيكور، بيت إنليل،

وحيدة صوبى خطاك.

وعند دخول الإيكور «بيت إنليل» انتحبى أمام إنليل:

أبت إنليل، ولا تدع ابنتك تموت فى العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الثمين يعلوه غبار العالم الأسفل،

لا تدع لازوردك الثمين ينكسر كحجر الحجارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت فى العالم الأسفل.

وتزيد إنانا فى تأمين نفسها، فتطلب من وزيرتها «ننشوبور» أن تذهب إلى «نانا»، الاسم السومرى لإله القمر «سن»، الإله الحارس لمدينة «أور» وأب إنانا، وذلك فى حالة عدم وقوف «إنليل» بجانبها، كما طلبت منها أن تذهب إلى «إنكى» فى حالة تخلى أبيها «نانا» عنها:

إذا لم يقف إنليل بجانبك فى هذا الأمر،

فاذهبى إلى أور،

فى أور، عند دخولك البيت،

الذى هو بيت الرهبة فى البلاد،

«الأكيشنوجال»، بيت نانا،

انتحبى أمام نانا:

أبت لا تدع ابنتك تموت فى العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الثمين يعلوه غبار العالم الأسفل،

لا تدع لازوردك الثمين يتكسر كحجر الحجارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت فى العالم الأسفل.

وإذا لم يقف نانا إلى جانبك فى هذا الأمر،

فاذهبى إلى أريدو،

في أريدو، عند دخولك بيت إنكى،

انتحبى أمام إنكى:

أبت إنكى، لا تدع ابنتك تموت فى العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الثمين يعلوه غبار العالم الأسفل،

لا تدع لازوردك الثمين ينكسر كحجر الحجارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت فى العالم الأسفل،

الأب إنكى، رب الحكمة،

الذى يعلم «طعام الحياة، ويعلم «ماء الحياة»،

لابد وأن يعيدنى إلى الحياة ثانية.

وبذلك تطمئن إلى تجدد حياتها وبقائها حية، حتى ولو نزلت بها أقدح الأخطار ثم تتابع سيرها نحو العالم الأسفل، وتصل إلى بلاط العالم الأسفل، فتنطلق جريئة لدى الباب:

افتح البيت، أيها البواب، افتح، البيت،

افتح البيت، يا ناناى، افتح البيت،

وحدى بمفردى أريد الدخول.

وعندما يسألها البواب «ناتى: رجاء، من أنت؟»، تحييه باعتذار:

أنا ملكة السماء،

المكان الذى تطلع منه الشمس.

لكن البواب يشك فى أمرها:

إذا كنت ملكة السماء حقاً،

المكان الذى تطلع منه الشمس،

فلماذا أتيت، رحماك، إلى بلاد اللاعودة،

على الطريق الذى من يسافر عليه لا يعود أبداً،

كيف قادك إليه قلبك؟

عندئذ تتذرع بالقول:

أختى الكبرى أرشكيجال،

لأن زوجها، الرب «جوجال أنا» قد قتل،

لأشهد مراسم الدفن، فليكن ذلك.

لكن هذه الطريقة لم تبدد من ريبة «ناتى»، فطلب منها أن تتريث حتى يكلم سيدته أرشكيجال، ويدخل على مليكته، ويصف لها ملبس إنانا وهيئتها، الناموس، الـ«شوجرا»، خصل الشعر، صولجان القياس والسلك،... إلخ. وما إن سمعت أرشكيجال هذه الأوصاف حتى علمت على الفور من هى هذه التى حاولت أن تحطم بوابة ممتلكاتها ولماذا، فاستبد بها الغضب، وضربت على فخذها، وقالت: ليس ثمة إلا مخرج واحد: يجب أن تموت إنانا. لكن هذه لن يصيبها شىء إلا أن ينزع عنها طيلسانها، وجواهرها، وزينتها وصولجانها، ولذلك قالت للبواب:

تعال، يا ناتى، يا كبير حراسى على العالم الأسفل،

الكلمة التى آمرك بها، إياك أن تغفلها،

ارفع المزلاج، عن أبواب العالم السفلى السبعة،

وعن واجهة العالم الأسفل «جنزير» ارفع المزلاج،

أصغى ناتى إلى كلمة مليكته،

وقال لإنانا: تعال، أدخلي.

ولدى ولوجها البوابة الأولى،

نزع عنها الـ«شوجرا» تاج السهول،

ـ رحماك، ما هذا؟

ـ صمتا، إنانا، نواميس العالم نواميس كاملة،

إنانا، إياك أن تناقشي قوانين العالم الأسفل.

لدى ولوجها البوابة الثانية:

نزع عنها صولجان القياس وسلك اللازورد.

ـ رحماك، ما هذا؟

ـ صمتا إنانا، نواميس العالم الأسفل نواميس كاملة،

إنانا، إياك أن تناقشي نواميس العالم الأسفل.

وفي مقاطع متشابهة، تصف الأسطورة كيف نزع عنها حجارة اللازورد الصغيرة، والحجران البيضاويان، والسوار الذهبي، وصفيحة الصدر، ثم تنتهي إلى القول: «انحنت خفيضة، جيء بها عارية أمامها» أما وأن إنانا عارية تماما، فقد حانت لحظة معاقبتها على خرق القوانين الإلهية.

اعتلت أرشكيجال المقدسة سدة العرش،

الـ«أنونا»، القضاة السبعة، نطقوا الحكم أمامها،

سلطوا عليها، أنظار الموت،

نطقوا بحقها، كلمة الغضب،

صدرت عنهم الصيحة بوجهها، صيحة الإدانة،

ضربت، فاستحالت جثة هامدة،

علقت الجثة بالمسامير،

فى هذه الأثناء، كانت «ننشوبر» وزيرة إنانا تنتظر على أحر من الجمر عودة سيدتها من العالم الأسفل، وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليال، عندما لم تفلح فى العودة، تقوم «ننشوبور» بتنفيذ تعليمات سيدتها ـ على حسب الخطوات المرسومة سلفاً ـ فتطوف فى «بيت الآلهة» منتحبة، مجرحة الجسم، رثة الثياب، ثم تقصد معبد إيكور فى نيبور، وتبكى أمام إنليل.

أيت إنليل، لا تدع ابنتك تموت فى العالم الأسفل،

لا تدع معدنك الثمين يعلوه الغبار فى العالم الأسفل،

لا تدع لازوردك الثمين ينكسر كحجر الحجارين،

لا تدع العذراء إنانا تموت فى العالم الأسفل.

لكن «ننشوبور» لا تجد من إنليل أى تعاطف مع إنانا، وذلك لأنها ضربت بنواميس الآلهة عرض الحائط، ولم تكتف بحكم «الأعلى العظيم»، بل جرها طموحها لحكم «الأسفل العظيم» أيضاً، ثم تمضى ننشوبور إلى نانا والد إنانا. ولكن كان موقفه ـ ولنفس الأسباب ـ مشابهاً لموقف إنليل، فلم تجد ننشوبور أمامها إلا الإله إنكى، فتذهب إلى مدينة أريدو حيث معبد الإله، وتنتحب أمامه نفس النحيب، إلا أن موقفه كان مغايراً لموقف سابقيه:

الأب إنكى يجيب ننشوبور:

ماذا جرى الآن لابنتى: إنى قلق،

ماذا جرى الآن لإنانا: إنى قلق،

ماذا جرى الآن لبغى السماء: إنى قلق.

كان الإله «إنكى» ـ طبقاً للمعتقد السومرى ـ موكلاً بـ«طعام الحياة»، و«ماء الحياة»، اللذين يعيدان الحياة مرة أخرى إلى الآلهة. لكن المشكلة من الذى

سيوصلهما لإنانا بالعالم الأسفل، ويقوم برشهما عليها حتى تعود إليها الحياة؟ فحتى لو استطاعت ننشوبر أن تصل إليها فلن يتركها أحد فى العالم الأسفل تقوم بهذه المهمة، لذا كان على إنكى - المعروف عنه الذكاء والدهاء - أن يقوم برسم خطة لإنقاذ إنانا، وبالفعل رسم خطة - فيها شىء من التعقيد - يبتغى منها إجبار أرشكيجال على تسليم جثة إنانا وإحيائها، فعمد على خلق كائنين اثنين لا جنس لهما من وسخ أظافره، اسم أحدهما «كلاتور» والثانى اسمه «كرجرا»، وكان من الواضح أن هذين المخلوقين وحدهما يمكنهما أن يحظيا بالقبول فى العالم الأسفل من دون أن ينتبه أحد إلى مراميهما، ثم يعلمهما أنهما سوف يجدان هناك الإلهة أرشكيجال راقدة عارية، وتئن من المرض.

كانت التعليمات المسندة إليهما أن يبديا لأرشكيجال شفقة وعطفاً، وأن يتأوها ويئنا معها كما لو كانت آلامها هى آلامهما، فتتأثر بمشاركتهما لها فتكافئهما بوعد منها بأن تنقذ لهما كل ما يطلبان منها مهما كان طلبهما، لكن يجب عليهما - طبقاً لتعليمات إنكى - ألا يسلما بكلامها، بل أن يستحلفاها بالسماء والأرض. وعندما تُقدم لهما هديتان: الماء والحب، يجب عليهما ألا يقبلاهما، لأن الهدية المطلوبة جثة إنانا. ولما تسلم لهما يرشان عليها طعام الحياة وماء الحياة، فتعود الإلهة إلى الحياة، تقول نصوص الأسطورة:

أخرج «إنكى» من ظفر إصبعه وسخاً صنع منه كرجرا ،

أخرج من ظفر إصبعه الخضيبة بالأحمر وسخاً صنع منه كلاتور،

إلى كرجرا أعطى طعام الحياة ،

إلى كلاتور أعطى ماء الحياة ،

الأب إنكى يقول لكلاتور وكرجرا :

اذهبا ، مدا قدميكما نحو العالم الأسفل،

حوما على الباب كالذئاب ،

دورا حول الباب كما يدور المحور،

الأم الواهبة الحياة، بسبب أولادها،

أرشكيجال طريقة الفراش من مرض،

على جسمها القدسي لا يمد قماش،

صدرها القدسي مثل قارب شاجان،

شعرها كالعلق موضوع على رأسها.

عندما تصيح «ويلي! آه أحشائي!»،

قولا لها: أنت يا من تتأوهين، يا مليكتنا، آه أحشاؤك،

عندما تصيح «ويلي! آه أطرافي»،

قولا لها: أنت يا من تتأوهين، يا مليكتنا، آه أطرافك!،

«عندئذ تقول لكما»: «كونا ما تكونان»،

لأنكما قلتما: «من أحشائي إلى أحشائك»

من أطرافي إلى أطرافك،

إن كنتما إلهين، فسأنطلق بكلمة كريمة من أجلكما،

وإن كنتما بشريين، فسأكتب قدراً ملائماً لكما،

فاستحلفاها بالسماء والأرض.

من النهر سوف يأتونكما بالماء، فلا تقبلا،

من الحقل سوف يأتونكما بالحب، فلا تقبلا،

قولا لها: اعطنا الجثة المعلقة من المسمار،

واحداً منكما يرش لها طعام الحياة، والآخر ماء الحياة،

إنانا سوف تقوم.

إنانا تبحث عن فداء لها

وبالفعل ينفذ المخلوقان تعليمات «إنكى» كما رسمها لهما، وتعود الحياة مرة أخرى لإنانا، فتصعد إلى الأرض، وتدخل معابدها، لكن يبدو أن هناك عقبة لم يحسب الإله إنكى حسابها، فالناموس السماوى ـ طبقاً للمعتقد السومرى ـ لا يسمح لأحد ـ حتى ولو كان إلهاً ـ مغادرة العالم الأسفل سالماً إلا أن يحل محله آخر فداء له، ولعل هذا ـ ما رأيناه عند فداء الإله نانا إله القمر، فقد جرى نفس الناموس عليه، وقدم إخوته فداء له حتى يعود إلى العالم العلوى، تقول نصوص الأسطورة:

إنانا كانت تهم بالصعود من العالم الأسفل،

الـ«أنوناكى» أمسكوا بها قائلين:

مَنْ مِنَ الذين نزلوا إلى العالم الأسفل واتفق لهم أن يصعدوا سالمين،

إن كانت إنانا تريد الصعود فى العالم الأسفل،

فعليها أن تقدم شخصاً آخر بدلاً عنها.

وافقت إنانا على هذا الشرط ـ تقديم الفداء ـ وسُمح لها بمغادرة العالم الأسفل، ولكن للتأكد من أن هذه الإلهة ـ التى عرفت بالمكر والخداع ـ سوف تقدم بديلاً عنها ـ يقوم الـ «جلا»، وهم «حرس بلاد اللاعودة» من الكائنات الصغيرة غير البشرية التى لا تعرف الرحمة يتعقبها، وذلك حتى يعيدوها بالقوة إن هى لم تف بتعهدها.

وهكذا نرى إنانا وقد صعدت إلى الأرض وبصحبتها عفاريت الـ«جلا»، وكان جل همها هو تقديم إله من حاشيتها بديلاً عنها، وكان أول من صادفته «ننشوبور» المخلصة التى لم تكد ترى سيدتها عائدة من العالم الأسفل، وإلى جانبها عفاريت الـ«جلا»، حتى ارتدت ثياب الخيش وجثت على ركبتيها معفرة وجهها بالتراب. لذلك، عندما أمسك بها العفاريت المتلهفون للقبض عليها فداء

لإنانا، أوقفتهم إنانا قائلة:

هذه وزيرتى ذات الكلمات المناسبة،

رسولة كلماتى الصحيحة،

التى لم تخفق فى تنفيذ تعليماتى،

ولم تغفل كلمة نطقت بها.

بعد أن فشل الاختبار الأول، اصطحب الـ«جلا» إنانا إلى معبد سيكور - شجا فى «أوما»، حيث يعبد الإله «شارا» ابن إنانا، الذى لم يكد يرى أمه يتدافعها العفاريت العتاة حتى ارتدى هو أيضاً ثياب الخيش وخر ساجداً عند قدميها معفراً وجهه بالتراب. عندئذ أمسك به العتاة، ولكنها أوقفتهم قائلة:

هذا ابنى شارا الذى يرتل الترانيم لى،

الذى يقص أظافرى، ويسرح شعرى،

إياه لن أعطيكم مهما كان الثمن.

بعد ذلك يصطحبها الـ«جلا» إلى معبد «آموش جلاما» فى «بدتيبيرا» حيث يعبد الإله «لولال» ابن إنانا، وهو أيضاً عند رؤية أمه على هذا الوضع، ارتدى ثياب الخيش وألقى بنفسه عند قدميها، وعندما أمسك به الـ«جلا» أوقفتهم للمرة الثالثة قائلة:

هذا ابنى لولال، القائد،

الذى يقف عن يمينى وشمالى.

إنانا تقدم «دموزى» فداء لها

يصل الـ«جلا» أخيراً إلى «إيريك» مدينة إنانا، وعندما وصلوا إلى هناك رأوا «دموزى» يجلس بجلال فى مجلسه، مرتدياً ثياباً فاخرة، وكرسيه يتلألأ

كعرش رفيع، وكان يقيم حفلاً كبيراً توزع فيه الأطعمة والخمور، هذا المشهد هو الذى جعل إنانا تقرر إرسال دموزى إلى العالم الأسفل، وتقديمه إلى الموت، فقد كان طيلة فترة غياب زوجته إنانا فى العالم الأسفل غير مبالٍ، وقد رأته الآن يرتدى أفخر الثياب ويقيم الحفلات، فى حين كان باقى أتباعها ينوحون ويتأوهون لغيابها، ولمصيرها المظلم.

ذلك كله أغضب إنانا حتى:

سلطت عليه عينها، عين الموت،

نطقت الكلمة بحقه، كلمة الغضب،

أطلقت صيحة فى وجهه، صيحة التأثيم.

يتم القبض على دموزى من قبل الـ«جلا»، فيدرك دموزى أن مصيره قد أضحى مظلماً، فلم يجد أمامه إلا أن يستنجد بالإله «أوتو» إله الشمس الذى كان يحبه، والذى سبق له وأقنع أخته إنانا بالزواج من دموزى، تقول النصوص:

إيه أوتو، أنا صديقك، أنا الفتى الذى تعرفه،

اتخذت أختك زوجاً،

فنزلت إلى العالم الأسفل،

استبدلتنى بها لأكون عوضاً عنها فى العالم الأسفل،

إيه أوتو، أنت القاضى العدل، لا تدعنى أموت،

غير يدى، بدل صورتى،

دعنى أفلت من شياطينى، فلا يمسكوا بى،

مثل حية «ساجال» سوف أجتاز مروج الروابى،

سوف أنقل روحى إلى بيت الأخت جشتى نانا.

يستجيب أوتو لتوسلات دموزى، فيحوله إلى حية أو كما تقول الأسطورة:

أوتو قبل دموعه،

غير له يديه، وبدل له صورته،

مثل حية «ساجال اجتاز مروج الروابى،

دموزى ــ روحه غادرته مثل باز ينقض على عصفور،

انتقلت روحه إلى بيت جشتى نانا .

وما إن رأته أخته جشتى نانا حتى أخذت فى النواح والنحيب:

جشتى نانا حدقت فى أخيها ،

خدشت وجنتيها ، مزقت فمها ،

نظرت إلى خاصرتها ، شقت ثيابها ،

صدر عنها نواح مر على السيد المعذب :

أواه يا أخى، أواه يا أخى، الفتى الذى لم تكن أيامه طويلة ،

أواه يا أخى، الفتى الذى لا زوج له ولا ولد،

أواه يا أخى، الفتى الذى لا صديق له ولا رفيق،

أواه يا أخى، الفتى الذى لا يجلب العزاء لأمه .

يعلم عفاريت الـ«جلا» أن دموزى قد فر إلى بيت أخته، ولكن دموزى كان قد غادر البيت لأنه على يقين أن العفاريت سوف تتبعه إلى هناك، وبالفعل يصلون إلى بيت أخته ويأخذون فى صب ألوان العذاب عليها لتدلهم على مكان أخيها، ولكن عبثاً حاولوا:

صفق العفاريت بأيديهم، وانطلقوا يبحثون عنه ،

العفاريت مضوا إلى بيت جشتى نانا ،

قالوا لها «دلينا أين يختبئ أخوك» لكنها لم تدلهم،

جاءوا بالسماء قريباً منها ،

ووضعوا الأرض فى حجرها ،

لكنها لم تدلهم،

صبوا فى حجرها قارا ، لكنها لم تدلهم،

لم يجدوا دموزى فى بيت جشتى نانا .

ويبدو أن دموزى كان يشعر بدنو أجله، فبينما هو مضطجع بين البراعم نائماً رأى حلماً مخيفاً، ولم يكن من أحد يستطيع تفسير هذا الحلم إلا أخته جشتى نانا، وبالفعل نجد دموزى يحكى منامه لأخته، ويبدو أنه قد رأى هذا الحلم قبل أن يذهب إلى أخته هارباً بعد أن حوله أوتو إلى حية، أو رآه بعد ذلك فى إحدى مرات هروبه ـ والتى توالت ـ قبل أن يمسك به العفاريت:

عن الحلم، أختاه، عن الحلم، ... هذا لباب الحلم:

الأسل يطلع فى كل ما حولى،

الأسل يتكاثف فى كل ما حولى،

براعة طالعة وحدها تحنى رأسها إلى،

من براعة طالعة شعبتين، إحداهما تزول ،

فى الغيضة المشتجرة ، الروع الآتى من الأشجار السامقة يطلع فى كل ما حولى،

على مثواى المقدس لا يسكب الماء ،

من ماخضتى المباركة ، قاعدتها تزول ،

الكوب المقدس المعلق إلى وتد ، من الوتد يسقط ،

محجنى، محجن الراعى، اختفى،

بومتى تأخذ . . .

باز يمسك حملاً ببرائنه،

جدائى الصغار تجرجر لحها اللازوردية على الغبار،

أغنام حظيرتى تدب على الأرض بقوائم ملتوية،

الماخضة على الأرض محطمة، ما من لبن يسكب،

الكوب عى الأرض محطم، دموزى لن يعيش بعد هذا،

حظيرة الغنم فى مهب الريح.

ثم تمضى جشتى نانا فى تأويل هذا الحلم الذى ينذر بشر مستطير فقرة فى إثر فقرة:

أى أخى، غير ملائم هو حلمك، فلا تحكه لى؛

دموزى، غير ملائم فى حلمك، فلا تحكه لى،

الأسل يطلع فى كل ما حولك، الأسل يتكاثف فى كل ما حولك.

سفاحون سوف ينقضون عليك.

اليراعة الطالعة وحدها تحنى رأسها إليك،

أمك التى حملتك سوف تحنى رأسها إليك.

من اليراعة الطالعة شعبتين، إحداهما تزول،

أنا وأنت ــ واحد منا سوف يزول.

فى الغيضة المشتجرة، الروع الآتى من الأشجار السامقة.

يطلع فى كل ما حولك ــ الأشرار سوف يرعبونك.

على مثواك المقدس ما من ماء يسكب ،

حظيرة الغنم سوف تغدو بيتاً خراباً .

من ماخضتك المبارك ، قاعدتها تزول ،

الأشرار سوف يشددون قبضتهم عليك .

الكوب المقدس المعلق إلى وتد ، من الوتد سقط ،

سوف تقع من ركبتها الرشيقة ، ركبة أمك التى حملتك .

محجنك ، محجن الراعى ، اختفى ،

الشرير سوف يفعل كل ما من شأنه أن يضعفك .

بومتك تأخذ . . .

الشرير سوف يأخذ .

البازى الذى يمسك الحمل ببراثنه ،

هو العفريت الكبير الذى سوف يطردك .

جدائك الصغار التى تجرجر لحاها اللازوردية على الغبار ، . . سوف يدوم فى السماء مثل الزوبعة .

بعد ذلك يخبر دموزى أخته أنه سوف يختبئ، وينبه عليها ألا تخبر أحداً بمكانه، وكان يخاطبها هنا بصفة الصديقة دون الشقيقة:

صديقتى سوف أختبئ بين الزرع ، لا تقولى أين أنا ،

سوف أختبئ بين النباتات الصغيرة ، لا تقولى أين أنا ،

سوف أختبئ بين النباتات الكبيرة ، لا تقولى أين أنا ،

سوف أختبئ بين أخاديد «أدالى» ، لا تقولى أين أنا .

تعده أخته جشتى نانا وتحلف له:

إذا قلت أين مخبؤك، فلتأكلنى كلابك،

الكلاب السود، كلاب راعويتك،

الكلاب البرية، كلاب سيديتك،

ألا، فلتأكلنى كلابك.

يبدو أن أحد أصدقاء دموزى يعرف بمكان اختبائه بالإضافة إلى أخته، وعندما يحاول عفاريت الـ«جلا» إغراء أخته ورشوتها حتى تخبرهم بمكان دموزى لا يفلحون فى ذلك، أما صديقه فكان إغراؤه سهلاً، فيفشى سره ويرشدهم عن مكان دموزى:

من النهر جاءوها بالماء، فلم تقبل.

من الحقل، جاءوها بالحب، فلم تقبل

ذهبوا إلى صديقه وأعطوه حبوباً،

فقال لهم: دموزى اختبأ فى العشب،

لكنى لا أعرف المكان،

دموزى اختبأ فى قنوات «أدالى».

قبضوا على دموزى الذى صرخ:

شقيقتى أنقذت حياتى... صديقى سبب موتى.

يفلح عفاريت الـ«جلا» فى الإمساك بدموزى، فيعذبونه ويوثقونه، ولم يكن أمامه إلا التضرع للإله «أوتو» الذى يستجيب له، فيحوله إلى غزال، فيهرب دموزى، إلا أن العفاريت يمسكون به مرة أخرى، فيتدخل «أوتو» ويحوله مرة أخرى إلى غزال، ويهرب دموزى مرة أخرى، ويختبئ بحظيرة أغنام أخته، ولكن

هذه المرة يمسك به الـ«جلا» ولا يستطيع الهرب منهم، تقول نصوص الأسطورة فى وصف هذا المشهد المريع:

العفريت الأول، وهو يدخل الحظيرة والإصطبل،

طعنه على خده بمسمار ثاقب،

والثانى، ضربه على خده بمحجن الراعى،

والثالث، أزال القاعدة من الماخضة المباركة،

والرابع، رمى من على المشجب الكأس المعلق على المشجب،

الخامس، حطم الماخضة، لا لبن يسكب منها،

حطم الكأس، دموزى لن يعيش بعد هذا،

حظيرة الغنم فى مهب الريح،

لقد مات دموزى.

لكن أخته لا تدعه يواجه هذا المصير وحده، فتلحق به وتنزل معه إلى العالم الأسفل لعلها تفعل له شيئاً بدلاً من العويل والنحيب، وما إن رأته حتى صرخت:

من أختك؟ إنى إختك.

من أمك؟ إنى أمك.

اليوم الذى سيطلع لك سيطلع لى،

اليوم الذى تراه سأراه أنا أيضاً،

وكل ما قدر عليك سيقدر على.

دهش دموزى المدمى الممزق الثياب، وقال لأخته:

أواه يا أختى التى ستكون أملى،

إننى أذرف الدمع كالطفل،

وأجهش بالبكاء أمامك كالطفل.

حين رأت الإلهة «أرشكيجال» ـ ملكة العالم الأسفل ـ دموزى وأخته على هذا الحال ـ بديلاً عن إنانا التى تكرهها ـ رق قلبها على هذا المسكين وعلى أخته، فأمرت أتباعها وقالت:

«أكرموا دموزى فى عالمه هذا، أكرموا الإله الراعى،

وامسحوا دماءه وطيبوا جسده بالزيت».

ثم التفتت إلى «جشتى نانا» المفجوعة بأخيها وقالت:

«لتعمل جشتى نانا سيدة دالية الكروم كاتبة للعالم الأسفل، ولتكرم فى مكانها هذا، فهى العارفة الكاهنة سيدة قصرى، ولتتزوج من ولدى ـ ننكشزيدا ـ الرسول الأبدى لعالمنا الأسفل».

ثم التفتت «أرشكيجال»، وقالت لأتباعها:

«ليكرم هذا الأخوان اللذان ساقتهما رعونة ـ إنانا ـ التى لن تفلت من قبضتى، ليكرما فيقضى دموزى نصف السنة الصيفى هنا، وستجدب الأرض والعالم الأعلى، وليقضى نصف السنة الشتوى على الأرض، وليرجع هناك فتخصب الإناث وتتكاثر الحظائر ويزدهر الشجر، ولتكن ـ جشتى نانا ـ رهينتى عندما يكون دموزى على الأرض، وليكن دموزى رهينتى عندما تكون ـ جشتى نانا ـ على الأرض».

وبذلك تنتهى الأسطورة ببقاء «دموزى» نصف السنة الصيفى ميتا فى العالم السفلى، حيث تجدب الأرض أما نصف السنة الشتوى فسيكون حياً فى العالم العلوى، حيث تنمو الأرض وتزدهر وفى هذا النصف ستكون أخته ـ والتى ضحت

من أجله ـ موجودة بدلاً منه بالعالم السفلى.

دموزى والسيد المسيح

فى مجال عقد المقارنة بين قصة الإله دموزى وحياة السيد المسيح ـ كما جاءت بالأناجيل، يقول كريمر:

«من بلاد الرافدين انتقل موضوع موت دموزى وقيامه إلى فلسطين، وليس عجيباً بعد هذا أن تجد نسوة أورشليم يعولن على «تموز» «دموزى» فى إحدى بوابات معبد أورشليم، ولا يستبعد أبداً أن تترك أسطورة موت دموزى وقيامته بصمتها على قصة «المسيح»، بالرغم من الفجوة الروحية العميقة بينهما.

ولقد كانت عدة أفكار رئيسية فى قصة المسيح، مما يمكن إرجاعه إلى أصول «سومرية»، مثل قيامة الإله بعد ثلاثة أيام وليال فى العالم الأسفل، ومفهوم الثلاثين شاقلاً، وهو المبلغ الذى قبضه يهوذا ثمن خيانة سيده، دلالة على الاحتقار والزراية، وكذلك لقب الراعى «وهو لقب دموزى»، والمسيح والذى يعنى الممسوح بالزيت رأسه عند تتويجه ملكاً، وربما النجار.

وهناك واقعة لا تقل أهمية وهى أن أحد الآلهة، الذين سوف يتحداهم دموزى، هو الإله دامو «الطيب»، الذى عهدت إليه أمه بمهمة الشفاء بواسطة طرد العفاريت. إلى هذه جميعاً لعلنا نستطيع أن نضيف الآن «والكلام لكريمر» العذاب الذى لقيه دموزى على أيدى العفاريت العتاة، مما يذكرنا إلى حد ما بآلام المسيح: شد وثاقه بالمسامير، أجبر على خلع ثيابه والركض عارياً، جلد وضرب.

وقد صرنا ـ فوق كل هذا ـ نعلم أن دموزى، وهو فى هذا لا يختلف عن المسيح، لعب دور البدل الذى تعذب نيابة عن البشرية، فلو لم يحل محل إنانا، إلهة الحب والتكاثر والخصوبة فى العالم ـ طبقاً للأسطورة السومرية ـ لكانت جميع أشكال الحياة على الأرض قد أوفت على نهايتها. لكننا نسلم بأن نقاط

الافتراق بين الاثنين أكبر وأظهر من نقاط الالتقاء، فدموزى لم يكن «مسيا» يبشر بقيام ملكوت الله على الأرض.

غير أن قصة المسيح لم تنشأ وتتطور فى فراغ، فلابد أن يكون لها سوابق وأصول، أهمها وأبعدها أثراً القصة المبكية لدموزى، الإله الراعى وما آل إليه من مصير محزن، وهى أسطورة كانت شائعة فى جميع أنحاء الشرق القديم على مدى ألفين من السنين» أ. هـ

■ ■ ■

أسطورة إنكى

مولد إنكى وزواجه بننخرساج

إنكى أخو الإله «إنليل»، وهو الابن الثانى للإله «آن» إله السماء، وأمه «كى» إلهة الأرض. وإنكى هو إله الماء، ويوصف بأنه إله الحياة لأنه أب لكل شىء حى. وهو لذلك إله الطب والشفاء وهو إله الحكمة وإله السحر، ويشكل مع أبيه «آن» وأخيه «إنليل» الثالوث السومرى الأول. ومدينة إنكى المقدسة هى «أريدو» (أبو شهرين الحالية)، وهو سليل «أبسو» مياه الأعماق، ورمز الإله إنكى السومرى هو الجرة الكمثرية الشكل التى تنبع منها خطوط المياه، ويقابله فى الأكدية الإله «إيا» الذى كان اسمه الأكدى يلفظ فى الأصل «آ»، وربما لفظ فى الأصل كـ«حيا» الذى يدل على الحياة، ويعتقد أن اسم الإله الحثى «آش» والاسم اليونانى «آوس» مشتقان منه.

يقول إنكى عن نفسه:

أنا الرب، من إذا أمر لا يسأل عن أمره.

أنا الأول من بين جميع الأشياء.

بأمرى، الاصطبلات شيدت، وحظائر الغنم سورت.

عندما قاربت الأرض، فاضت ينابيع.

وعندما قاربت مروجها الخضر.

تكدست الحبوب أكواماً وتلالاً بكلمتى.

لكن إنكى لا يأتى بالمطر من السماء لإخصاب الأرض وحسب، وإنما هو

يملأ الأنهار بالماء العذب الرقراق، تقول النصوص:

عندما رفع الأب إنكى عينه على نهر الفرات.

وقف بخيلاء كالثور الهائج.

رفع قضيبه، وقذف بالمنى.

فملأ دجلة بالماء الرقراق.

البقرة البرية تخور من أجل صغارها فى المراعى.

استسلم له دجلة كما لثور هائج.

رفع قضيبه ومعه هدية الزفاف.

جاء بالفرح إلى دجلة مثل ثور برى كبير عند الإخصاب.

الماء الذى جاء به ماء رقراق، نبيذه حلو المذاق.

الحبوب التى جاء بها، حبوبه غنية، يأكلها الناس.

ملأ «أيكور» بيت إنليل، بالمقتنيات.

بأنكى إنليل يبتهج، وتسر نيبور.

بعد ذلك ـ وبأمر من الأرباب ـ يسكن إنكى مدينة «دلمون» وهى الأرض التى اعتبرها السومريون خالية من الشرور، ومسكونة من قبل الآلهة والخالدين من البشر، ويعتقد أن دلمون هى بلاد البحرين حالياً، وهى تشكل الفردوس السومرى، ولكنها لا تقابل مفهوم وحقيقة الجنة عند المسلمين، وذلك لأن العقائد الدينية السومرية لا تتضمن فكرة الثواب والعقاب، ومن ثم ذهاب المثاب إلى الجنة، بل نرى أن دلمون هى مكان الآلهة أولاً، ثم هى مكان الخالدين من البشر مثل «زيوسدرا» السومرى و«أوتونابشتم» البابلى الذى يرد اسمه فى ملحمة جلجامش، فهو حين ينال الخلود من قبل الآلهة ـ بعد أن أنقذ الجنس

البشرى والحياة من الطوفان - يوضع فى دلمون مكافأة له.

وفى أرض «دلمون» يتقدم إنكى إلى «ننخرساج» ليتزوجها، فترفض فى بادئ الأمر، لأنها رأت أن إنكى إله لعوب محتال ذكى، فألح إنكى ليتزوجها فرفضت مرارا ثم قبلت الزواج منه.

وننخرساج تعتبر إلهة الأرض كلها، وإلهة الخصب والحياة على الأرض، ولها أكثر من اثنى عشر اسم دال عليها، كل اسم فى حقيقة الأمر يمثل صورة أو شكلاً جديداً من أشكالها مثل:

«دامكال نونا: زوجة الأمير الكبيرة» و«ننكى: سيدة الأرض»، و«ننماخ: السيدة الكبيرة»، و«ننتو: السيدة الكبيرة»، و«مامى: الأم»، و«كاتوم دوك: إلهة الأطفال» و«بيليتى: سيدة الإنجاب»، و«دنكيرما: الإلهة الأم»، و«ننمينا: سيدة القبعات الإلهية».

بعد ذلك يتصل إنكى «الماء» جنسياً بننخرساج «الأرض» ومن الطبيعى أن ينتج من هذا الاتصال بين الماء والأرض ظهور النبات، لهذا تلد الإلهة ننخرساج الإلهة «ننسار» إلهة النباتات.

إنكى يضاجع بناته

بعد أن كبرت «ننسار» ابنة إنكى وننخرساج، يراها إنكى على ضفاف النهر - وهو لا يعرفها - فيود مضاجعتها، ويعرض الأمر على وزيره «إيسمد» فيبدى له الموافقة، فيدعوها إنكى إلى قاربه ويضاجعها فتحمل منه وتلد الإلهة «ننمو» إلهة الألياف، وهذا يرمز للتماس بين المياه والنباتات بشكل متصل والذى ينتج عنه ظهور الألياف.

وبنفس الطريقة يشاهد إنكى الإلهة «ننمو» إلهة الألياف، ويرغب فى مضاجعتها، ويسهل له وزيره «إيسمد» الأمر، ويضاجعها إنكى، فتحمل وتلد الإلهة «ننكور» إلهة الأصباغ، التى تأتى من اتصال النباتات والألياف بالمياه،

وترمز أيضاً إلى سلسلة من التفاعلات بين الماء والنباتات.

وبعد ذلك يضاجع إنكى الإلهة «ننكور» لتلد بعدها ابنتها «آتو» إلهة النسيج، وهو أمر منطقى أن يأتى النسيج بعد الأصباغ، وكانت «آتو» رائعة الجمال، فتراها «ننخرساج» فتحذرها من إنكى: «أيتها العذراء الغالية، ليكن طريقك مليئاً بالنور وحياتك مرهفة هانئة عليك أن تبتعدى عن هذا المتقلب المحتال إنكى».

وبالفعل، عندما يطلب إنكى من «آتو» مضاجعتها ترفض، وتطلب منه أن يقدم لها الهدايا وأن يتقدم للزواج منها، ويفعل إنكى كل ما طلبته منه، ويتزوجها، وتلد له ثمانى أشجار.

ونجد أن هذا الجزء من الأسطورة يقترب إلى أشد الاقتراب من مضاجعة نبى الله «لوط» لبنتيه دون أن يدرى، وذلك بعدما سقتاه ابنتاه الخمر طبقاً لما ورد بالإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين.

إنكى يأكل النباتات السامة

هذه الأشجار أو النباتات الثمانية والتى ولدتها «آتو» كان منها ما هو محرم، ومنها ما هو سام، إلا أن «إنكى» وجدها نباتات زاهية فأخذ يأكل منها، ولهذه الفعلة لعنته ننخرساج، فسرت اللعنة فى ثمانية أماكن من جسده، وسقط إنكى يئن من مرضه، ولذلك دب الخراب فى الأرض - فإنكى هو إله الماء - فاجتمع الآلهة وقرروا البحث عن «ننخرساج» والتى اختفت بعد لعنتها لإنكى - حتى تداويه من العلل الثمانى التى حلت به وإلا لن تقوم للأرض قائمة.

ترق ننخرساج لحال إنكى، وقامت بولادة الآلهة الثمانية ليقوم كل إله منها بشفاء علة من علل إنكى، فولدت «آبو» إله النباتات ليشفى عينيه، والإله «ننتلا» من أجل فكه، والإلهة «ننسوتو» زوجة «ننازو» أحد آلهة العالم السفلى من أجل ضرسه، والإلهة «ننكاسى» التى تشفى آلام الفم والتى تشبع شهوة القلب من

أجل فمه، والإله «نازى» من أجل رقبته، والإلهة «أزيموا» من أجل ذراعه، والإلهة «ننتى» سيد الضلع من أجل ضلعه، والإله «اينشاج» من أجل ساقه، وبعد ذلك يتعافى إنكى ويصبح قادراً على القيام بعمله.

إنكى يدعو «إنانا» ويمنحها النواميس المقدسة

الإلهة «إنانا» هى إلهة الحب والجمال والخصوبة والتناسل والمتكفلة بحراسة مدينة «إيريك أو أوروك» ويعنى اسمها حرفياً «ملكة السماء، ولها عدة رموز أهمها القصبتان المعقوفتان المذيلتان والقصبة ذات الحلقات الست والنجمة الثمانية ذات الستة عشر شعاعاً، وهى ابنة الإله «ننار» إله القمر، وتلعب دوراً شعبياً كبيراً فى نشر ممارسات الحب والجنس، وأصبحت إنانا نواة لأهم إلهة فى العالم القديم، فهى عند الساميين «إشتار أو عشتار»، وهى البطلة الرئيسية فى طقس الزواج المقدس.

تقول الأسطورة إن الإلهة إنانا قدمت إلى «الأبسو» مقر الإله إنكى، فأمر إنكى، وزيره «إيسمد» أن يرحب بها أشد الترحيب، وأن يقدم لها ما لذ وطاب، ثم قابلها «إنكى» وأخذ يشرب الخمر، ويرفع أنخابه للعذراء إنانا.

وفى غمرة سكرته يمنح إنكى لـ«نانا» النواميس المقدسة «مى» وهى مشتقة من كلمة سومرية غامضة المعنى، وربما تعنى الوجود، وتشمل مؤسسات الوجود ونظام الكون الدنيوى والسماوى الذى تسيره قوى إلهية خيراً أو شراً، ويعرف البعض هذه النواميس الإلهية بأنها جملة الوظائف المرتبطة بالطقوس أو العادات أو العبادات والأعراف، ويعرفها البعض الآخر بأنها الوجود الإلهى فى الهيولى الميتة أو الحية بشكل أزلى، وهى غير مشخصة بجد ولكن بواسطتها تتحكم الآلهة بأمور العالم.

أخذت إنانا هذه النواميس فى قاربها السماوى لتعود إلى مدينتها المقدسة «أوروك» وتودع «أريدو»، وهذا يشير إلى انتقال السلطة والملوكية من «أريدو»

إلى «أوروك».

وبعد أن صحا إنكى من سكرته سأل عن نواميسه المقدسة وزيره إيسمد، فأخبره أنه وهبها لابنته إنانا وهو فى حالة سكره، فيأمر إنكى وزيره إيسمد أن يمنع قارب إنانا السماوى من الوصول إلى أوروك، وذلك بأن يذهب ومعه وحوش البحر ويقتفون أثر إنانا.

وبالفعل يصل إيسمد ومعه وحوش البحر إلى قارب إنانا، ويخبرها أن إنكى أمرها أن تذهب إلى أوروك ولكن عليها أن تعيد قارب السماء - والنواميس المقدسة إلى أريدو، فتستنجد إنانا بوزيرها «ننشوبر» لينقذ القارب السماوى ونواميس إنانا الإلهية من أيدى وحوش البحر، فيهجم «ننشوبر» عليهم وينقذ المركب والنواميس الإلهية. ويتكرر هجوم وحوش البحر على المركب عدة مرات، وفى كل مرة يهزمهم «ننشوبر» حتى وصل القارب بسلام إلى مدينة أوروك مدينة إنانا.

■ ■ ■

أساطير الخلق السومرية

بداية الخلق

تقول الأسطورة إن كل شىء كان فى «نمو»، ونمو هى الإلهة السومرية الأم الأولى، والمعنى الحرفى لاسمها «ماء الأم»، وهذا تشبيه صريح لولادة الكون بالولادة البشرية. واسمها يشير إلى المياه الأزلية ـ مثل «نون» عند الفراعنة ـ التى ظهر منها الكون والآلهة.

كانت «نمو» ساكنة، لكنها تحركت، وبدافع الحركة والسكون كان ظهور السماء والأرض، وكانا فى حالة التصاق وعناق، والسماء فى الأساطير السومرية ذكر يمثله الإله «آن»، وقد تزوج إلهة الأرض «كى» وسكبت الأمطار من السماء على الأرض ـ وكأنها المنى، فالمطر هنا يأخذ مدلولاً جنسياً ـ فينتج عن ذلك ظهور النباتات، ويسيل الخمر والعسل، وولد لهما الإله «إنليل» إله الهواء، وكلمة إنليل مكونة من مقطعين «إن» التى تعنى السيد و«ليل» التى تعنى الهواء أو الريح ويلقب بجبل الريح. بعد أن كبر إنليل فصل بين أمه وأبيه، فرفع أباه السماء «آن» إلى أعلى، وبسط أمه الأرض «كى».

بعد ذلك جلس «آن» على عرش السماء، وترأس مجلس «الأنوناكى»، وهو مصطلح سومرى يشير إلى جموع الآلهة فى السماء والأرض، ومعناه الحرفى باللغة السومرية «أرض بذور الحياة الأميرية»، وكان السومريون يعتقدون أن هذا المجلس أو هذه الهيئة عبارة عن طائفة من الكائنات الحية، لهم هيئة كهيئة الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت، وهم يديرون دقة العالم ويتحكمون به وفقاً لخطط رسمت بعناية، ونواميس قدرت حسب الأصول، فهناك آلهة موكول إليهم أمر السموات والأرض والهواء والبحار، وآلهة موكول

إليهم أمر الشمس والقمر والكواكب... إلخ، وكان أكبر الآلهة الذين يتحكمون بالعناصر الأربعة الرئيسية التى يتألف منها الكون: السماء والأرض والهواء والبحر، ويمثلهم الآلهة: آن، كى، إنليل، إنكى. وكانت وسيلة الخلق عندهم تقوم على استخدام الكلمة الإلهية، فكان كل ما على الإله الخالق - حسب معتقدهم - هو أن يرسم الخطط ويتفوه بالكلمة وينطق الاسم.

خلق الإنسان

تقول الأسطورة إن الآلهة بدأت تشعر بالتعب، فقد وجدوا أنهم تحولوا إلى عبيد الأرض التى صنعوها، وأن الحمل قد صار ثقيلاً، فاجتمعوا وقرروا أن يذهبوا إلى «إنكى» إله الماء والحكمة، ليشتكوا له وليخلق لهم خدماً يقومون مقامهم فى حرث وسقى الأرض ورعى الماشية.

كان إنكى مضطجعاً بعيداً فى «الأبسو»، وكان نائماً قرب «نمو» سيدة المياه الأزلية - وهى تظهر هنا كأم للإله إنكى - فاشتكوا إليها، فوضعت على راحة يديها دموع الآلهة وذهبت إلى إنكى له: «انهض يا بنى من فراشك.. من مضجعك واصنع كل ما هو حكيم. اخلق خدماً للآلهة يحملون عنهم عناء العيش وقسوة الحياة».

وبعد أن فكر «إنكى» قرر القيام بخلق كائن لا إلهى يقوم مقام الخادم للآلهة، ثم أخذ يعلم «نمو» كيفية خلق هذا الكائن: «امزجى الصلصال. لب الطين الموجود فى مياه «الأبسو» العميقة التى أقيم فيها وسأدعو الصناع الإلهيين المهرة ليكشفوا الطين ويعجنوه، أما أنت فعليك أن توجدى له الأعضاء وستعمل الإلهة ننمناخ «ننخرساج»، معك يداً بيد وستقف ربات الولادة الثمانى إلى جانبك لكى يتكون ويولد من الطين، قدرى مصيره يا زماه وستطبع عليه «ننماخ» صورة الآلهة. يكون شبيهاً بنا فى خلقه لكى يكون قريباً منا فى العمل والراحة ولكى لا يشعر بأنه غريب تماماً عنا وسيكون هذا المخلوق هو: الإنسان».

تفتخر الإلهة «ننماخ» أمام الآلهة بأنها هى التى ستخلق الإنسان، وهى التى ستحدد الطيب من نصيبه أو السوء، فيقول لها إنكى «سواء جعلت نصيبه الطيب أو السوء فإننى سأوازنه، وليشاهد الآلهة خلقك وخلقى وليحكموا بعد ذلك على ما نصنعه».

أخذت ننماخ حفنة من الصلصال الموجود فوق «الأبسو» وصنعت ستة أشخاص، الأول غريب، والثانى فيه عاهة، والثالث لا يستطيع إيقاف بوله، والرابع امرأة مشوهة، والخامس امرأة عاقر، والسادس الرجل الخصى. فأراد إنكى أن يختبر ما صنعته ننماخ، فقدم لهم الطعام، فتناولت المرأة العاقر طعامها وكذلك فعل الرجل الخصى، فقرر إنكى أن يحدد لهما مصيرهما فقال: «المرأة العاقر تكون وصيفة للملكة فى دار النساء، والرجل الخصى يكون فى خدمة الملك».

ويجىء الدور على إنكى لكى يقوم هو بعملية الخلق، فصنع إنساناً بائساً أطلق عليه اسم «أومول» وهو الشيخ الطاعن فى السن والذى عيناه ذابلتان وحياته فانية.. وكبده وقلبه ويداه ترتجفان وقدم إنكى مخلوقه إلى ننماخ، فتحاول الأخيرة إطعام هذا الإنسان ولكن لم يقو حتى أن يمد له يداه، فنهرت ننماخ إنكى لأنه خلق بائساً، فجلب البؤس إلى العالم، وخلق مريضاً فجلب المرض - الذى سيلازم الشيوخ - إلى العالم، وتتدخل الآلهة لفض الاشتباك بين إنكى وننماخ، وقاموا جميعاً بخلق الإنسان الصحيح من طين المياه العميقة، وبثوا فيه الروح، وخلقوا ذكرا وأنثى حتى يتكاثر من تلقاء نفسه فلا تتعب الآلهة من تكرار الخلق، فولد الذكر والأنثى أبناء كثيرين، وتكاثر هؤلاء بدورهم، وخدموا الآلهة، وكان الإنسان الضعيف يخدم الآلهة ويخدم الأقوياء من البشر، فزادت الشرور فى الأرض وكثر الظلم.

وردت فى بعض النصوص السومرية إشارات تجعل من الإنسان إلها، ولكنه إله ضعيف أو مآله إلى الموت والفناء وقد سمى «لولو» الذى يعنى الإنسان

البعيد، وكذلك وردت إشارات توحى أن هذا الكائن هو بمثابة ابن الإله «إنكى»، ومن هذا المنطق أثير الاعتقاد أن فكرة الأب الإلهى انطلقت من هذه الإشارة، حيث يظهر الإنسان وكأنه ابن الله، وهو ما ظهر فى العقيدة المسيحية.

ولمحت بعض النصوص الأسطورية الخاصة بخلق الإنسان فى الدين السومرى إلى خلق الإنسان بطريقة تشبه زرع البذور فى الأرض، وظهور البشر على الأرض نتيجة لهذا الزرع، وكان الإله إنليل هو الذى يقوم بهذا العمل، وذكرت أسطورة أخرى أن الإنسان كان حيواناً يمشى على أربعة ويشرب ويأكل كالخراف ولا يلبس الملابس.

مأساة الإنسان الصابر «أيوب السومرى»

وهذه القصة مثال على القيم الروحية فى الأدب السومرى، وهى عبارة عن قصيدة لحكيم سومرى تنم عن ألم نفسى قاس، وصبر إنسانى، وهى تتشابه فى كثير من جوانبها مع قصة أيوب النبى، وصبره على ما انتابه من الآلام. وهى تروى قصة رجل كان غنياً وحكيماً وصالحاً، ابتلى بالمصائب والآلام فاجتازها بصبر وثبات، وسكب قلبه ودموعه أمام إلهه متذللاً طالباً إليه إنقاذه من ضيقه وتعاسته، فرق له الإله وحول شقاءه إلى سعادة، وبدل ترحه إلى فرح.

فى البداية يعلن الحكيم عن وجوب تعظيم الإله، واللجوء إليه، فيقول:

لينشد الإنسان بحمد ربه، بعظمة إلهه.

ليسبح الشاب بحمد ربه بكلمات صادقة.

كيف يئن من يعيش فى بلاد عادلة؟

ثم يشكى الحكيم مرارة ما يعانيه للإله، فيقول:

أنا الرجل، أنا الحكيم، إن من يذكرنى باحترام لن يفلح.

إن كلمتى الصادقة أصبحت كذباً.

إنك غمرتنى بآلام تتجدد كل يوم.

وصديقى لم يقل عنى كلمة صدق.

إن صديقى كذب كلمتى الصادقة.

الأفاك تآمر ضدى.

وأنت يا إلهى لم تمنعه.

أنا.. أنا الحكيم.. لماذا أكون مرتبطاً بشباب جهال؟

أنا.. أنا الفطين.. لماذا أحصى بين الجهال؟

وطعامى.. إن طعامى انقلب إلى جوع.

وفى يوم التوزيع.. وزعت الأنصبة للجميع وكان نصيبى الألم.

ثم يتذلل إلى إلهه حتى يفرج عنه الكرب:

يا إلهى، إنى واقف.

هل أخاطبك؟ إن كلامى لأنين.

إنى أخبرك عنه، هل تثير فى طريقى مرارة الأنين.

هل ينقلب النشيد إلى عويل؟

يا إلهى.. إن النهار يسطع بأضوائه على الغبراء، أما أنا فنهارى ظلام.

إن النهار يسطع، إن النهار الجميل يتألق كالشعاع.

وأما أنا، فدموع وعويل وأنين وشكوى.

الآلام تغمرنى، كأنى لم أخلق إلا للدموع.

إن الشؤم، طوقنى بذراعيه وأطبق على أنفاسى.

الأوجاع والأمراض قد نضت جسدى.

يا إلهى.. أنت أبى الذى ولدتنى.. ارفع رأسى.

إلى متى تهملنى؟ دعنى بدون حمى.

وأخيراً يستجيب الإله لدعاء الحكيم وتذلله:

إن الرجل.. سمع إلهه إلى دموعه وبكائه المر.

إن ذلك الفتى.. وصل أنينه وعويله إلى قلب إلهه.

وقبل الإله الكلمات الصادقة الطاهرة التى قدمها الفتى.

إن الكلمات التى رفعها الفتى صلاة، سرت إلهه وهزت مشاعره.

فسحب إلهه كلمة الشر عنه.

القلب الذى سلمه للعذاب عاد فعانقه.

ودفع آلامه وأوجاعه وأسقامه بعيداً عنه بعد أن تعالت.

الأوجاع التى ابتلاه بها أبعدها عنه.

وأبدل حظه العاثر الذى كان قد نطق به عليه.

إنه أبدل آلام الرجل بسرور.

وأرسل إليه يد العطف وأرواحاً صالحة لتقوده.

وحباه روحاً صديقة لتسير معه.

لذلك عاد الرجل يشيد بعظمة إلهه.

ويرى كثير من الباحثين ـ وبحق ـ أنه بمقابلة أبيات هذه القصيدة بما ورد فى سفر أيوب، وبعض ما جاء بسفر المزامير، لوجدنا تشابهاً قوياً ومطابقة واضحة للعيان.

خلق أشنان ولاحار

أشنان هى إلهة الحبوب، وهى تشبه إلى حد ما الإلهة الرومانية «سيزر» إلهة الحبوب والزراعة، وهى تقابل كذلك الإله «دميتر» إلهة الحبوب والحصاد عند الإغريق، وكانت عبادتها مرتبطة - فى سومر - بعبادة إلهة الأرض. أما «لاحار» فهى إلهة الماشية والحظائر والغنم، وهما شقيقتان خلقهما الإلهان إنليل و«إنكى».

وتصف الأسطورة حال العالم قبل خلق هاتين الإلهتين الشقيقتين.. فتقول:

لم يكن هناك نعجة، ولا قُذفَ بحَمَل.

لم يكن هناك عنزة، ولا قُذف بجدى.

النعجة لم تلد حملين.

العنزة لم تلد أجداءها الثلاثة.

حبة الشش ذات الثلاثين يوماً لم تكن وجدت.

حبة الشش ذات الأربعين يوماً لم تكن وجدت.

الحبة الصغيرة، حبة الجبل، حبة المخلوقات الطاهرة لم تكن وجدت.

لم يعرف الأنوناكى أكل الخبز.

ولم يعرفوا لباس الحلل.

كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالأغنام.

ويشربون الماء من الجداول.

وفى تلك الأيام فى حجرة الخلق الخاصة بالآلهة.

وفى بيتهم المسمى دوكو خلق لاحار وأشنان.

وما أنتجه لاحار وأشنان أكله الأنوناكى ولكنهم لم يشبعوا.

ومن حظائرهما شرب الأنوناكي لبن «شم» الطيب.

شرب الأنوناكي، ولكنهم لم يرتووا.

فمن أجل حظائرهما الطيبة الطاهرة.

أعطى الإنسان نفس الحياة.

وكما ذكرنا سابقاً ـ عند الحديث عن خلق الإنسان ـ فإن الآلهة قد شعروا بالتعب، لذا قرروا خلق الإنسان ليعمل بدلاً منهم ويوفر لهم الزاد، لذا كان من الضروري ـ والحال كذلك ـ أن تنزل الإلهتين إلى الأرض. تقول الأسطورة:

في تلك الأزمان قال الإله إنكي للإله إنليل.

يا أبتي إنليل إنهما لاحار وأشنان

اللتان خلقناهما في بيت الآلهة «الدوكو».

دعنا ننزلهما من بيت الآلهة.

وبكلمة إنكي وإنليل المقدسة.

هبط لاحار وأشنان من بيت الآلهة «الدوكو».

لقد أنشأ «إنليل وإنكي» للإلهة لاحار الحظيرة.

وجعلا لها النباتات والأعشاب الوفيرة.

أما أشنان فقد أقاما لها بيتاً.

وقدما المحراث والنير هدية لها.

لاحار واقفة في حظيرتها.

راعية تزيد نتاج حظيرتها هي.

أشنان واقفة بين المحاصيل.

عذراء لطيفة وجميلة هي.

ثم تعمل الإلهتان على نشر الخير والرخاء بين البشر حتى أنعم فيهما كل بيت، تقول الأسطورة:

لاحار واقفة فى حظيرتها.

راعية تزيد نتاج حظيرتها هى.

أشنانا واقفة بين المحاصيل.

عذراء لطيفة وجميلة هى.

الرزق الذى يأتى من السماء.

لاحار وأشنان كانتا من ورائه.

إلى المجتمع جلبتا رزقاً.

وإلى البلاد جلبتا نسمة الحياة.

ناموس الآلهة توجهان.

ما ضمت المخازن تكثران.

المخازن تملآنها إلى التمام.

إلى بيت الفقراء الذى يعانقه الغبار.

تدخلان وتجلبان الرزق.

كلتاهما، حيثما وقفتا.

جلبتا زيادة غزيرة إلى البيت.

المكان الذى تقفان تشبعان، والمكان الذى فيه تجلسان تموّنان.

تدخلان السرور على قلب آن وإنليل.

كان الإلهتان تشربان الكثير من الخمر، وكثيراً ما كانتا تتشاحنان، فكل

منهما تحاول أن تثبت للأخرى أنها الأفضل، وأنها الأجدى، فتقول لاحار إنها التى تطعم الآلهة اللبن والزبدة، وأن غلة أشنان تنمو فى الأرض بدون جهد، فترد أشنان أنها هى التى تزرع وتسقى وتحصد الطعام للآلهة، وأنها لولا غلتها ما أنتجت لاحار، وهنا تحكم بينهما الآلهة، فتعطى الحق لأشنان لأنها الأسبق فى العمل من لاحار، فتقنع لاحار بحكم الآلهة وتمضى الحياة متدفقة خصبة.

خلق إيمش وإنتن

بعد أن قرر الإله «إنليل» أن تثمر جميع أنواع الشجر وأن يهب البلاد رزقاً ورخاء عمد إلى خلق أخوين هما «إيمش» وهو الصيف، و«إنتن» وهو الشتاء، وقرر أن يعهد إلى كل منهما مهمته الخاصة به، تقول نصوص الأسطورة:

إنتن جعل النعجة تلد الحمل، والعنزة تلد الجدى.

جعل البقرة والعجل يتكاثران، والقشدة واللبن يزيدان.

فى القفار أدخل السرور على قلب الماعز البرى والغنم والحمار البرى.

طيور السماء جعلها تبنى أعشاشها على الأرض الرحيبة.

سمك البحر جعله يضع بيضه فى دغل القصب.

فى غياض النخيل والكرمة جعل العسل والنبيذ وفرين.

الأشجار، حيثما زرعت، جعلها تحمل ثماراً.

البساتين كساها بالأخضر، أخصب نباتاتها.

جعل الحب يتكاثر فى الأخاديد.

مثل أشنان العذراء اللطيفة، جعله يطلع قويا.

إيمش أيضاً قام بمهمته خير قيام.

إيمش أوجد الأشجار والحقول، وسع الاصطبلات والحظائر.

المزارع كثر غلاتها، كسا أرضها.

جعل المحصول الوفير يدخل البيوت، وملأ العنابر إلى تمامها.

جعل المدائن والمساكن تشاد، والبيوت تبنى فى البلاد.

والمعابد تطاول الجبل.

يستنتج من النص السابق أن الأخوين «إنتن» و«إيمش» استطاعا فعلاً أن ينجزا مهمتهما من أجل مد الأرض بأسباب الإنماء والرخاء والخير، لذا قررا الذهاب إلى «نفر»، حيث مقام الإله إنليل لتقديم وافر الشكر والثناء وتقديم القرابين، فقد قام إيمش بجلب أنواع عديدة من الحيوانات، وأصناف من الطيور والنباتات كهدية ونذور، بينما قدم «إنتن» نماذج مختارة من المعادن الثمينة والأحجار والأشجار والأسماك كقربان منه إلى الإله إنليل.

وقبل أن يصلا إلى إنليل اشتد الجدل بينهما، فكل منهما يريد أن يبرهن أنه الأفضل، وأن هداياه أفضل من الآخر، وعندما يدخلان على إنليل يبدأ إنتن بالشكوى فيقول:

يا أبتى إنليل قد عهدت إلى بشؤن القنوات.

فجلبت مياه الخير.

وملأت صوامع الحبوب.

وأكثرت الغلة فى المزارع.

ومثل أشنان العذراء الرحيمة، جعلتها تنمو بغزارة.

لكن إيمش الذى لا يفهم شيئاً فى زراعة الحقول.

قد زاحمنى بالمرفق والمنكب وفى قصر الملك.

ويقول إيمش رداً على ما قاله إنتن:

أى إنليل المعظم.

إننى عبدك وصنيعك.

وأنا الموكل على أشجارك وحقولك واصطبلاتك.

ولكن إنتن أنكر على ما فعلت.

ويصدر إنليل حكمه فيقول:

يسيطر الشتاء «إنتن» على المياه التى تجلب الحياة على الأرض، وهو فلاح الآلهة الذى يكدس الغلال، إيمش يا بنى كيف تقارن نفسك بأخيك إنتن.

وفى هذا تفضيل لفصل الشتاء على فصل الصيف، وهذا يرجع إلى المناخ الزراعى فى سومر، حيث كان فصل الشتاء هو فصل الزراعة الأساسى، وكان ينتهى هذا الفصل مع مقدم الربيع الذى يعتبر فصل الحصاد ويحتفل به فى احتفالات واسعة كرأس سنة جديدة.

وتقول الأسطورة فى نهايتها «إن كلمات إنليل السامية العميقة تنفذ إلى قرار كل شىء، حينها ركع إيمش أمام إنتن وجاء إلى بيته بالنبيذ والعنب والتمر، ومثلما نصروا الإلهة «أشنان» نصروا إنتن لجهده العظيم فى زراعة الأرض، وهكذا قدم إيمش لإنتن الذهب والفضة وحجر اللازورد وفى نشوة الإخوة الصادقة سكبا الخمر بكل سرور تمجيداً للإله وعقدا العزم على خدمته».

■ ■ ■

أسطورة إنليل وننليل

ذكرنا في الفصل السابق أن إله السماء «آن» تزوج من إلهة الأرض «كي» وأنجبا «إنليل»، الذي يعني اسمه سيد الهواء، ويلقب بجبل الريح، ورأينا كيف قام إنليل بالفصل بين أبيه السماء وأمه الأرض بعد أن كانا ملتصقين.

ولكي نتعرف على هذا الإله بصورة أوضح، وعلى مقامه بين آلهة سومر علينا أن نطالع هذه الترنيمة السومرية المرفوعة إلى الإله إنليل:

بدون إنليل، الجبل العظيم.

لا المدائن شيدت، ولا المقار أسست.

لا الإصطبلات شيدت، ولا حظائر الغنم أقيمت.

ولا الأنهار مياهها العالية جلبت الفيض.

ولا البحر أعطانا مختاراً كنوزه الوفيرة.

ولا سمك البحر وضع بيضه في الأحواض.

ولا طيور السماء نشرت أعشاشها على الأرض الرحيبة.

لا الغيوم المحملة بالغيث في السماء فتحت أفواهها.

ولا الحقول والمروج امتلأت بالحب الكثير.

ولا الأعشاب والحشائش في السهول نبتت.

ولا أشجار الجبل الكبيرة في البستان حملت ثمارها.

ولا البقرة وضعت عجلها في الاصطبل.

ولا الغنمة ولدت حملها فى الحظيرة.

ولا الجموع الغفيرة من بنى البشر اضطجعت آمنة.

ولا البهيمة من ذوات الأربع ولدت صغارها.

ولا رغبت فى التناسل.

وتقول النصوص السومرية عن كلمة إنليل التى لا تتبدل:

كلمة إنليل..

تقارب السماء ـ فيكون الفيض.

من السماء ينزل الفيض إلى الأرض.

كلمة إنليل ـ تلامس الأرض، فتكون الوفرة.

من الأرض تصدر براعم الخصب.

حكمتك ـ هى الزرع، كلمتك هى الحبوب.

كلمتك هى الماء العامر، حياة جميع البلاد.

والكلمة هنا هى ما عبر عنه الإغريق فيما بعد بـ«اللوجوس» وأخذها عنهم القديس يوحنا فى إنجيل يوحنا، حيث يقول: «فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله».

وتظهر هنا الإشارة إلى أن كلمة إنليل هى الماء الغامر، وهذا يعنى أن الكلمة هى المطر الذى يعتبر أحد مظاهر الهواء، فالسحب يحركها الهواء ويمطرها، وهنا نجد أن الكلمة غير مجردة، فهى لها معنى محدد هو منى إنليل «أى مطره» وفى ذلك ما يشير إلى تحول قوة الإخصاب الذكورية من إله السماء «آن» إلى إنليل.

وارتباط إنليل بالمطر والخصب يأتى من ارتباط المطر بالهواء والغيوم التى

كان يمثلها إنليل، ومن المؤكد أن كهنته أضفوا عليه صفات الحياة والخصب لكى يجعلوا منه خالقاً شمولياً. ويظهر أقدم رموز إنليل فى نهاية الألف الخامس قبل الميلاد على شكل مثلثين متقابلين من الرأس، ثم تطور إلى الفأس المزدوج الذى يشير إلى العمل والبناء وإلى القوة والسلطة أيضاً.

وربما كان الإله «آن» إله السماء، يأتى على رأس الآلهة فى مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، وربما ظل حتى ذلك الحين الإله الوحيد الذى يرعى شؤون مدينة إيريك، وفى حوالى ٢٥٠٠ ق. م حل محلة إنليل «إله مدينة نيبور أونفر»، وتربع على عرش كبير الآلهة، وربما كان هذا نتيجة لصراع سياسى فقدت فيه مدينة «إيريك» تفوقها على المدائن السومرية المجاورة.

ويقيم الإله إنليل فى مدينة نفر «نيبور» التى تقع إلى الجنوب من بغداد حوالى مائة ميل، وهى تعتبر أول مدينة على الأرض فى أساطير سومر، كونها مدينة الإله إنليل، الإله القومى للسومريين، وفى هذه المدينة يشيد الإله معبده الكبير «إيكور» أى بيت الجبل. وتعتبر «نفر» العاصمة الدينية لسومر، وكان ينظر إليها وكأنها فاتيكان السومريين، إذ يحجون لها من كل المدن السومرية، ويصلون لإلهها وإلههم إنليل، وكان وزير وحاجب إنليل هو «نسكو» الذى هو «كلمة قلب إنليل وكاشف سره والمحيط بأوامره وعامل نواميسه المقدسة».

ويعتبر نسكو «نوسكو» فى الأساطير السومرية ابنا ووزيرا للإله إنليل، وتذكر بعض النصوص أنه ابن الإله «آن»، ويظهر فى النصوص السومرية والأكدية على أنه إله الضوء والنار وكان ذكره حاضراً فى التعاويذ الأكدية بشكل خاص باعتباره إلهاً مضاداً للسحر الأسود، أى أنه كان يقوم بحرق السحرة والمشعوذين.

وكان يرمز بالمصباح الموضوع على منضدة مرتفعة، وكان هذا الرمز يستعمل للتعبير عن إله سومرى آخر هو «اليجبيل» أو«كيبل» الذى هو إله النار أيضاً وأحد آلهة العالم السفلى وكان اسمه الأكدى «جيراً».

زواج إنليل وننليل

اسم ننليل الحقيقى هو سود أى الطويلة، وهذا هو اسمها قبل أن يتزوجها إنليل، أما بعد أن تزوجها فقد أطلق عليها اسم ننليل أى «سيدة الهواء». وتنحدر الإلهة «سود» من «نيصابا» إلهة الحبوب والكتابة، ومن الإله «خايا» أو «حايا» وهو إله الصوامع، وهذان الإلهان من شجرة الإله «إنكى» إله الماء والحياة.

وتقول الأسطورة إن ننليل كانت فائقة الجمال، وعندما رآها إنليل لم يستطع أن يتمالك نفسه من جمالها، فعرض عليها الزواج، وحاول أن يقبلها، فرفضت وأوصدت الباب فى وجهه، إلا أنه لم ييأس، فأرسل وزيره وحاجبه «نسكو» ـ ومعه هدايا كثيرة ـ كى يخطب له ننليل، وبالفعل يذهب نسكو إلى إيريش، ودخل «الإيزاجين» معبد الإلهة ننليل، وبالفعل توافق ننليل على الخطبة، ويمتلئ قلب إنليل بالسرور. تمت مراسم زواج إنليل وننليل، بعد أن أهداها هدايا لا يحصى عددها ونوعها، وبعد الزواج مباشرة منحها لقب «أشنان»، وأشنان كما ذكرنا فى الفصل الأول هى إلهة الحبوب فى سومر، وقد منح إنليل هذا اللقب لزوجته «سود» لأنه يريد منها أن تسيطر على حقول القمح أو حصاده، ولذلك كانت «سود أو ننليل» توصف بأنها سيدة حب الحنطة عندما تذروه الرياح، أى عندما ينقى من القشور، ورمزها المعروف هو سنبلة القمح ذات الستة فروع، وذات الثلاث وريقات.

وبعد ذلك منحها إنليل لقب «نيصابا» أو نيدابا وهى والدة «سود» وهى ـ كما ذكرنا ـ إلهة البذور والحبوب، ثم إلهة الأعداد، وإلهة الكتابة، وإلهة الفلك، وإلهة الذكاء التى تفكر وتفتح آفاق التفكير لمن تحبه، وتظهر كإلهة للكتابة وهى تمسك القلم وكإلهة للفلك وهى تحمل لوحة النجمة. ويعطى السومريون لنيصابا أهمية استثنائية، إذ يرون أنها نقلت الإنسان من التوحش إلى المدنية، وكانت تعبد فى مدينة «أوما».

أما زوجها ـ كما ذكرنا ـ فهو الإله «خايا» أو «خانى» رب الكتابة وسيد

الأختام، وكان يوصف بأنه إله الصوامع، وهو يقابل «نبو» البابلى، ولذلك وصفت نيصابا فى العصور البابلية بأنها رفيقة الإله «نبو».

وقد منح إنليل زوجته لقب أمها نيصابا أو «ننبار شكونو» ليجعلها عارفة بالمحاصيل والحقول والمقاييس، وهذا يدل على أن الكتابة نشأت فى الأساس كحاجة من حاجات المعبد لعد المحاصيل وإحصائها.

وأخيراً توج «إنليل» زوجته بلقب «ننليل» الذى يعنى الاقتران المطلق به، فهو سيد الهواء والرياح وهى - بهذا اللقب - سيدة الهواء والرياح. وكلمة «Lil» عند السومريين تعنى المادة التى بين السماء والأرض، وكان هذا الجزء مظلما - من وجهة نظرهم - يضاء بالنهار بواسطة الشمس، وبالليل بواسطة النجوم والكواكب، وقد عبرت كلمة «ليل» أيضاً عن الروح، باعتبار الروح هى النفس أو الريح التى تدخل وتخرج من أنفه، فكأن الإنسان يأخذ روحه من الريح أو من إنليل ولهذا فالكون حى بفعل «ليل» وسيده إنليل وسيدته ننليل.

فداء إله القمر والنزول إلى العالم السفلى

تقول الأسطورة إن إنليل جامع زوجته ننليل داخل قارب، فحملت منه الإله «نانا» إله القمر، إلا أننا نجد أن الآلهة تنهر إنليل وتوصمه بالفسق، على الرغم أن ننليل زوجته، ولكن يبدو أن هذا الجماع قد تم بينهما قبل أن تتم مراسم الزواج، على كل حال يصدر مجمع الآلهة قراره بنفى إنليل إلى العالم الأسفل، ويقوم إنليل بتنفيذ القرار، وتتبعه ننليل ولكنه يرفض أن ترافقه إلى العالم الأسفل، خاصة وهى تحمل فى أحشائها بذرة إله القمر، ولكن تصر ننليل وتتبعه إلى العالم السفلى.

وهكذا، نجد أن إنليل وهى تحمل «نانا» إله القمر، أصبح ثلاثتهم فى العالم السفلى، ولكى يكتب لهم النجاة كان لابد أن يحل محلهم ثلاثة آلهة، وبناءً على هذا الأساس يبدأ إنليل فى وضع خطة لنجاة ثلاثتهم من العالم السفلى، وعودتهم مرة أخرى إلى العالم العلوى.

يعلم إنليل أن ننليل تبعته إلى العالم السفلى، وكان دافعها فى ذلك حبها له، فيبدأ إنليل فى تنفيذ مخططه، فيتنكر فى صورة حارس بوابة العالم السفلى، فتسأله ننليل عن إنليل، فيعلمها أنه لم يره، وعرض عليها أن يجامعها حتى تلد إلهاً يكون فداءً لـ«نانا» إله القمر ابن إنليل، وبالفعل تستجيب له ننليل وتلد «مسلام تاى» وهو الإله «نركال أو نرجال»، وهو إله شمسى فى بدء حياته، إلا أنه أصبح بعد ذلك إله العالم الأسفل عندما تزوج أرشكيكال، وسيكون هذا الإله أحد بدائل الآلهة العلويين الثلاثة - إنليل وننليل ونانا - فى العالم الأسفل.

يستمر إنليل فى تنفيذ خطته للخروج من العالم الأسفل هو وننليل ونانا، فيتنكر فى صورة صاحب نهر الجحيم، وبالطبع لم تعرفه ننليل، فتسأله عن إنليل فيخبرها أنه أوصاه بها، ويقنعها للمرة الثانية أن يجامعها حتى ينجبا إلها يبقى فى العالم السفلى بدلاً من «نانا» إله القمر، وبالفعل تنجب إنليل الإله الثانى، «ننازو» وهو إله مدينة «إنغير» على الفرات الأسفل بين لارسا وأور ومدينة أشنونا فى منطقة ديالى، وزوجته هى ننغريدا ابنة إنكى. وننازو إله مائى سفلى كان إله الطب والشفاء. وهو أحد آلهة العالم الأسفل، ويوصف أيضاً بأنه ابن نركال وأرشكيكال. وكانت عبادته منتشرة فى مدينة ديالى «مملكة أشنونا» حتى عصر أور الثالث، وحل محله فيما بعد الإله تشابك.

وأخيراً - وبنفس الطريقة - يتنكر إنليل فى هيئة عبار نهر الجحيم، ويجامع ننليل وتلد له «اليجيبيل» لكى يفدى به أحد الآلهة الثلاثة العلويين، وهذا الإله الثالث هو إله النار فى العالم الأسفل، ويناظر إله النار «نسكو» فى العالم العلوى، وهذا الإله إله شمسى أيضاً فى أصله وقد أعيدت عبادته بطريقة تثير العجب والتساؤل كإله عظيم تحت نفس الاسم عند الرومان «١٢٨ - ٢٢٢»م، ويرى البعض أن هذا الإله السومرى هو نفسه الإله السورى الذى بدا وكأنه إله حمص وسوريا، وارتبط بالمجون والمعتقدات الشرقية القديمة، وكان مظهراً من مظاهر التوحيد فى الديانة الرومانية بوجهها السومرى، وكان يسمى «اليجبال» أو «اليجبيل».

فى نهاية الأسطورة يولد إله القمر «نانا» وينعتق إلى العالم الأعلى ومعه أمه وأبوه، ويقبع الآلهة الثلاثة «ملام تاى، وننازو، واليجبيل» فى العالم السفلى فداءً للآلهة الثلاثة.

ويبدو كل هذا الغموض فى تنكر إنليل والحمل المتواصل للإلهة ننليل بسبب الاعتقاد السومرى بأن الإله القمر يقضى النهار فى العالم الأسفل والليل فى العالم الأعلى، أى أنه إله علوى وسفلى، وأنه فى نهاية الشهر القمرى يحبس ثلاثة أيام ثم يطلع إلى الأعلى، وكان السومريون يقومون بطقوس خاصة وأدعية وتعاويذ لإخراجه من ذلك العالم، فهم يعتقدون أن الأشباح والشياطين تهجم على زورقه وتسجنه فى العالم الأسفل لثلاثة أيام.

وللإله «نانا» فى السومرية لقب معروف هو «أشيم بابار» أو «أشكر بابر» وفى الأكدية «نمرصيت» ويعنى صاحب الشروق المشع. وكان فى سومر يعرف أيضاً بـ«سوإين» وهو الاسم الذى صار مصدر اسمه السامى فيما بعد «سين».

وكان الإله «نانا» يزور أبيه «إنليل» من وقت لآخر محملاً بالهدايا ليطلب مباركته، فكان يرحل من «أور» مدينة القمر إلى «نفر» مدينة الهواء قاطعاً بينهما عدة مدن، وهذا الجزء من الأسطورة يشير إلى العلاقة بين القمر والهواء أو النور والظلام، فالنور يزور الظلام بين وقت وآخر أو كل ليلة.

وكان للإله «نانا» معبد فخم فى «أور» هو معبد «إكشينوجال»، وله معبد آخر فى حران شمال وادى الرافدين، وفى حران كان يعبد هذا الإله مع الإله «نسكو» إله الضوء والنار على اعتبار أن نسكو هو ابن القمر، وقد حافظت حران على عبادة الإله القمر حتى العصور العربية الإسلامية.

■ ■ ■

ملحمة جلجامش

التعريف بجلجامش

كان جلجامش، أو «كلكامش» بطلاً سومرياً، لكن ملحمته السومرية لم تصل إلينا، بل وصلت إلينا الملحمة المكتوبة باللغة الأكدية فى نسخ عديدة غير مكتملة، أما الذى ورد فى اللغة السومرية عنه فمجموعة قصص قصيرة لا تغنى عن المدون باللغة الأكدية «البابلية».

فجلجامش من ناحية التاريخ الأدبى لوادى الرافدين يعد من أشهر أبطال القصص والملاحم، أما بالنسبة للحقائق التاريخية فما جاء عنه قليل، ومن ذلك أن اسمه ورد فى إثبات الملوك السومريين من سلالة مدينة «أوروك» الوركاء، وهى السلالة الثانية التى حكمت بعد الطوفان.

وتروى القصص «كما فى ملحمة جلجامش» أن أمه كانت الإله «ننسون» وهى إحدى بنات الإله إنكى، وعلى ذلك، فهو يظهر لنا بصورة إنسان متأله دفعته الأساطير لمقام الآلهة، أما أبوه فهو الإله «لوكال بندا».

وخلاصة القول، ومن جماع الأدلة الكتابية والأثرية أن جلجامش كان أحد حكام دول الدن السومرية فى العصر المسمى «عصر فجر السلالات» «٢٨٠٠ - ٢٤٠٠ ق. م» وأنه حكم مدينة الوركاء، ونسبت إليه أعمال البطولة المختلفة فى الأساطير والقصص السومرية ومنها قصة «أجا» ملك «كيش» ونزاع مع جلجامش، والمرجح أن جلجامش كان معاصراً لمؤسس سلالة أور الأولى، الملك «مس - آنيبدا»، وأن الملحمة بنصها الأكدى أى البابلى «السامى» بدأت تتبلور فى عهد سيطرة السلالة الأكدية التى أسسها سرجون الأكدى الشهير «فى حدود ٢٣٧٠ ق.م» ودونت كاملة فى العهد البابلى القديم «مطلع الألف الثانى ق. م».

الأفكار الفلسفية التى تدور حولها الملحمة

عالجت هذه الملحمة قضايا إنسانية عامة، مثل فكرة الحياة والموت، وحال الإنسان بعد الموت، والخلود، ومثلت تمثيلاً بارعاً مؤثراً ذلك الصراع الأزلى بين الموت والفناء المقدرين، وبين إرادة الإنسان المغلوبة المقهورة فى محاولتها التشبث بالوجود والبقاء والسعى وراء وسيلة للخلود.

والموضوع الأساسى الذى شغلت به الملحمة هو البرهان على حتمية الموت على البشر، حتى بالنسبة إلى بطل مثل جلجامش الذى ثلثاه من مادة الآلهة الخالدة وثلثه الباقى من مادة البشر الفانية، لأن الآلهة ـ كما جاء فى الملحمة ـ قد استأثرت بالحياة وقدرت الموت من نصيب البشرية.

وإذا كان الموت والفناء مقدرين على الإنسان، فماذا يفعل الإنسان حتى يظل خالداً أبد الدهر؟ تجيب الملحمة عن هذا التساؤل، فتخبرنا أن الإنسان ممكن أن ينال الخلود، ولكن الخلود هنا ليس خلوداً جسدياً، وإنما هو خلود معنوى يتمثل فى قيامه بالأعمال العظيمة التى تخلد ذكراه لدى الأجيال، وتجعل روحه تنال الراحة والطمأنينة فى عالم الأرواح «العالم الأسفل» بحسب عقيدة العراقيين القدماء.

البداية «وصف جلجامش وطريقة خلقه»

تقول النصوص الأكدية عن جلجامش:

هو الذى رأى كل شىء فغنى بذكره يا بلادى.

وهو الذى عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها .

وهو الحكيم العارف بكل شىء:

لقد أبصر الأسرار وكشف عن الخفايا المكتومة.

وجاء بأنباء ما قبل الطوفان.

لقد سلك طرقاً بعيدة متقلباً ما بين التعب والراحة.

فنقش فى نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره.

بنى أسوار «أوروك» المحصنة.

وحرم «أى ـ أنا» المقدس والمعبد الظاهر.

أبحث عن اللوح المحفوظ فى صندوق الألواح النحاسى.

وافتح مغلاقه المصنوع من البرونز.

وأكشفت فتحته السرية.

تناول لوح حجر اللازورد واجهر بتلاوته.

وستجد كما عانى جلجامش من العناء والنصب.

وفاق جميع الحكام، إنه ذو الهيئة البهية السامية.

إنه البطل سليل أوروك، والثور النطاح.

إنه موجة طوفان عاتية تحطم حتى جدران الحجر.

نسل «لوكال ـ بندا» ـ إنه جلجامش المكتمل القوة.

ابن البقرة الجليلة «رمات ـ ننسون».

جلجامش المكتمل فى الجلال والألوهية.

إنه هو الذى فتح مجازات الجبال.

وحفر الآبار فى مجازات الجبال.

وعبر البحر المحيط، إلى حيث مطلع الشمس.

لقد جاب جهات العالم الأربع.

وهو الذى سعى لينال الحياة الخالدة.

من ذا الذى يضارعه فى الملوكية؟

من غير جلجامش من يستطيع أن يقول: أنا الملك؟

ومن غيره من سمى جلجامش ساعة ولادته؟

ثلثاه إله، وثلثه الباقى بشر.

لقد صممت هيئة جسمه الآلهة العظيمة.

بعد أن خلق جلجامش، وأحسن الإله العظيم خلقه.

حباه «شمش»، السماوى بالحسن وخصه «أدد» بالبطولة.

جعل الآلهة العظام صورة جلجامش كاملة تامة.

كان طوله إحدى عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار.

ثلثان منه إله، وثلثه الآخر بشر.

وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشى.

وفتك سلاحه لا يصده شىء.

جلجامش و«أجا»

يدور هذا الجزء من الملحمة حول النزاع بين جلجامش الذى يعد من الناحية التاريخية خامس ملوك الوركاء الأول و«أجا» آخر ملوك سلالة كيش الأولى، وكلاهما حكم فى أواخر عصر السلالات الثانى فى حدود ٢٥٠٠ ق. م.

وخلاصة القصة أن أجا ملك كيش أراد أن يبسط سلطانه على دولة مدينة «أوروك» وكان يحكمها ـ كما ذكرنا ـ جلجامش، وقبل أن يشن الحرب أرسل رسله إلى جلجامش تحمل إنذاراً له بأن يخضع له ويعترف بسيادة كيش على «أوروك» الوركاء، وتوضح القصة الحكم الديمقراطى الذى كانت تتمتع به مدينة «أوروك»، فقد كان يقوم على تصريف شؤونها مجلسان: أحدهما مجلس شيوخ

المدينة، وثانيهما مجلس الرجال المحاربين. ولما كان قرار الحرب قرارا خطيراً، فكان لزاما على جلجامش أن يعرضه على مجلس الشيوخ، وكان رأى جلجامش عدم الرضوخ لإنذار «أجا» إلا أن مجلس الشيوخ رفض هذا الاقتراح وفضل عدم الحرب، فامتعض جلجامش لهذا القرار، لذا عرض الأمر ثانية على المجلس الآخر ـ مجلس الرجال المحاربين ـ الذى وافق بدوره على خوض الحرب وعدم الاستسلام.

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فنجد أن «أجا» يضرب حصاراً قوياً على أوروك يجبر بعدها جلجامش على قبول التبعية مقابل رفع الحصار، تقول النصوص:

رسل أجا بن انمبارا جيزى،

انطلقوا من كيش إلى جلجامش فى أوروك.

السيد جلجامش عرض الأمر على كبار المدينة.

يلتمس كلمة منهم.

أن ننجز الآبار، أن ننجز آبار جميع البلاد.

أن ننجز الآبار، «الأقداح» الصغيرة فى البلاد.

أن نحفر الآبار، أن ننجز جبال الأحزمة

ألا فلنفرض الخضوع لبيت كيش، ولنعمل فيهم السلاح.

مجلس كبار المدينة المجتمع أجاب جلجامش:

أن ننجز الآبار، أن ننجز آبار جميع البلاد،

أن ننجز الآبار، «الأقداح» الصغيرة فى البلاد،

أن تحفر الآبار، أن ننجز حبال القيود،

ألا فلنخضع لبيت كيش، ولا نعمل فيهم السلاح.

مع إذعان مجلس الشيوخ لمطالب أجا حاكم كيش، ورفضهم الحرب، يضطر جلجامش إلى عرض الأمر على مجلس المحاربين:

ثم عرض جلجامش، سيد كلاب الأمر.

على شباب أهل مدينته، يلتمس الكلمة منهم:

«أن ننجز الآبار، أن ننجز آبار جميع البلاد،

أن ننجز الآبار، «الأقداح» الصغيرة فى البلاد،

أن نحفر الآبار، أن ننجز حبال القيود،

إياكم والخضوع إلى بيت كيش، ولنعمل فيهم السلاح».

مجلس شباب المدينة المجتمع يجيب جلجامش:

من الذين يقفون، من الذين يجلسون،

من الذين تربوا مع أبناء الملوك،

من الذين يضغطون فخذ الحمار.

الذين منهم، من له روح!

لا يخضعون إلى بيت كيش، ألا فلنعمل فيهم السلاح.

«إن أوروك، صنعة أيدى الآلهة.

وإيانا، البيت الذى يصاعد فى السماء.

الآلهة العظمى التى قدت أجزاءها.

وأسوارها العظيمة التى تلامس السحاب،

محل سكانها الرفيع شيده «آن»،

أنت تتكفل به، أيها الملك البطل،

أيها الفاتح، الأمير الذى يحبه آن،

من الذى يخشى مقدم «أجا».

وجيشه صغير، ومؤخرته تترنح،

ورجاله لا يرفعون عيونهم إلى الأعلى».

وعندئذ سر قلب جلجامش.

ومن كلمات شباب أهل مدينته.

ابتهجت نفسه.

وعندئذ يحزم جلجامش أمره، ويستعد للحرب، وطارت أخباره إلى الملك «أجا»، فجيش الجيوش، وقام بمحاصرة أوروك، فتصدى له جلجامش وأهل أوروك، ولكنهم هزموا وعادوا داخل أسوار أوروك الحصينة، وحينها أدرك جلجامش بأنه لا يستطيع مواجهة «أجا» وجيشه، وهنا يبدو أن مجلس الشيوخ أو كبار المدينة كان محقاً فى رفضه طلب الحرب، لأنه ـ وكما يبدو ـ كان على علم بقوة «أجا» العسكرية وحذقه، وعلى كل حال، يرسل جلجامش رسولاً إلى «أجا» يطلب منه الصلح، لكن «أجا» قتله، فأرسل جلجامش رسولاً آخر يدعوه فيه إلى رفع الحصار عن أوروك على أن تدين له أوروك بالطاعة، فقبل «أجا» رفع الحصار، وعاد إلى كيش منتصراً.

جلجامش وإنانا والثور السماوى

طبقاً للنصوص السومرية لهذه الأسطورة، نجد جلجامش ـ بعدما أذعن لـ«أجا» ملك كيش أخذ يتضرع إلى الإله «إنليل» لأنه هو الذى أعان الأعداء عليه، فيخبره «إنليل» أن أمر الحرب والسيادة بيد إنانا «عشتار» بالبابلية وإنها الوحيدة القادرة على تقرير مصائر البلدان ونتائج الحروب، فيطلب جلجامش من إنليل أن يحدث «إنانا» فى هذا الأمر، فيفعل إنليل، لكن إنانا ما إن رأت

جلجامش حتى مالت إليه، وأعجبت به، وحاولت إغراءه، إلا أن جلجامش - العالم بتاريخ الأسود، فلا تجد أمامها إلا أن ترسل إليه «ثور السماء» كى يدمر جلجامش، بل وأوروك بأجمعها، ولكن جلجامش يهزمه شر هزيمة.

أما فى النص البابلى، فنجد أن «إنانا» أو «عشتار» قد أعجبت بجلجامش بعدما عاد منتصراً من غابة الأرز بعد أن قتل الوحش «خمبابا» اهواوا أو خواوا، بالسومرية، فبعد هذا النصر المدوى ارتدى جلجامش أفخر ثيابه، فلم تستطع إنانا «عشتار» المتعطشة دائماً لمثل هؤلاء الرجال مقاومته، فعرضت عليه الزواج ولكن - ولنفس الأسباب السالف ذكرها - يرفض جلجامش هذا العرض بعدما يذكرها بفضائحها، تقول نصوص الأسطورة البابلية:

غسل جلجامش شعره الطويل وصقل سلاحه.

وأرسل جدائل شعره على كتفيه.

وخلع لباسه الوسخ واكتسى حللاً نظيفة.

ارتدى حلة مزركشة وربطها بزنار.

ولما أن تكلل جلجامش بتاجه.

رفعت عشتار «إنانا» الجليلة عينيها.

ورمقت جمال جلجامش فنادته:

«تعال يا جلجامش وكن عريسى الذى اخترت.

امنحنى بذرتك أتمتع بها.

ستكون أنت زوجى وأكون زوجك.

ساعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب.

عجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز.

وستربط لجرها «شياطين الصاعقة» بدلاً من البغال الضخمة.

وفى بيتنا ستجد شذا الأرز يعبق فيه إذا ما دخلته.

إذا ما دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة.

سينحنى خضوعاً لك الملوك والحكام والأمراء.

وسيقدمون لك الإتاوة من نتاج الجبل والسهل.

وستلد عنزاتك «ثلاثاً ثلاثاً» وتلد نعاجك «التوائم».

وحميرك ستفوق البغال فى الحمل.

وسيكون لخيول مركباتك الصيت العلى فى السبق.

وثورك لن يكون له مثيل وهو فى نيره».

إلا أن جلجامش قد جاء ردوده ضد كل هذه الإغراءات، لأنه على يقين أن نهايته ستكون على يديها إذا هو وافقها. يجيب جلجامش:

«ماذا على أن أعطيك لو أخذتك زوجة؟

هل سأعطيك السمن والكساء لجسدك؟

هل سأقدم لك الخبز والطعام؟

وأى أكل وشراب سأعطيك مما يليق بسمة الألوهية؟

أى خير سأناله لو أخذتك زوجة؟

أنت! ما أنت إلا الموقد الذى تخمد ناره فى البرد.

أنت كالباب الخلفى لا يحفظ من ريح ولا عاصفة.

أنت قصر يتحطم فى داخله الأبطال.

أنت فيل يمزق رحله.

أنت قير يلوث من يحمله .

أنت قربة تبلل حاملها .

أنت حجر مرمر ينهار جداره .

أنت ماكنة حصار تخرب بلد الأعداء .

وأنت نعل يقرص قدم متنعله .

أى من عشاقك من أحببته على الدوام؟

وأى من رعاتك من أرضاك دائماً ؟

تعالى أقص عليك مآسى عشاقك :

من أجل تموز «دموزى» حبيب صباك .

قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة .

لقد رمت طير الراعى .

ولكنك ضربته وكسرت جناحيه .

وها هو الآن حاط فى البساتين يصرخ نادباً :

«جناحى ! جناحى» .

ورمت بحبك الأسد الكامل القوة .

ولكنك حفرت للإيقاع به سبع وسبع وجرات .

ورمت الحصان المجلى فى البراز والسباق .

ولكنك سلطت عليه بالعدو شوط سبع ساعات مضاعفة .

وقضيت عليه ألا يرد الماء إلا بعد أن يعكره .

وقضيت على أمه «سليلى» أن تواصل البكاء والندب عليه .

وأحببت راعى القطيع.

الذى لم ينقطع يقدم إليك أكداس الخبز.

وينحر الجداء ويطبخها لك كل يوم.

ولكنك ضربته وحولته ذئباً.

وصار يطارده الآن ألفه من حماة القطيع.

وكلابه تعض ساقيه.

وأحببت «إيشولنو»، بستانى أبيك.

الذى حمل إليك سلال التمر بلا انقطاع.

وجعل مائدتك عامرة بالوفير من الزاد كل يوم.

ولكنك رفعت إليه عينيك فراودته وقلت له:

«تعال يا حبيبى «إيشولنو»، ودعنى أتمتع برجولتك.

مد يدك والمس مفاتن جسمى».

فقال لك «إيشولنو».

ماذا ترومين منى؟

ألم تخبز أمى فآكل من خبزها.

حتى آكل خبز الخنا والعار؟

وهل يدرأ كوخ القصب الزمهرير؟

وأنت لما سمعت كلامه هذا ضربته بعصاك ومسخته ضفدعاً.

ووضعته وسط «طين البرك» فى عذاب.

فلا يستطيع أن يعلو مرتفعاً ولا ينزل منحدراً.

فإذا أحببتنى فستجعلين مصيرى مثل هؤلاء».

بعد سماع إنانا لهذا الرد الذى حمل كل معانى الإهانة، لا تجد مفرا من اللجوء إلى أبيها «آنو» ليخلق لها «ثوراً سماوياً» يهزم جلجامش ويحل الخراب على «أوروك»:

ولما سمعت عشتار «إنانا» هذا.

استشاطت غيظاً وعرجت إلى السماء.

صعدت عشتار وبكت أمام أبيها «آنو» وقالت:

يا أبى إن جلجامش سبنى وأهاننى.

لقد عدد جلجامش مثالبى وعارى وفحشائى.

ففتح آنو فاه وقال لعشتار الجميلة:

«أنت التى تحرشت فجنيت الثمرة.

فعدد جلجامش فحشاءك وعارك ومثالبك».

ففتحت عشتار فاها وقالت لآنو، أبيها:

«اخلق لى يا أبت ثوراً سماوياً ليغلب جلجامش ويهلكه.

وإذا لم تعطنى الثور السماوى.

فلأحطمن باب العالم الأسفل.

وأفتحه على مصراعيه.

وأدع الموتى يقومون فيأكلون الأحياء.

ويصبح الأموات أكثر عدداً من الأحياء».

ففتح «آنو» فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال:

«لو فعلت ما تريدينه منى وزودتك بالثور السماوى.

حلت فى أرض «أوروك» سبع سنين عجاف.

بعد سماع إنانا لهذا الرد الذى حمل كل معانى الإهانة، لا تجد مفرا من اللجوء إلى أبيها «آنو» ليخلق لها «ثوراً سماوياً» يهزم جلجامش ويحل الخراب على «أوروك»:

ولما سمعت عشتار «إنانا» هذا.

استشاطت غيظاً وعرجت إلى السماء.

صعدت عشتار وبكت أمام أبيها «آنو» وقالت:

يا أبى إن جلجامش سبنى وأهاننى.

لقد عدد جلجامش مثالبى وعارى وفحشائى.

ففتح آنو فاه وقال لعشتار الجميلة:

«أنت التى تحرشت فجنيت الثمرة.

فعدد جلجامش فحشاءك وعارك ومثالبك».

ففتحت عشتار فاها وقالت لآنو، أبيها:

«اخلق لى يا أبت ثوراً سماوياً ليغلب جلجامش ويهلكه.

وإذا لم تعطنى الثور السماوى.

فلأحطمن باب العالم الأسفل.

وأفتحه على مصراعيه.

وأدع الموتى يقومون فيأكلون الأحياء.

ويصبح الأموات أكثر عدداً من الأحياء».

ففتح «آنو» فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال:

«لو فعلت ما تريدينه منى وزودتك بالثور السماوى.

لحلت فى أرض «أوروك» سبع سنين عجاف.

فهل جمعت غلالاً لهذه السنين العجاف.

وهل خزنت العلف للماشية».

فتحت «عشتار» فاها وأجابت أباها «آنو» قائلة:

«لقد جمعت «يسيادر» الحبوب للناس.

وخزنت العلف للماشية.

فلو حلت سبع سنين عجاف.

فقد خزنت غلالاً وعلفاً.

تكفى الناس والحيوان».

ولما أن سمع كلامها سلم عشتار.

سلسلة مقود الثور السماوى فأخذته وقادته إلى الأرض،

أنزلته فى أرض «أوروك».

هبط الثور السماوى وأخذ ينشر الرعب والفزع.

وقضى فى أول خوار له على مائة رجل ثم مائتين وثلاثمائة.

وقتل فى خواره الثانى مائة ومائتين وثلاثمائة.

وفى خواره الثالث هجم على «إنكيدو».

ولكن «إنكيدو» صد هجومه.

قفز «إنكيدو» ومسك الثور السماوى من قرنيه.

فرشق الثور السماوى وجهه بزبده ورغائه.

وقذفه بالروث بذيله.

ففتح «إنكيدو» فاه، وقال لجلجامش:

«ينبغى أن نقتسم العمل فيما بيننا.

أنا سأمسك بالثور من ذيله .

وينبغي أن يكون الطعن بالسيف ما بين السنام والقرنين» .

فطارد «إنكيدو» ثور السماء ليمسك به .

ومسك به من ذيله وضبطه بكلتا يديه .

وجلجامش، مثل قصاب ماهر،

طعن الثور السماوى طعنة قاتلة .

وغرس حسامه ما بين السنام والقرنين .

وبعد أن أجهزا على الثور السماوى اقتلعا قلبه .

وقرباه إلى الإله «شمش»، وسجدا له .

وقعد الأخوان «جلجامش وإنكيدو» واستراحا .

أما «عشتار» «إنانا» فإنها اعتلت فوق أسوار «أوروك» العالية

قفزت فوق الشرفات وقذفت بلعناتها صارخة :

«الويل لجلجامش ـ الذى دنسنى وأهاننى بقتله الثور السماوى» .

ولما أن سمع «إنكيدو» هذا القول من عشتار .

قطع فخذ الثور السماوى وقذفه فى وجهها وقال :

«لو أمسكت بك لفعلت بك مثل ما فعلت به .

ولربطت أحشاءه بأطرافك» .

فجمعت عشتار المتبتلات وبغايا المعبد والمومسات .

وأقامت المناحة والبكاء على فخذ الثور السماوى الأيمن .

أما جلجامش فإنه دعا الصناع، وصانعى السلاح كلهم .

فانبهر الصناع من كبر قرنيه وثخنهما .

فإن كلا منهما من حجر اللازورد بزنة ثلاثين منا .

وثخن طلاء كل منهما اصبعان .

ومقدار ستة «كرات» من السمن سعة كليهما .

فقرب بمقدار ذلك زيتا للمسح إلى إلهه «الحامى» «لوكال بندا» .

أخذهما وعلقتهما في حجرة نومه الزاهية .

ثم غسلا أيديهما فى نهر الفرات .

وعانق كل منهما الآخر وهما سائران في الطريق .

سار راكبين فى دروب «أوروك» .

فاجتمع أهل «أوروك» ليشاهدوهما .

وصار جلجامش يخاطب مغنيات أوروك ويردد :

«من الأمجد بين الأبطال ؟

ومن أزهى الرجال ؟

فيجبنه : «جلجامش الأمجد بين الأبطال .

جلجامش زين الرجال» .

ولم تجد عشتار «إنانا» فى الدرب من يواسيها ويفرح قلبها .

كانت «إنانا» غاضبة أشد الغضب لأن ما حدث ـ من وجهة نظرها ـ كان فيه ضياع لهيبتها، ولما رأى «جلجامش» هذا الغضب ناشدها أن تعود على مدينتها المقدسة «أوروك»، ويتدخل أخوها «أوتو» ويقنعها بالعودة إلى مدينتها، فهى حارستها، وكان الأولى بها أن تعينها على أعدائها وليس العكس، فتفيق «إنانا» من ثورة غضبها، فتمسك بصولجانها وتصيح «أنا أتوج جلجامش بطلاً على أوروك وسومر كلها، وسأرعى جلجامش وأوروك وأقيم فيها».

قفزت إنانا من سور «أوروك» وعانقت جلجامش وتوجته بطلاً وملكاً وسارت

معه وسط «أوروك» وفى ساحاتها ورأى الناس عظمة ملكهم وقوته فهتفوا له طويلاً، ويوم طارت أخبار «أوروك» إلى الأصقاع أدانت المدن الأخرى له بالطاعة والغلبة، واعتذر «أجا» ملك «كيش» عن طيشه وساد «أوروك» الفرح لوقت طويل.

جلجامش وإنكيدو

لم توضح لنا النصوص السومرية الكثير عن شخصية «إنكيدو» وكيفية ظهوره، وكيف صار صديقاً لجلجامش وخلا له، أما الملحمة البابلية فقد أفصحت لنا عن كل هذه الأمور، حتى أن البعض يشك فى أن إنكيدو السومرى هو نفسه إنكيدو الذى ظهر فى الملحمة الأكدية «البابلية»، وعلى ذلك سنعرض لهذا الجزء من المحلمة كما جاءت به النصوص البابلية.

تبدأ نصوص هذا الجزء من الأسطورة بشكوى أهل مدينة «أوروك» للإله «آنو» من اضطهاد «جلجامش» وظلمه لهم، حيث إنه:

لم يترك «جلجامش» عذراء طليقة لأمها

ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل.

وعندئذ يستجيب الإله «آنو» لشكواهم، ويطلب من الإلهة «أرورو» والتى خلقت جلجامش ـ طبقاً لهذا الجزء من الأسطورة ـ طلب منها أن تخلق له غريماً له، حتى ينشغل جلجامش بمصارعته عن أهل «أوروك»:

حالاً سمعت «أرورو» ذلك.

تصورت فى لبها صورة لآنو.

وغسلت «أرورو» يديها.

وأخذت قبضة من طين ورمتها فى البرية.

وفى البرية خلقت «إنكيدو» الصنديد مثل «ننورتا» القوى.

يكسو جسمه الشعر الكث، وشعر رأسه كشعر المرأة.

ونمت فروع شعر رأسه جدائل كشعر نصابا .

لا يعرف الناس ولا البلاد ويلبس لباساً مثل «سموقان» .

ومع الظباء يأكل العشب .

ويتدافع مع الوحش عند موارد الماء .

ويطيب لبه عند ازدحام الحيوان فى مورد الماء .

بعد ذلك يراه أحد الصيادين، بهذه الهيئة القوية، وهو يشرب مع الوحوش، ويسكن معهم بيوتهم، بل ويقطع شباك الصياد ويفسد أشراكه، فهو يحمى الحيوانات لأنه يعتقد أنه واحد منهما، والحيوانات بدورهما تحبه، لأنهما تعتقد ذلك، وكيف لا، وقد تربى بينهما، وأكل طعامهما، وشرب شربهما، وبإيعاز من والد الصياد، يذهب الصياد إلى «جلجامش» ليخبره ما رأى من قوة هذا الرجل، وكيف أنه لا يستطيع الصيد بسببه، فيرسل معه «جلجامش» إحدى البغايا حتى تغرى «إنكيدو» بمفاتنها ويجامعها، وعندها سينصرف «إنكيدو» بطريقة بشرية، فتبتعد عنه الوحوش وجميع الحيوانات، ويستطيع الصياد أن يقوم بعمله الذى اعتاده، وبالفعل يقوم الصياد بتنفيذ المخطط المرسوم، تقول النصوص:

قصدت وحوش البر الماء ففرحت وطابت قلوبها .

أما «إنكيدو» الذى كان مولده فى التلال .

والذى يأكل العشب مع الظباء، ويرد الماء مع الحيوان .

ويفرح لبه مع حيوان البر عند مسقى الماء .

فإن «البغى» رأته، رأت الرجل الوحش .

أبصرت البغى المارد، الآتى من قلب الصحارى .

فأسر إليها الصياد .

«هذا هو أيتها البغى فاكشفى عن نهديك .

اكشفي عن عورتك لينال من مفاتن جسمك.

لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام.

فإنه متى رآك انجذب إليك.

انضي عنك ثيابك ليقع عليك.

علمي الوحش الغر وظيفة المرأة.

ستنكره حيواناته التي ربيت معه في صحرائه.

إذا حفي بك وانعطف حبه إليك».

فأسفرت البغي عن نهديها وكشفت عن عورتها.

فتمتع بمفاتن جسمها.

لم تحجم بل راودته وبعثت فيه الشوق.

نضت عنها ثيابها فوقع عليها.

وعلمت الوحش الغر وظيفة المرأة.

فانجذب إليها وتعلق بها.

لبث «إنكيدو» يتصل بالبغي ستة أيام وسبع ليال.

وبعد أن شبع من مفاتنها.

وجه وجهه إلى إلفه من حيوان الصحراء.

فما إن رأت الظباء «إنكيدو» حتى ولت عنه هاربة.

وهربت من قربه وحوش الصحراء.

ذعر «إنكيدو» ووهنت قواه.

خذلته ركبتاه لما أراد اللحاق بحيواناته.

أضحى «إنكيدو» خائر القوى.

لا يطيق العدو كما كان يفعل من قبل.

ولكنه صار فطناً واسع الحس والفهم.

رجع وقعد عند قدمي البغي.

وصار يطيل النظر إلى وجهها.

لم ينتـه دور البـغى عند هذا الحـد، فـلا يكفى أن يبـتـعـد «إنكيـدو» عن الحـيـوانات التى تـربى مـعـهـا، ولكن عليهـا أن تحـفـزه على تحـدى جلجـامش ومـصـارعـتـه، وذلك حـتـى ينشـغل عـمـا يفـعله فى أهل أوروك أو كـمـا تقـول النصوص:

كلمت البغي «إنكيدو» وقالت له:

«صرت تحوز على الحكمة يا «إنكيدو» وأصبحت مثل إله.

فعلام تجول في الصحراء مع الحيوان؟

تعال آخذك إلى «أوروك» ذات الأسوار.

إلى «البيت» المقدس، مسكن «آنو» و«عشتار».

حيث يعيش جلجامش الكامل الحول والقوة.

المتسلط على الناس كالثور الوحشي».

لما أن كلمته تقبل منها قولها.

وفرح قلبه لأنه كان ينشد صاحباً له.

فأجاب «إنكيدو» البغي وقال لها:

«هلمي أيتها البغي، خذيني إلى البيت الطاهر،

مسكن آنو وعشتار حيث يحكم جلجامش الكامل الحول والقوة.

والمتسلط على الناس كالثور الوحشي.

وأنا سأتحداه وأغلظ له فى القول.

وسأصرخ فى قلب «أوروك»: أنا الأقوى.

أجل! أنا الذى سأبدل المصائر.

أنا الذى ولد فى الصحراء هو الأشد والأقوى.

وبالفعل تصاحبه البغى إلى «أوروك»، وقبل أن يصل إلى جلجامش يرى الأخير رؤيا يقصها على أمه «ننسون» حتى تقوم بتأويلها:

«يا أمى لقد رأيت الليلة الماضية حلماً.

رأيت أنى أسير مختالاً بين الأبطال.

فظهرت كواكب السماء.

وقد سقط أحدها إلى وكأنه شهاب السماء «آنو».

أردت أن أرفعه ولكنه ثقل على.

وأردت أن أزحزحه فلم أستطع أن أحركه.

تجمع حوله أهل بلاد «أوروك».

ازدحم الناس حوله وتدافعوا عليه.

واجتمع عليه الأبطال.

وقبّل أصحابى قدميه.

أحببته وانحنيت عليه كما أنحنى على امرأة.

ورفعته ووضعته عند قدميك.

فجعلته نظيراً لى».

قالت «ننسون» العارفة بكل شىء لجلجامش:

«إن رؤيتك نظيرك كوكب السماء.

والذى سقط إليك وكأنه شهاب السماء «آنو».

والذى أردت أن ترفعه فثقل عليك.

والذى أردت أن تزحزحه فلم تستطع.

وأحببته وانحنيت عليه كما تنحنى على امرأة.

والذى وضعته عند قدمى.

فجعلته أنا نظيراً لك.

إنه صاحب قوى، يعين الصديق عند الضيق سيأتى إليك.

إنه أقوى من فى البلاد وذو عزم شديد.

وعزمه مثل عزم «آنو» وذو بأس شديد.

وأما إنك أحببته فانحنيت عليه كما تنحنى على امرأة.

فمعناه أنه سيلازمك ولن يتخلى عنك.

وهذا هو تفسير رؤياك».

ففتح جلجامش فاه وقال مخاطباً أمه:

«عسى أن يتحقق هذا الفأل بمشيئة «إنليل» العظيم.

فيكون لى صاحب وصديق ناصح.

وسأكون له صاحباً وصديقاً وفياً».

فى هذه الأثناء تقوم البغى بشق ثوبها شقين، ألبست «إنكيدو» أحدهما، وليست هى الآخر، ثم أخذته إلى كوخ الرعاة، فعاشرهم، وعلموه كيف يأكل الطعام ويشرب الشراب، وكيف ينظف جسده، فأصبح إنساناً بكل ما تحمله الكلمة من معان، وساعد الرعاة بأن قتل لهم الوحوش حتى يرعوا فى اطمئنان، فصار حارسهم وناصرهم. وذات يوم جاء إلى «إنكيدو» رجل من أهل «أوروك»

يشكو له من جلجامش وأفعاله:

«لقد اقتحم «جلجامش» بيت الاجتماع،

الذى خصص للناس والأعراس،

لقد أحل فى المدينة العار والدنس.

وفرض على المدينة المنكودة المنكرات وأعمال السخرة.

لقد خصصوا الطبل إلى ملك «أوروك»، ذات الأسواق.

يخصصون الطبل ليختار العرائس قبل أزواجهن.

فيكون هو العريس الأول قبل زوجها.

وهم يقولون: لقد أراد الآلهة هذا الأمر.

وقدروه له منذ أن قطع حبل سرته».

وما إن سمع «إنكيدو» كلام الرجل حتى امتقع وجهه، ويقرر أن يواجه «جلجامش» ويتحداه.

سار «إنكيدو» إلى الأمام وخلفه البغى ولما دخل «أوروك» ذات الأسواق الواسعة.

تجمع الناس حوله.

حين وقف فى شارع «أوروك»، فى موضع السوق،

تجمهر الناس حوله وقالوا عنه:

«إنه مثيل لجلجامش فى البنية.

ولكنه أقصر قامة وأقوى عظماً.

إنه أقوى من البرية، وذو بأس شديد.

لقد رضع لبن حيوان البر فى البادية.

وفى أوروك لن تنقطع قعقعة السلاح».

فى ذلك الوقت كان جلجامش يستعد للقيام بشعائر دينية ـ كانت تمارس فى العراق القديم ـ من الممكن أن يطلق عليها «الزواج الإلهى المقدس»، وهو رمز لاتصال الملك بالإلهة، وكانت كاهنة تقوم بدور الإلهة للاتصال الجنسى بالملك ضماناً لإحلال الخصب والرخاء فى البلاد.

ولما كان جلجامش يتهيأ للقيام بهذه الشعائر صادف مجىء «إنكيدو» فتصدى له، ومنعه من دخول المعبد، ولعل إنكيدو أراد أن يقوم هو بتلك الشعائر، فنشبت المعركة بين البطلين، وكانت بطريقة المصارعة:

رأى جلجامش «إنكيدو» الهائج.

الذى ولد فى البادية ويجلل رأسه الشعر الطويل.

فانقض عليه وهاجمه.

تلاقيا فى موضع سوق البلاد.

سد إنكيدو باب «بيت الاجتماع» بقدميه.

ومنع جلجامش من الدخول إلى الفراش.

أمسك أحدهما بالآخر وهما متمرسان بالصراع.

وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين.

حطما عمود الباب وارتج الجدار.

وظل جلجامش وإنكيدو متماسكين يتصارعان كالثورين الوحشيين.

وحينما انثنى جلجامش وقدمه ثابتة فى الأرض «ليرفع إنكيدو».

واستدار ليمضى. هدأت ثورة غضبة.

ولما هدأ غضبه كلمه إنكيدو وقال له:

«إنك الرجل الأوحد، أنت الذى ولدتك أمك.

ولدتك أمك «ننسون»، البقرة الوحشية المقدسة.

ورفع إنليل رأسك عالياً على الناس.

وقدر إليك الملوكية على البشر».

وبعد ذلك يصبح البطلان صديقين حميمين، لا يفارق أحدهما الآخر، وقد ذكرنا أن جلجامش كان على علم بصيرورة هذه الصداقة، بعد أن قص رؤيته على والدته «ننسون» وقامت بتأويلها له.

رحلة جلجامش إلى أرض الحياة

فى هذا الجزء من الملحمة يقرر جلجامش السفر مع صديقه إنكيدو إلى أرض الحياة أو «غابة الأرز» وقتل العفريت «خواوا» باللغة السومرية، أو «خمبابا» بالأكدية، وهذا الجزء من الأسطورة يمكن القول إنه أحد الأصول السومرية لملحمة جلجامش البابلية.

ويبدو أن الهدف من سفر جلجامش إلى هذه الأرض أو الغابة هو تخليد اسمه بين البشر، بعد أن أيقن أن الخلود الجسدى للبشر هو أمر غير وارد، وأن الموت سيكون نهايته المحتومة، أما خلود البشر فإنما يتمثل فيما يحرزه المرء من أعمال جليلة تخلد اسمه على مدى العصور، وهذا المفهوم عن الخلود فى الملحمة السومرية نجد عكسه تماماً فى الملحمة البابلية، فجلجامش - طبقاً للنص الأكدى - يذهب إلى «أوتو - نبشتم» بطل الطوفان البابلى ليعرف منه سر الخلود الحقيقى، أى الخلود الجسدى المتمثل فى عدم الموت واجتراع سكراته.

يبدأ هذا الجزء من الملحمة - جلجامش وأرض الحياة - باعتزام جلجامش السفر إلى أرض الحياة، وإخباره صديقه إنكيدو بهذا القرار:

السيد أرسل فكره نحو أرض الأحياء.

السيد جلجامش أرسل فكرة نحو أرض الأحياء.

وقال لتابعه إنكيدو :

«إنكيدو ، الختم لم يأت بعد بالنهاية المحتومة .

بودى دخول البلاد «أرض الحياة» ، بودى رفع اسمى ،

فى مكانه حيث الأسماء مرفوعة ،

بودى رفع اسمى .

فى مكانه حيث الأسماء غير مرفوعة .

بودى رفع اسم الآلهة» .

أجابه إنكيدو :

«سيدى ، إذا اعتزمت دخول هذه البلاد .

فاعلِم الإله أوتو الشجاع .

هذه البلاد «أرض الحياة» ، برعاية أوتو .

بلاد الأرز المقطوع ، برعاية أوتو الشجاع .

أعلم أوتو» .

جلجامش وضع يديه على جدى أبيض .

وضم إلى صدره جدياً منقطاً كقربان .

ووضع فى يده صولجان القيادة الفضى .

وقال الأوتو السماوى :

«أوتو ، بودى أن أدخل البلاد ، فكن حليفى ،

بودى أن أدخل بلاد الأرز المقطوع ، فكن حليفى» .

فأجاب أوتو السماوى :

«ولكن ما شأنك بأرض الحياة»؟

أجابه جلجامش:

«أوتو، بودى أن أكلمك كلمة.

فصاغ إلى كلماتى، بودى أن تصل إليك.

فى مدينتى يموت الإنسان وهو مسحوق القلب.

يهلك الإنسان وهو مثقل بالآلام.

حدقت من فوق السور.

رأيت جثث الموتى تطفو على مياه النهر.

وأنا أيضاً، فلسوف أطفو كذلك، الحق إنه لكذلك.

الإنسان، أطول إنسان، لا يستطيع أن يرقى إلى السماء.

الإنسان، أعرض إنسان، لا يستطيع أن يغطى الأرض.

ونهايتى المحتومة لم تأت بعد.

بودى أن أدخل «أرض الحياة» وأرفع اسمى.

فى أمكنته حيث الأسماء المرفوعة، بودى أن أرفع اسمى.

فى الأماكن التى لم تسجل فيها الأسماء، بودى أن أرفع أسماء الآلهة».

يستجيب «أوتو» لتضرع جلجامش، وقام جلجامش باختبار خمسين متطوعاً من شباب المدينة، ولما كانت المغامرة غير محسوبة العواقب، فقد اشترط عليهم أن يكونوا عزاباً، لا أم لهم ولا بيت:

السيد جلجامش كان بالغ الفرحة.

عبأ مدينته كرجل واحد.

جند رجالها كفريقين اثنين:

«من له بيت، فإلى بيته.

من له أم، فإلى أمه.

أما العزاب الذكر الذين يودون أن يفعلوا ما أفعل.

فليقفوا إلى جانبى، وهم خمسون، فليقفوا على حدة».

صار الآن عند جلجامش أسلحة من برونز وخشب أعدها لنفسه ولصحبه، وانطلقوا إلى «أرض الحياة»، فقطعوا سبعة جبال، وما كادوا يجتازون السابع حتى وجد جلجامش «أرزة قلبه». قطعها وأمر أصحابه فجعلوا منها حزماً من حطب وعادوا ظافرين إلى مدينته، لكن كان يرقبهم عن بعد العفريت «خواوا»، حارس شجر الأرز، الذى ألقى على البطل نوماً سحرياً عميقاً. استبد القلق والخوف بأصحابه فجعلوا يوقظونه من هذا النوم العميق:

يلمسه فلا يفيق.

يخاطبه فلا يجيب:

«يا من أنت نائم، يا من أنت نائم.

جلجامش، أنت سيد كلاب وابنها.

ألا ما طول نومك.

البلاد أمست ظلاماً، صارت ملأى بالظلال.

الغسق أرسل شعاعه الخافت.

أوتو ذهب مرفوع الرأس إلى أمه ننجال.

جلجامش، ألا ما أطول نومك

لا تدع أبناء مدينتك الذين اصطحبوك

واقفين بانتظارك عند سفح الجبل

لا تدع الأم التى ولدتك

تقذف إلى ساح المدينة».

يستيقظ جلجامش، وينهض كالثور، ويقسم بأبيه وأمه السماويين بألا يعود إلى مدينته حتى يقهر «خواوا»، إنساناً كان أم إلهاً، لكن تابعه وصديقه «إنكيدو» كان قد امتلأ خوفاً لأنه هو الذى رأى ذلك العفريت، فأخذ يصفه له، وحاول أن يثنيه عما هو عازم عليه:

«سيدى، لم يحل بك الرعب، لأنك ما رأيت ذلك الرجل.

أما أنا فرأيته، لذا فقد حل بى الرعب.

المحارب، أسنانه أسنان تنين،

له وجه أسد،

وزئيره هدير فيض الماء الدافق.

ومن جبينه الكثيف المفترس لا ينجو أحد».

«سيدى سافر أنت إلى أرض الحياة.

وأنا سوف أسافر إلى المدينة.

سوف أنبئ والدتك بمجدك.

وليكن صراخها ضحكاً.

عندئذ أنبئها بموتك.

ولتذرف دموعاً مرة».

يحاول جلجامش أن يلقى بشىء من الطمأنينة فى قلب إنكيدو:

«هلم نتقدم معاً ودعنا ننظر إليه.

وسيحل بنا الرعب والخوف ولكن لنتغلب عليه.

وسنجد خواوا فى بيته بين أشجار الأرز».

ويبدو أن بيت خواوا كان عبارة عن سبع أشجار من أشجار الأرز الضخمة:

ثم إن «جلجامش» قطع الشجرة الأولى بنفسه.

وقطع أبناء مدينته الذين رافقوه تاجها.

وربطوه ووضعوه فى سفح الجبل.

وبعد أن قطع «جلجامش» الشجرة السابعة.

اقترب من مخدع «خواوا» ولطمه على خده لطمة شديدة.

فاصطكت أسنانه.

فأراد خواوا أن يوقف اعتداء جلجامش.

فتضرع «خواوا» إلى أوتو قائلاً:

«يا أوتو إننى لا أعرف الأم التى ولدتنى،

ولا الأب الذى أنجبنى،

فأنت الذى ولدتنى فى «الأرض» وربيتنى.

وتعوذ من جلجامش بحياة السماء والأرض السفلى.

فرق له قلب جلجامش وقال لتابعه «إنكيدو»:

«لندع الطائر الذى أمسكنا به يعود إلى موضعه.

وندع الرجل الذى أسرناه يرجع إلى حضن أمه».

فأجاب «إنكيدو» جلجامش:

«إن الطائر الذى أمسكنا به لو عاد إلى عشه.

إذا عاد الرجل الذى أسرناه إلى حضن أمه.

فسوف لن ترجع أنت إلى مدينة أمك التى ولدتك».

فقال «خواوا» لإنكيدو:

«لقد نطقت بالشر على يا إنكيدو».

وحين تفوه هكذا بادراه وقطعا رقبته.

وقدماه قرباناً إلى إنليل وننليل.

ثم تقدم جلجامش إلى الحجر الذى تشهق به أرض الحياة وهناك حفر اسمه وأسماء صديقه «إنكيدو» وفرسان أوروك الذين قدموا معه، وحفر أسماء الآلهة العظام، وسجد لهم، وأدرك أن ما سيتبقى منه هو اسمه هذا المحفور على حجر الخلود، وأن جسده سيبلى ولابد له أن يستقبل أمر موته بشجاعة.

رحلة جلجامش للبحث عن الخلود الحقيقى

رأينا أن جلجامش ـ طبقاً للنصوص السومرية ـ قد عرف أن الإنسان لابد له أن يموت، وأن الخلود لن يكون إلا بالأعمال العظيمة، أما بقاء الإنسان حياً أبد الدهر فهو أمر غير وارد تماماً.

إلا أن النصوص الأكدية للملحمة تعلمنا أن جلجامش - بعد موت صديقه إنكيدو ـ هاله الموت، وأخذ يبحث عن الخلود الحقيقى، الخلود الذى لا يدنو منه الموت، ولا يستطيع أن يقهره، وكان سبيله لبلوغ هذا الخلود يتمثل فى لقاء «أوتو ـ نبشتم» بطل الطوفان ـ فى الأسطورة البابلية ـ والذى نجا هو ومن معه فى السفينة، ثم أنعمت عليه الآلهة بنعمة الخلود فى أرض «دلمون» المقدسة، فأراد «جلجامش» أن يطلعه «أوتو ـ نبشتم» على سر الخلود، حتى يخلد ولا يتجرع كأس الموت ويقاسى أهواله.

وكانت نقطة البداية هى الوصول إلى «أور ـ شنابى» ملاح «أوتو ـ نبشتم»، وبالفعل يصل إلى «أور ـ شنابى» الذى قاده حيث يقيم «أوتو ـ نبشتم»، الذى يطلعه على أخبار الطوفان الذى دمر العالم، وكيف نجا هو ومن معه على ظهر السفينة ونال الخلود الأبدى، ذلك الخلود الذى أسبغه عليه الآلهة هو وزوجه، ثم

أخبره أن ذلك الخلود لن يستطيع أن يناله؛ لأنه من الصعب تجميع الآلهة من أجله، لذا لابد من أن يجتاز جلجامش اختبارا، حتى يمكن التعرف إلى أى حد يستطيع أن يقترب من التركيبة «الإلهية»، ويبتعد عن الفطرة والجوارح البشرية، يقول «أوتو ـ نبشتم».

والآن من سيجمع الآلهة من أجلك «يا جلجامش».

لكى تنال حياة الخلود التى تبغى؟

تعال «أختبرك»! «لا تنم ستة أيام وسبع أمسيات».

ولكن وهو لا يزال قاعداً على عجزه إذا بسنة من النوم.

تأخذه وتتسلط عليه كالضباب.

فالتفت «أوتو ـ نبشتم» إلى امرأته وخاطبها قائلاً:

«انظرى، هذا الرجل البطل الذى ينشد الحياة!

لقد أخذته سنة من النوم وتسلطت عليه كالضباب».

فأجابت زوج «زوتو ـ نبشتم» زوجها وقالت له:

«المس الرجل كيما يستيقظ.

ويعود أدراجه سالماً فى الطريق الذى جاء منه.

ليعد إلى وطنه من الباب الذى خرج منه».

فأجاب «أوتو ـ نبشتم» امرأته وقال لها:

«لما كان الخداع من طبيعة البشرية فإنه سيخدعك.

فهلمى اخبزى له أرغفة من الخبز وضعيها عند رأسه.

والأيام التى ينام فيها أشريها فى الجدار».

فخبزت له أرغفة من الخبز ووضعتها عند رأسه.

وأشرت في الجدار الأيام التي نامها .

فصار الرغيف الأول يابساً ، وتلف الرغيف الثاني .

والثالث لم يزل رطباً .

وابيضت قشرة الرغيف الرابع .

والخامس لم يزل طرياً ، والسادس قد تم خبزه في الحال .

ولما كان الرغيف السابع لا يزال على الجمر .

لمسه «أوتو ـ نبشتم» فاستيقظ .

ولما استيقظ جلجامش قال لـ«زوتو ـ نبشتم» ، القاصي :

«لم تكد تأخذني سنة من النوم حتى لمستني فأيقظتني» .

فأجاب «أوتو ـ نبشتم» جلجامش قائلاً له :

«يا جلجامش عد أرغفتك .

فينبئك المؤشر على الحائط عدد الأيام التي نمت فيها .

فقد يبس رغيفك الأول ، والثاني لم يعد صالحاً .

والثالث لا يزال رطباً وابيضت قشرة الرابع .

والخامس لا يزال طرياً ، والسادس خبز في الحال .

والسابع إذا بك تستيقظ في الحال» .

فقال جلجامش لـ«زوتو ـ نبشتم» ، القاصي :

«ماذا على أن أفعل ، وإلى أين أوجه وجهي ؟

وها أن «الشكل» قد تمكن من لبي وجوارحي .

أجل ! في مضجعي يقيم الموت .

وحيثما أضع قدمي يربض الموت» .

ثم قال «أوتو ـ نبشتم» إلى «أور ـ شنابى» الملاح:

يا «أور ـ شنابى»، عسى ألا يرحب بمقدمك المرفأ.

ويبرأ منك موضع العبور!

ولتذهب مطروداً من الشاطئ.

والرجل الذى قدته إلى هنا،

والذى يغطى جسمه الوسخ.

وشوهت جمال أعضائه أردية الجلود.

خذه يا «أور ـ شنابى»، وقده إلى موضع الاغتسال.

ليغسل فى الماء أوساخه حتى يصبح نظيفاً كالثلج.

لينزع عنه جلود الحيوانات وليرمها فى البحر.

حتى يتجلى جمال جسمه.

ودعه يجدد عصابة رأسه.

وليلبس حلة تستر عريه.

وإلى أن يصل إلى مدينته،

وحتى ينهى طريق سفره.

لا تدع آثار العتق تبدو على حلته.

بل لتحافظ على جدتها».

وبالفعل يقوم «أور ـ شنابى» بتنفيذ أوامر «أوتو ـ نبشتم» بحذافيرها:

ثم ركب جلجامش و«أور ـ شنابى» فى السفينة.

وأنزلا السفينة فى الأمواج وتهيأ للإبحار.

وإذ ذاك خاطبت امرأة «أوتو ـ بشتم» زوجها وقالت له:

«لقد جاء جلجامش إلى هناك وقاسى التعب واشتطت به النوى.
فماذا عساك أن تعطيه وهو عائد إلى بلاده»؟
وكان جلجامش فى تلك اللحظات قد رفع المردى.
ليرقب السفينة إلى الشاطئ.
فأدركه «أوتو ـ نبشتم» وخاطبه قائلاً:
«لقد جئت يا جلجامش إلى هنا وقاسيت التعب.
فما عسانى أن أعطيك حتى تعود إلى بلادك؟
سأفتح لك، يا جلجامش، سراً خفياً.
أجل! سأكشف لك عن سر من أسرار الآلهة!
يوجد نبات مثل الشوك ينبت فى المياه.
وشوكه يخز يديك كما يفعل الورد.
فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة»
وما إن سمع جلجامش هذا القول.
حتى فتح المجرى الذى أوصله إلى المياه العميقة.
وربط بقدميه أحجاراً ثقيلة.
ونزل إلى أعماق المياه حيث أبصر النبات.
فأخذ النبات الذى يخز يديه.
وقطع الأحجار الثقيلة من قدميه.
فخرج من عمق البحر إلى الشاطئ.
ثم قال جلجامش لـ«أور ـ شنابى» الملاح:
يا «أور ـ شنابى»، إن هذا النبات عجيب.

يستطيع المرء أن يستعيد به نشاط الحياة.

لأحملنه معى إلى «أوروك» ذات الأسوار.

وأشرك معى الناس ليأكلوا منه.

وسيكون اسمه: «يعود الشيخ إلى صباه كالشباب».

وأن سآكله فى آخر أيامى حتى يعود شبابى».

ثم سارا، وبعد أن قطعا عشرين ساعة مضاعفة.

تناولا لقمة من الزاد.

وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا ليبيتا الليل.

وأبصر جلجامش بئراً باردة الماء.

فنزل فيها ليغتسل فى مائها.

فشمت الحية شذى النبات.

فتسللت واختطفت النبات.

ثم نزعت عنها غلاف جلدها.

وعند ذلك جلس جلجامش وأخذ يبكى.

حتى جرت دموعه على وجنتيه.

وكلم «أور ـ شنابى»، الملاح قائلاً:

«من أجل من يا «أور ـ شنابى» كلت يداى؟

ومن أجل من استنزفت دم قلبى؟

لم أحقق لنفسى مغنماً.

أجل: لقد حققت المغنم إلى «أسد التراب».

أفبعد خمسين ساعة مضاعفة.

يأتى هذا المخلوق فيخطف النبات منى.

وقد سبق لى أنى لما فتحت منافذ الماء.

وجدت أن هذا نذير لى أن أتخلى عن مطلبى.

وأترك السفينة فى الساحل».

وبعد مسيرة عشرين ساعة مضاعفة

تنالوا لقمة من الزاد.

ثم وصلا إلى «أوروك» ذات الأسوار.

وبذلك ينتهى هذا الجزء من الملحمة بفشل «جلجامش» فى الحصول على الخلود الذى كان ينشده، وكأن الناموس الإلهى لا يقبل إلا أن يموت الإنسان، وأن الخلود الدائم ما هو إلا أكذوبة كبرى.

جلجامش وإنكيدو والعالم الأسفل

هذا الجزء من الملحمة جاءت به إلينا النصوص السومرية، وهو ترجمة حرفية لما جاء به اللوح الثانى عشر من الملحمة البابلية، ويبدأ النص بالحديث عن شجرة «إنانا» التى استقدمتها من نهر الفرات إلى مدينتها «أوروك»، وزرعتها وأخذت ترعاها لتصنع من أخشابها كرسياً وسريراً.

وعندما كبرت الشجرة حاولت إنانا أن تقطعها، إلا أنها فشلت فى ذلك ـ بعد عدة محاولات، وذلك لأن ثعباناً ضخماً اتخذ أسفلها مأوى له، كما اتخذ طائر «الصاعقة» «زو» من أغصانها عشا له ولصغاره، وفى وسطها اتخذت الشيطانة «ليلث» مأوى لها، ولم تجد «إنانا» أمامها إلا الاستعانة بجلجامش البطل الذى قام بقتل الحية، فهرب الطائر «زو» إلى الجبال، وعادت الشيطانة «ليلث» إلى القفار، عند ذلك قطعت الشجرة، وصنعت «إنانا» الكرسى والسرير، وصنعت لجلامش ـ مكافأة له على صنيعه ـ من جذع الشجرة طبلا اسمه

«بكو» ومن أغصانها مضرب طبل اسمه «مكو» ويبدو أن هذه الآلة كانت مسحورة، فعندما كان جلجامش يبدأ بقرعها، كانت تحن له قلوب العذارى، وكن يأتين إلى داره ويغتصبهن، حتى أن الآباء قد بدأوا يتضجرون من أفعاله، لأنه كان ينتهك بنات أوروك.

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فإن «البكو» و«المكو» - وربما يفعل إنانا كما تخبرنا النصوص السومرية - قد سقطا إلى العالم الأسفل من خلال ثقب فى الأرض، وأراد جلجامش أن يستردهما بأن أدخل يده من الثقب لكنه لم يفلح فى هذا، فجلس على حافة العالم الأسفل وهو يندب وينوح.

ايا «بكى» من سيعيدك إلى من العالم الأسفل؟

ويا «مكى» من سيرجع بك من العالم الأسفل؟

يسمع «إنكيدو» بكاء صديقه وخله «جلجامش»، فيخبره أنه على استعداد - حتى يسعد صديقه - أن ينزل بنفسه إلى العالم الأسفل حتى يعود له بال«مكو» وال«بكو»، وهنا يبدأ جلجامش فى تعريف «إنكيدو» بقوانين العالم الأسفل، وما يجب عليه فعله، ويتحتم عليه تجنبه حتى يعود سالماً من هذا العالم الذى قلما عاد منه من ذهب إليه:

إذا اعتزمت النزول إلى العالم الأسفل،

فسأقول لك كلمة فاتبع كلمتى.

سأرشدك فسر وفق إرشادى.

لا تلبس ملابس نظيفة زاهية.

فتبدو نزيلاً غريباً عنهم.

لا تمسح جسمك بالزيت الفاخر.

لئلا يجتمعوا حولك بسبب عطره.

لا ترم عصاك فى العالم الأسفل.

حتى لا تصيب أحدهم فيحيطوا بك.

لا تأخذ بيدك عصا.

وإلا فإن الأرواح سترتجف منك.

لا تلبس نعلاً فى قدميك.

ولا تحدث صوتاً فى العالم الأسفل.

وإذا وجدت الزوجة التى تحبها فلا تقبلها.

والزوجة التى تبغضها لا تضربها.

ولا تقبل الابن الذى تحب.

ولا تضرب الابن الذى تكره.

وإلا فإن صراخ العالم الأسفل سيغلبك.

إلا أننا ـ ولأسباب غير معلومة ـ نجد أن إنكيدو قد قام بمخالفة كل ما نصحه به «جلجامش»، فقد لبس حلة نظيفة، ومسح جسمه بالزيت، وأخذ بيده عصا، فتراقصت أمامه الأشباح، ولبس النعل فى قدمه، فأحدث جلبة بالعالم الأسفل، وقبل زوجته التى يحب، وضرب زوجته التى يكره، وقبل ابنه الذى يحب، وضرب ابنه الذى يكره، فأمسك به صراخ العالم الأسفل، ولذا منعته «أرشكيجال» من الصعود من عالم الأموات، وعندما تأخر «إنكيدو» أيقن «جلجامش» ما حدث له فمخالفة «إنكيدو» لهذه النصائح جعلت مَن بالعالم الأسفل يشعرون به، ومن ينزل إلى هذا العالم من الآلهة، فإنه لا يرجع منه ـ كما رأينا عند عرض قصة إنانا ودموزى ـ إلا إذا قدم بديلا، فما بالك بالبشر، فهم لا رجعة لهم منه أبداً.

لذلك يلجأ جلجامش إلى الإله «إنليل» لينقذ «إنكيدو» ولكنه لم يسعفه، ثم

تضرع إلى الإله «سين» وكان موقفه كموقف إنليل، وأخيراً تضرع إلى الإله «إيا» وقدم له شكواه:

وعندما سمع الأب «إيا» ذلك.

قال لنرجال:

نرجال، أيها البطل الصنديد.

فلتفتح الآن ثقبا فى العالم الأسفل.

تستطيع منه روح «إنكيدو» الصعود من العالم الأسفل.

فامتثل نرجال لطلب «إيا».

وعلى الفور فتح ثقبا فى العالم الأسفل.

فانسلت من خلاله روح «إنكيدو» وكأنها هواء.

فتعانق الصديقان وقبلا بعضهما.

فسأل جلجامش «شبح» إنكيدو:

«أخبرنى يا صديقى عن أحوال العالم الأسفل الذى رأيت».

فأجابه صديقه:

«لن أقص عليك أخبار العالم الأسفل يا صديقى.

وإذا كان لابد من إخبارك فعليك أن تجلس وتبكى».

فأجابه جلجامش: «سأجلس وأبكى».

فأخذ شبح «إنكيدو» يشرح له الصورة القاتمة التى وجدها فى العالم الأسفل:

«إن جسمى الذى كنت تلمسه يوم كان قلبك تغمره الأفراح،

يلتهمه الدود الآن كما لو كان خرقة».

فصرخ جلجامش: يا ويلتاه، وتمرغ فى التراب.

صرخ «جلجامش» ورمى نفسه فى التراب وخاطب شبح إنكيدو:

هل رأيت الذى قتل فى المعركة؟

أجل، لقد رأيت، أبوه وأمه يرفعان رأسه.

وتنوح عليه زوجته.

وهل رأيت من ترك جثمانه فى البرية؟

أجل لقد رأيت. إن روحه لا تجد الراحة فى العالم الأسفل.

هل رأيت من لا يوجد أحد يقرب لروحه؟

أجل لقد رأيت إن روحه تأكل من حثالة الأوعية.

وكسرات الخبز وفضلات الشوارع.

هل رأيت الذى لا ولد له؟

أجل رأيته.

«سطران مفقودان».

هل رأيت الذى خلف وراءه ابناً واحداً؟

أجل لقد رأيته وهو ممدد أسفل الجدار ويبكى بكاء مراً،

والذى خلف ابنين هل رأيته؟

أجل لقد رأيته، إنه يضطلع فى بناء من الآجر ويأكل الخبز.

هل رأيت الذى خلف ثلاثة أبناء؟

أجل رأيت. إنه يسقى الماء من زقاق ماء العمق.

والذى له أربعة أبناء هل رأيت؟

أجل شاهدته وهو فرح القلب .

وهل رأيت الذى خلف خمسة أبناء؟

نعم رأيته . وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة ،

ويسمح له بدخول القصر .

ويظل «جلجامش» يعدد له الأسئلة كيما يعلم كل شىء عن هذا العالم المجهول، وعلى كل حال، فإن «إنكيدو» ـ طبقاً لهذا الجزء من الملحمة ـ قد مات من أجل صديقه جلجامش، وهو يحضر له البكو والمكو من العالم الأسفل.

أما فى الملحمة البابلية، فقد اجتمعت الآلهة ـ كما رأى إنكيدو فى حلمه ـ وقرروا موت «إنكيدو» لأنه قتل خمبابا «خواوا» وثور السماء مع جلجامش، مما كان سبباً فى بحث جلجامش ـ على إثر موت صديقه ـ عن الخلود الدائم حتى لا يعانى من الموت وسكراته كما عانى صديقه العزيز «إنكيدو».

موت جلجامش

أصبح «جلجامش» الآن على يقين أنه لا سبيل إلى الحصول على الخلود الذى كان يتغياه، والذى أضنى نفسه فى البحث عنه، ونقصد هذا الخلود الجسدى الذى لا يناله الموت، فقد أضحى على يقين أن الموت ملاقيه حتماً، وأنه لا مفر منه، ويكفيه شرف أن الآلهة قد حبته بالملوكية، وساعدته على القيام بالأعمال الجليلة التى خلدت ذكره بين بنى الإنسان.

ويبدأ هذا الجزء من الملحمة برؤية جلجامش حلماً كان نذيراً بموته، حيث رأى أنه يدخل فى موضع ظلمة عتية، وأن أهِلّة كثيرة بددت هذه الظلمة، وأن أشباحاً تخرج فى شهر آب من هذا الموضع، فقص «جلجامش» حلمه هذا على الإله «إنليل» والذى قام بتفسيره له، وأخبره أنه حاز على الملوكية، أما الخلود فلم يقدر له:

العالم الأسفل، موضع الظلمة، سيضيء حقاً.

والبشر مهما كثرت أسماؤهم وأنواعهم.

فمن غيره من سيكن مثل هيئته إلى قابل الأيام؟

والأبطال العظام، والعرافون. إنهم كالهلال حقاً.

من غيره من وجد القوة والقدرة قبلهم.

وفي شهر آب، الأرواح.

لا يكون ضوء أمامهم بدونه.

إن «إنليل» الجبل العظيم، أبو الآلهة.

إن مغزى حلمك أيها السيد جلجامش:

لقد قدر مصيرك أن تحوز على الملوكية يا جلجامش.

أما الحياة الخالدة فلم تقدر لك.

ولكن لا يحزن قلبك من أجل تلك الحياة.

ولا تبتئس ولا تقنط وتحزن.

ومن ارتكب الخطيئة من بني الإنسان.

ومن المحرمات أطلق قيدك.

لقد وهبك نور البشر وظلمتهم.

ووهبك السيادة على البشر.

وقدر لك النصر في المعركة التي لا يسلم منها أحد.

وقدر لك النصر في الهجوم الذي لا يسلم منه أحد.

ومن «دحر» الشر يضطجع ولا يقوم

ومن مكن العدل فى البلاد يضطجع ولا يقوم.

والشديد القوى يضطجع ولا يقوم.

إن سيد «كلاب» يضطجع ولا يقوم.

والحكيم الوسيم يضطجع ولا يقوم.

ومن ارتقى الجبال معه يضطجع ولا يقوم.

على فراش المنية المقدرة يضطجع ولا يقوم.

وعلى السرير المزركش يضطجع ولا يقوم.

القائمون غير صامتين والقاعدون غير صامتين.

لقد أقاموا ندباً ومناحة.

ومن يتناول طعاماً لم يسكت ومن يشرب الماء لم يسكت.

لقد أقاموا مناحة.

و«نمتار» غير صامت.

وكالسمكة قد مد «يده واختطف روح جلجامش».

«وكان جلجامش» كالغزال الذى وقع فريسة السلاح «كشيرو».

«نمتار» الذى لا أيدى له ولا أرجل ولا يشرب الماء.

ولا يأكل الطعام.

«حمل جلجامش إلى العالم الأسفل».

وينتهى الأمر - طبقاً لما جاء فى النصوص - برحيل عائلة وحاشية جلجامش معه إلى العالم الأسفل، وقد فسر «ليونارد وولى» هذا الأمر بأن هؤلاء الذين صاحبوه هم أضاحى بشرية كانت ترافق الملوك فى موتهم، وقد دفنوا معه أحياء، وذلك طبقاً لطقس دفن أتباع الأمير أو الملك معه.

المصادر والمراجع

١ ـ مجدى كامل: أشهر الأساطير فى التاريخ، دار الكتاب العربى، دمشق ـ القاهرة ٢٠٠٣ .

٢ ـ خزعل الماجدى: الدين السومرى، دار الشروق، عمان ـ الأردن ١٩٩٨ .

٣ ـ فراس السواح: موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الثانى، دار علاء الدين ٢٠٠٧ .

٤ ـ صلاح أبوالسعود: أساطير سومر وبابل، دار مشارق ٢٠٠٩ .

٥ ـ كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى، مكتبة النافذة ٢٠٠٦ .

ـ مواقع عربية وأجنبية على شبكة الإنترنت الدولية.

الفهرس

الأساطير السومرية

أساطير الطوفان - أسطورة إنكى - أساطير الخلق السومرية - ملحمة جلجامش - أسطورة إنانا ودموزى

إن الصورة الحسية للآلهة السومرية نشأت من الطبيعة فى جنوب العراق. وورث الإنسان السومرى تقاليد عبادة الإلهة الأم، وهى إلهة طبيعية من شمال العراق. ولذلك جاءت أول تصوراتهم الحسية عن الآلهة ملتصقة بالطبيعة لأنهم كانوا يرون فى ذلك استمرار بقاء زرعهم وقطعانهم ومياههم التى كانت مصدر عيشهم الأول.

ولذلك كانت صور الآلهة وخصوصاً قبل ٣٠٠٠ قبل الميلاد لها علاقة بالدرجة الأساس بالطبيعة حيث كان كبار الآلهة السومريين هم الطبيعة نفسها، فالإله آن هو السماء وإلهها، والإله إنليل هو الهواء وإلهه، والإله إنكى هو الماء وإلهه، والإلهة كى هى الأرض وإلهتها. وتم تصور الآلهة أيضاً على شكل حيوانات مثل الإلهة باو إلهة الزراعة والشفاء..

وتطور تصور الآلهة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد وأصبح أقرب إلى الشكل الإنسانى. أما الصورة المجردة أو الذهنية أو التأملية للآلهة فقد أخذت تنمو مع ازدياد مدركات الإنسان العقلية والروحية، وصارت فكرة الألوهة حاضرة بشكل دائم فى الذهن القديم.

وأتركك عزيزى القارئ.. لتطالع مجموعة من الأساطير السومرية عسى أن تجد فيها المتعة الفنية والخيال الإنسانى الرائع.

W.Salama 010 15 17 873

كنوز
للنشر والتوزيع